



سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة

حصصا

ندوة الدراسات العُمانية

البحوث والدراسات التي قدمت في الندوة

ذوالحجة ١٤٠٠ هـ - نوفمبر ١٩٨٠ م

المجلد الثاني

سَلْطَنَةُ عُومَانِ
وَزَارَةُ التَّرَاثِ الْقَوْمِيّ وَالثَّقَافَةِ

حَضَائِرُ

مَدْوَنَةُ الدِّرَاسَاتِ الْعُومَانِيَّةِ

الْبَحْثِ وَالدِّرَاسَاتِ الَّتِي قَدِمَتْ فِي الْمَدْوَنَةِ

ذَوِ الْحِجَّةِ ١٤٠٠ هـ - نَوْفَمُبْرِ ١٩٨٠ م

الطَّبْعَةُ الثَّانِيَّةُ

الْمَجْلَدُ الثَّانِي

نواصل في هذا المجلد ما بدأناه في المجلد السابق عن

تاريخ عُمان ونشاطها الداخلي من مطلع الإسلام حتى الآن .

الدولة العثمانية : نشأتها وازدهارها

صديق حسن عبد وافي

تقديم واهداء

يتناول هذا البحث جانبا مهما من تاريخ عمان وبالأحرى الجانب الذى كان محل اعتزاز وغفر للعمانيين عبر اجيال عديدة خلال القرون الماضية ، ولازالت آثار ذلك الاحساس قائمة حتى اليوم . فعندما يشار الى عمان فى المحافل الدولية ، فان أهم ما يشار اليه انها دولة لها تاريخها الذى تمتد جذوره الى مئات السنين قبل الميلاد وانها دولة استطاعت أن تجابه أساطيل الامبراطورية البرتغالية بل التفوق عليها وانشاء دولتها الخاصة على انقاض الامبراطورية البرتغالية فى شرق افريقيا .

وكلمة الامبراطورية فى الواقع حساسة وغير دقيقة وهى تطلق عادة على أية دولة استطاعت أن تمد سيطرتها ونفوذها خارج مناطق حدودها ، خصوصا اذا كانت هناك قواصل جغرافية بين حدودها الأصلية وحدود الأجزاء التابعة لها .

وكلمة الامبراطورية بدىء باستعمالها على عهد الدولة الرومانية التى استطاعت أن توسع من رقعة الأراضى التابعة لها لتشمل مناطق فى بقاع مختلفة من العالم وكانت الكلمة مرادفة فى بداية استعمالها للنظام السياسى السائد فى الامبراطورية الرومانية والبيزنطية حيث كان رئيس الدولة يلقب بالامبراطور ، ولكن لعدم وجود كلمة مشابهة تشمل الدولة الأصلية والمناطق التى تم فتحها أو الاستيلاء عليها فان كلمة الامبراطورية استعملت تجاوزا على أوضاع أية دولة كانت لها سلطة حكم على أراضى دول أو شعوب أخرى حتى لو لم يكن النظام السائد بها نظاما امبراطوريا .

ومن هذا المنطلق استعملت كلمة الامبراطورية تجاوزا على الأراضي التي كانت خاضعة للدولة الاسلامية ، فسميت لدى العديد من المؤرخين بالامبراطورية الاسلامية . وبنفس الأسلوب اطلقت كلمة « الامبراطورية البريطانية » على بريطانيا والأراضي التابعة لها وكلمة « الامبراطورية الفرنسية » على فرنسا والأراضي التابعة لها . وبنفس المعنى تطلق « الامبراطورية العمانية » على عمان والأراضي التي كانت تابعة لها في حقبة زمنية من التاريخ .

ويتألف هذا البحث من أربعة فصول . الفصل الأول : أوضاع عمان قبل نشأة الامبراطورية العمانية . والفصل الثاني : نشأة الامبراطورية العمانية في عهد دولة اليعاربة . والفصل الثالث : نمو وازدهار الامبراطورية في عهد أسرة البوسعيد . والفصل الرابع والأخير : يتناول اضمحلال الامبراطورية العمانية بعد وفاة سعيد بن سلطان عام ١٨٥٦م . ويتناول كل فصل باسهاب الأسباب والمقومات والعوامل الداخلية والخارجية التي ساهمت في نشأة الامبراطورية وازدهارها أو تلك التي ساهمت في اضمحلالها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

ولما كانت عمان تشهد في الفترة الحالية بقيادة مولانا جلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم نشأة حضارة جديدة على أنقاض الحضارة التي اضمحلت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وتقديرا للجهود المخلصة التي بذلت خلال السنوات العشر الماضية من النهضة المباركة والتي استطاعت نقل عمان من دولة متأخرة الى دولة مسابقة لمقومات حضارة القرن العشرين ، فأننى أتشرف باهداء هذا البحث الى قائد نهضتنا جلالة السلطان المعظم ، حفظه الله .

المؤلف

١٩٨٠/١١/١

عمان في المرحلة السابقة لنشأة الدولة العمانية :

يطلق عادة تعبير « العصر الذهبي » لمنطقة الخليج على الفترة التاريخية لهذه المنطقة الواقعة بين عامي ٧٥٠ و ١٥٠٧ م حين استطاعت هذه المنطقة أن تلعب دورا بارزا كوسيط تجارى بين تجارة الشرق والغرب والتي أدت الى ازدهار المنطقة ونشوء مراكز جديدة عادت بالخير على أهلها . ويرغم أن العمانيين لعبوا دورا مهما وقدموا اسهامات بارزة في عمليات التبادل والنقل التجارى في تلك الحقبة من التاريخ . ويرغم أن تلك الاسهامات أفادت العمانيين باكسابهم مزيدا من الخبرة في عمليات التبادل التجارى وصناعة السفن والعلوم البحرية ، فان تلك الفترة لم تكن هي « العصر الذهبي » لعمان ، بل الواقع ان العصر الذهبي العماني ابتدأ بعد ما يقرب من قرن ونصف من انتهاء العصر الذهبي لمنطقة الخليج وذلك على أثر تزايد دور الملاحة العمانية في المنطقة ونشوء حكومات مركزية قوية مهدت لانشاء أول امبراطورية عمانية في التاريخ واستطاعوا خلالها اخضاع العديد من المدن والمراكز التجارية في الخليج وشرق افريقيا تحت سيطرتهم . وأصبحت عمان لمدة تزيد عن قرنين من الزمن قوة سياسية واقتصادية مهمة في المنطقة تتعامل مع القوى الدولية الكبرى وتلعب دورا بارزا في سياسات المنطقة وتقرير مستقبلها .

ويجدر بنا أولا ان ندرس بعناية العوامل السياسية والاقتصادية والطبيعية التي مهدت وساهمت في توفير المقومات والقدرات اللازمة لتحقيق الفتوحات العمانية وانشاء أول امبراطورية عمانية في منتصف القرن السابع عشر الميلادي ذلك ان تحقيق مثل هذا الهدف الكبير لا يتأتى الا بتوافر قدر كاف من الارادة السياسية ووسائل جبرية تقنية متطورة الى جانب الخبرات القتالية تكون متمشية مع روح العصر وامكاناتها .

من المعروف أن عمان تعتبر من أكثر الأقاليم عزلة من الناحية

الجغرافية ، غالى جانب احتواء البحر لعمان من جهات ثلاث ، فان رمال الربع الخالى تحيط بها من الجانب الرابع . وفى الوقت الذى أدت هذه العوامل الجغرافية الى فرض عزلة عمان عن العالم الخارجى ، فان السلاسل الجبلية الممتدة من الشمال الى الجنوب قسمت البلاد الى مناطق متباينة تعاني من صعوبات الاتصال الداخلية بسبب وعورة الطرق الجبلية مما خلق نوعا من العزلة بين المناطق الساحلية والداخلية الا عبر طرق محدودة ومعروفة .

الوحدة والتكاتف بين الشعب العماني :

ورغم تلك العوامل الجغرافية والعزلة الطبيعية ، فقد استطاع الشعب العماني أن يخلق الاتصالات الحضارية خارجيا وداخليا . فمن طريق البحر استطاع البحارون العمانيون وصناعوا السفن بجهودهم المتواصلة عبر قرون من الزمن أن يخلقوا أسطولا بحريا قويا ويصبحوا سادة البحار فى المنطقة . كما أن توافر المياه فى الشريط الساحلى بين الجبال والبحار وكذلك فى المناطق الداخلية الواقعة فى السلاسل الجبلية قد ساعدت على اقامة كيان زراعى متطور ، وبرغم صعوبات الاتصالات الداخلية من ناحية والتناحر القبلى فى فترات مختلفة من التاريخ من ناحية أخرى ، الا أن هذه العوامل لم تمنع من تلاحم الشعب العماني وتكاتفه وتعاونه ، فقد كانت عوامل التعاطف والتعاون أقوى بكثير من عوامل التفرقة وصعوبات الاتصال .

ومن العوامل التى ساعدت على الوحدة والتماسك والتعاون ، أن الغالبية الساحقة من المواطنين العمانيين هم عرب جاءت هجراتهم الأولى على موجتين فى فترتين زمنييتين قبل ظهور الاسلام بقرون .

وعرف المهاجرون العرب الأوائل الذين جاءوا من اليمن حوالى القرن التاسع ق.م باليمنيين أو الأرد أو القحطانيين والدفعة الثانية التى هاجرت من شمال وأواسط الجزيرة العربية حوالى القرن الرابع أو الخامس الميلادى ، عرفت بالنزاريين أو العدنانيين .

وكان التنافس بين المجموعتين أمراً طبيعياً ، إلا أن الأهداف المشتركة بينهما وخصوصاً مواجهة عدو مشترك قد أذاب ذلك الجو المشحون من التنافس وبالتعاون المشترك تم طرد الفرس الذين كانوا يحكمون أجزاء كبيرة من عمان •

وفي فترات لاحقة من التاريخ العماني في القرن الثامن عشر •• ظهرت صراعات سياسية حادة على السلطة وانقسمت القبائل الى مجموعتين سياسيتين هما الهناوية والغافرية • ويحاول العديد من المؤرخين الربط بين الصراعات الهناوية الغافرية وبين الصراعات النزارية والقحطانية الا أنه بالدراسة المتأنية يثبت لنا أن العديد من القبائل النزارية والقحطانيين كانت متداخلة في مجموعتي الغافريين أو الهناويين وبالتالي فإن الصراعات الأخيرة كانت بالدرجة الأولى صراعات سياسية •

ومن العوامل التي ساعدت على الوحدة والتكاتف انتماء المجتمع العماني ككل الى الاسلام وانتماء غالبيتهم الى المذهب الاباضي • بل ان ولاء الشعب العماني لهذا المذهب ، خصوصاً في القرون الأولى من الاسلام ساعد كثيراً نتيجة فلسفة هذا المبدأ على اختيار زعامات دينية استطاعت أن تحقق السلطة المركزية في البلاد ، انضوت تحت لواءه كل القبائل العمانية •

ومن العوامل الأخرى التي ساعدت على الوحدة والتماسك أيضاً وجود « العدو المشترك » ففي فترات مختلفة من التاريخ التحم الشعب العماني وتوحد ودافع عبر فضال شاق عن ترابه ومكتسباته ضد عدو مشترك مثل الفرس أو البرتغاليين • بل ان وحدة النضال ضد البرتغاليين كان عاملاً أساسياً من عوامل انشاء الامبراطورية العمانية •

والاختلافات الوحيدة التي تواجدت في عمان بين أبناء الساحل والداخل هي تلك الاختلافات التي تفرضها عوامل الطبيعة في أي بلد في العالم • كاشتغال أبناء الساحل في حرفة الصيد متميزين عن أبناء الداخل وتأثرهم

أكثر بعادات وتقاليد الشعوب الأخرى نتيجة الاحتكاك الحضارى مع العالم الخارجى . فكان أبناء الساحل عموما أكثر انفتاحا فى تعاملهم مع أجناس أخرى وأكثر اكتسابا لعادات مجتمعات أخرى : مما كان يخلق نوعا من الاختلافات الفرعية فى الممارسات التقليدية بين أبناء الساحل الأكثر تأثرا بالحضارات الخارجية وأكثر اعتدالا فى ممارسة الشعائر الدينية ولكن هذه الاختلافات لم تكن تؤثر على مسائل عقائدية جوهرية أو الحفاظ على وحدة التراب من الأعداء أو التعاون المثمر فى المجال الاقتصادى والاجتماعى مثل الزراعة والزواج وغير ذلك .

دور العمانيين خلال العصر الذهبى لمنطقة الخليج :

وكما سبق أن قلنا ، فإن فترة « العصر الذهبى » لمنطقة الخليج تقع بشكل عام بين سنة ٧٥٠م وهى بداية نشأة الخلافة العباسية فى بغداد وعام ١٥٠٧م عندما استولى البرتغاليون على « هرمز » التى كانت أهم مركز تجارى فى منطقة الخليج .

وعلىنا أن نتفهم أنه خلال هذه الفترة الطويلة التى تسمى بالعصر الذهبى كانت تتداخل فترات ركود تجارى نسبى تفرضه عوامل الحروب والتغيرات الدولية فى مناطق مختلفة . وأهم العوامل التى ساعدت على رواج التجارة بين الشرق والغرب من ناحية وزيادة الطلب على كثير من المنتجات الشرقية فى داخل العالم الإسلامى هو استقرار الحكم وازدهاره فى العديد من مناطق العالم .

ففى بغداد كانت الامبراطورية الإسلامية بزعامة الخلفاء العباسيين فى أوج ازدهارها وفى الصين كانت أسرة شانج قد استعادت نفوذها فى البلاد كما استطاعت الامبراطورية البيزنطية إعادة تحقيق الازدهار فى الجزء الشمالى الشرقى من البحر المتوسط بينما استطاعت أوروبا الغربية بقيادة

الملوك الكارولنجيين أن تتخلص ممن الفوضى التي أعقبت انهيار الامبراطورية الرومانية •

ولما كانت الطرق البرية بين غرب وجنوب آسيا محدودة فإن نمو واتساع النشاط الاقتصادي العالمى استوجب استخدام الطرق البحرية ، وانحصر الخيار بين طريقي البحر الأحمر ومنطقة الخليج لأن الطريق حول رأس الرجاء الصالح لم يكن قد بُدِئَ في استعماله بعد • وكان طبيعياً أن يستوجب استعمال طريق البحر الأحمر ومنطقة الخليج استخدام محطات انتقال تقع في تلك الطرق الملاحية الى جانب محطات الانتقال في كل من مصر والعراق والشام •

ومن المراكز التجارية التي احتلت مكانة الصدارة في منطقة الخليج خلال فترة العصر الذهبي ميناء سيراف على الجانب الايراني من منطقة الخليج ، وخلال الفترة بين عامي ٩٠٠ و ١١٠٠م • كانت سيراف أهم محطة تجارية عبر الطريق البحري الرئيسى الذى يربط بين الشرق والغرب وكانت منطقة التجمع والمنفذ الرئيسى للسلع القادمة من بلاد فارس ومنها كانت تتدفق شحنات الحرير الايراني من شيراز •

وخلال الفترة من عامي ١١٠٠ — ١٣٠٠م حل ميناء « قيس » محل سيراف كأهم محطة تجارية في المنطقة • و « قيس » هى جزيرة تقع على بعد عشرة أميال تقريبا من الجانب الفارسى من الناحية الجنوبية للخليج • ورغم ازدهارها الكبير وتبوأها مكان الصدارة ، فإن ازدهارها ونشاطها التجارى لم يرق الى مستوى « سيراف » ، ذلك لأن البحر الأحمر في هذه الفترة كان يلعب دورا مهما ومنافسا للتجارة الدولية مما أضعف الى درجة معينة ازدهار منطقة الخليج ، واستطاع حكام قيس أن يخضعوا سيراف تحت سيطرتهم عام ١١٧٠م •

وفي أواخر القرن الثالث عشر برزت الى الوجود دولة هرمز التي غدت أهم منطقة لتجميع السلع التجارية وأكبر منافس لميناء قيس •

ودولة هرمز بدأت تأخذ دورها التجارى منذ القرن الحادى عشر الميلادى الى أن استطاعت أن تتبوأ مكان الصدارة فى أواخر القرن الثالث عشر • وتعود أهمية دولة هرمز الى موقعها الاستراتيجى فى المضائق المؤدية الى الخليج • وبرغم صغر مساحة الدولة ، فان ملوك هرمز كانوا يحكمون البلاد اسميا وكانت السلطة الفعلية فى يدى مجموعة أوليجركية من التجار ، وكان مجلس الملك برئاسة الوزير هو الذى يقوم بتعيين الولاة فى مناصبهم ويشرف على القوات البحرية والجيش •

وقد ساعد على نمو وازدهار جزيرة هرمز بعدها عن مراكز القلاقل السياسية داخل دولة فارس • وقدرت عدد سفنها عام ١٥٠٣م بثلاثمائة سفينة ولكن فى عام ١٥٠٧م استطاع البرتغاليون أن يستولوا على هرمز • وباستيلاء البرتغاليين بدأت هرمز تفقد مكانتها التجارية الرئيسية نتيجة اهمال البرتغاليين لشؤون التجارة ، وفقدت هرمز جزءا كبيرا من دخلها من التجارة بحلول عام ١٥٨٥م • وبسيطرة البرتغاليين على هرمز انتهى العصر الذهبى لمنطقة الخليج وبدأ ما يسمى بالعصر الفضى •

وخلال تلك الحقبة من التاريخ ، بدأت مكانة العمانيين كبجارة ذو خبرة واسعة تبرز على الصعيدين المحلى والاقليمى • وخلال العصر الذهبى لدولة هرمز (١٣٠٠ — ١٥٠٧م) كان أغلب البجارة لسفن تلك الدولة من عرب عمان واليمن ، واستطاع البجارة العمانيون أن يكتسبوا خبرات ملاحية فعلية وأصبحوا يجوبون المحيطات بكل ثقة وطمأنينة ، وليس أدل على خبرات البجارة العمانيين فى تلك الحقبة الزمنية من التاريخ من أن الملاح العمانى ابن ماجد هو الذى أرشد فاسكو دى جاما الطريق الى الهند عام ١٤٩٨م •

الحملات البرتغالية ضد عمان :

حل البرتغاليون في القرن السادس عشر محل تجار البندقية بايपालيا كوسطاء للتجارة الدولية . وحتى منتصف القرن الخامس عشر كان بحارو البندقية في أوج ازدهارهم كوسطاء للتجارة بين الشرق والغرب ، وكان أسطولهم التجارى يعتبر من أقوى الأساطيل في أوربا . وجاءت الضربة الأولى ضد أهل البندقية عندما تمكن الأتراك من الاستيلاء على قسطنطين عام ١٤٥٢ ونتج عنها تدهور في التجارة القادمة من منطقة الخليج والشام . كما أن الحروب بين أهالى جنوة والبندقية شكلت عاملا آخر من عوامل تدهور مكانة البندقية .

وفى عام ١٤٩٨ كما أسلفنا ، تمكن البحار البرتغالى فاسكو دى جاما من الوصول الى الهند عبر طريق رأس الرجاء الصالح ، وكان لهذا الاكتشاف نتائج رهيبية للطرق التجارية الدولية مؤداها امكانية نقل البضائع والمؤن وغيرها عن طريق البحر من الشرق الى أوربا دون الحاجة الى مرور تلك الشحنات عبر محطات التجارة البرية فى الخليج والشام ومصر وتركيا .

وبرغم محاولات سلطان مصر والأتراك ودوق البندقية منع البرتغاليين من ممارسة التجارة فى البحر العربى ، الا أن البرتغاليين استمروا فى نشاطهم وزادت كثافة سفنهم .

وفى عام ١٥٠٤ عندما عاد البوكيرك من رحلته ، عرض على ملك البرتغال خطة كاملة للاستيلاء وضم أراضى كثيرة فى الشرق الى البرتغال تمهيدا لفرض احتكار وسيطرة كاملة على التجارة بين الشرق والغرب .

وفى عام ١٥٠٦ عين البوكيرك نائبا للملك وحاكما عاما فى الشرق وكلف بمهمة تحقيق الفتوحات البرتغالية فى الشرق ، تلك الأراضى التى تكون من شأنها ضمان سيطرة البرتغاليين على تجارة الخليج وقد ضمت الحملة الكبيرة

ثلاثة أساطيل أحدهما مكون من ١٦ سفينة بقيادة تريستان دوكونها • وقد تمكن هذا القائد في يوليو ١٥٠٧ من تحقيق انتصار نهائي في جزيرة سقطرة حيث تم إبادة الحامية المدافعة عن القلعة •

في أغسطس من عام ١٥٠٧ ظهرت لأول مرة السفن البرتغالية في المياه الإقليمية لعمان • وبعد أن تجاوز أسطول البرتغاليين جزر كوريا موريا • ثم جزيرة مصيرة وصل يوم الحادي عشر من أغسطس قبالة رأس الحد ، حيث بدأ عملياته الحربية باطلاق النار على جميع السفن العربية الموجودة هناك والتي قدرت بحوالي ٣٠ الى ٤٠ سفينة ، وبعد أن تمكن من اضرار النار فيها اتجه الأسطول البرتغالي الى الأمام تجاه صور التي وصفت في ذلك الوقت بأنها قرية صغيرة من قرى الصيد •

ووصل الأسطول بعد ذلك الى مدينة قلعات • فأمر البوكيرك أسطوله بالرسو مع احدث أكبر استعراض وضجة ممكنة • وكان هذا أول استعراض لسفن أوروبية في خليج عمان منذ عهد الاسكندر الأكبر قبل ١٨ قرنا من ذلك التاريخ •

كانت قلعات من المدن الساحلية العمانية المزدهرة ، وهي القرية الساحلية التي زارها ابن بطوطة قبل حملة البرتغاليين بحوالي مائة وثمانين عاما • وفي هذه الفترة كانت سلطة الحكومة المركزية لأئمة عمان ضعيفة على المدن الساحلية •

ويبدو أن ملوك هرمز كانوا قد استطاعوا اخضاع قلعات ضمن نفوذهم السياسي • فعندما بعث البوكيرك وفدا من أسطوله في اليوم الثاني من وصوله أبلغ بأن المدينة تخضع للحكم السياسي لملك هرمز ، كما أبلغهم والي المدينة بأنه على استعداد لتزويد الأسطول البرتغالي بالموءن المطلوبة • وفي اليوم التالي تم تقديم هدايا للبوكيرك الذي رفض تناولها وأمر على الاستسلام غير المشروط للمدينة وعلان الولاء لملك البرتغال •

اتخذ والى قلعات الفارسي موقفا سياسيا مرنا ، فلم يرغب أن يعرض المدينة للدمار ، وهنا طلب من البوكيرك التفاوض مع ملك هرمز على الشروط مؤكدا أنه سواء أدت الاتصالات مع ملك هرمز الى السلم أو الحرب ، فإنه سيعين ولاءه للملك البرتغال . وبناء على نصيحة مستشاريه قرر البوكيرك التوجه الى هرمز بعد أن تزود بالمؤن .

كانت المحطة التالية للبوكيرك قريات ، وكان أهل قريات متأهبين للدفاع والاستبسال أمام الغزو البرتغالي ، وفي اليوم التالي عندما وضع البوكيرك خططه الهجومية ، كان أهالي قريات قد أعدوا مدفعين هاون احدهما مجهز بأربع هاونات للدفاع عن المدينة . وبرغم بسالة أهل قريات وفدائهم ، فإن القوى الدفاعية والهجومية لم تكن متكافئة .

وعندما تمكن البرتغاليون من انزال قواتهم ، قاموا بمذبحة رهيبة لم يميزوا فيها بين الرجال والنساء والأطفال ولاظهار مدى انتصاراتهم على الأهالي ، فقد تم نقل المسجونين الى سوق المدينة بعد أن تم جدد أنوفهم وأذنانهم . وتم بعد ذلك نهب المدينة وحرقتها والاستيلاء على أسلحة الدفاع المتوفرة . كما تم احراق كافة السفن الصغيرة والكبيرة التي وجدت في الميناء وتقدر بحوالي ٣٨ سفينة .

الاستيلاء على مسقط :

وصف البوكيرك نفسه مدينة مسقط عندما شن حملته للاستيلاء عليها : بأنها مدينة كبيرة وآهلة بالسكان ، تحيطها من الجانبين جبال شاهقة وواجهتها قريبة جدا من أطراف مياه البحر . وخلفها نحو الداخل يوجد سهل كبير مثل ساحة لشبونة . وتوجد بها برك كثيرة من المياه الحلوة التي يستعملها سكانها ، وتوجد هناك بساتين وحدائق وأشجار النخيل والتي تروى من مياه الآبار . والميناء صغير على شكل حدوة حصان ومحمى من الرياح . وهو مركز

تجارى مهم حيث تضطر جميع السفن المبحرة فى تلك المناطق ان تدخله ، وذلك لتجنب الساحل الضحل فى الطرف المقابل •

وفى مسقط سوق قديمة لتصدير الخيل والتمور ، وهى مدينة جميلة وبها مساكن جميلة وتزود من الداخل بكثير من المنتجات الزراعية مثل القمح والشعير والدخن والتمور • وتستقبل أى عدد من السفن التى تقدم اليها •

كانت السلطة المركزية فى تلك الفترة بيد الامام محمد بن اسماعيل بن عبد الله الحاضرى الذى تولى الامامة خلال الفترة ٩٠٦ — ٩٤٢ هـ (١٥٠٠ — ١٥٣٠ م) وكانت السلطة المركزية بشكل عام ضعيفة على الموانى ، كما أن ملوك بنى نيهان كانت لهم سلطة فى بعض المناطق من عمان والذين جاءوا الى الحكم حوالى عام ١١١٦م ودام حكمهم لمدة ٥٠٠ عام تقريبا بصورة متقطعة ؛ الا أن البوكريك يشير فى روايته أن ملك عمان فى تلك الفترة هو « بن جابر » والواقع ان بنى جابر هم قبيلة من القبائل الرئيسية التى كانت تتمتع بنفوذ سياسى ودور تاريخى متعظيم • وكان مركزهم الرئيسى الجزء الغربى من عمان ، ونتيجة شهرتهم وبأسهم يوجد وادى يسمى باسمهم • ودورهم التاريخى يعود الى فترات مختلفة من التاريخ •

فقبل الحملات البرتغالية بقرنين ونصف تقريبا كان لهم دور بارز فى الحاق الهزيمة للقوة التى بعثها ملك هرمز ركن الدين محمد عام ١٢٤٣م ، حاول خلالها غزو المناطق الداخلية بعد أن تمكن من اخضاع قلعات تحت نفوذه ، كما لعب بنو جابر دورا بارزا فى فترات لاحقة من التاريخ فى القرن الثامن عشر الميلادى عندما أصبح بنو جابر يشكلون القوة الرئيسية فى التكتل السياسى الذى سمي بالعافريين ضد التكتل السياسى الآخر وهم الهناوين ، وذلك برغم أن بنى جابر ينتمون الى المذهب الاباضى مثلهم مثل معظم الفروع فى التكتل الهناوى •

من الواضح اذا أن القوة البحرية للعمانيين كانت متعاطمة في تلك الفترة . فاذا أخذنا في الاعتبار أن البرتغاليين دمروا عشرات السفن العمانية في حملتهم ، فمما لاشك فيه أن مجموع السفن العمانية كانت تصل الى عدة مئات ، اذا أخذنا في الاعتبار السفن التي كانت مشغولة في التجارة الخارجية وقت الحملة والسفن التي تكون قد بعدت عن السواحل تجنباً للدمار البرتغالي .

وفي مسقط حاول السكان في البداية تجنب الحرب بإيقاد بعثة من اثنين من أعيان البلاد للتفاوض مع البوكيرك ولكنه رفض تلك البعثة لأنها لم تكن مزودة بتفويض رسمي من والي مسقط . وكانت شروط البوكيرك أن تدفع مسقط خريبة سنوية وأن تزود أسطوله بالمؤن والمياه أثناء عملياتها الحربية المقبلة ضد هرمز .

ولكن وصول امدادات من عمان الداخل في مساء اليوم التالي حفز المواطنين على المقاومة خصوصا وانهم كانوا قد انتهوا من بعض استعدادات الدفاع . فبنوا سورا بين تل وآخر قبالة الشريط الساحلي في مسقط .

تمكن البوكيرك بعد أن قسم أسطوله الى قسمين تولى ميمته الكابتن دادافورا داكوستا والميسرة بنفسه ، أن يحقق انزالا بحريا على جانبي الحصون ثم دفع المدافعين الى خارج المدينة وأجرى مذبحة رهيبة بين السكان العرب شملت النساء والأطفال .

وكانت مذبحة البوكيرك بين النساء رهيبة الى درجة أن قائدين من قواده تمردا عليه وهما انطوا دا كامبو وجودا دا نوقا وتم الاستيلاء على ٣٠ مدفعا وأنواع أخرى من الأسلحة .

وبقى البوكيرك ٨ أيام في مسقط يجهز أسطوله بالمؤن والمياه ، كما قام بإشعال الحرائق في المدينة قبل أن ينسحب وذلك بعد أن فشل سكان

المدينة من دفع الفدية الباهظة التي طلبها البوكيرك والتي حددت بعشرة آلاف اشرفية من الذهب • كما التهمت الحرائق ٣٤ سفينة كبيرة الى جانب سفن صغيرة للصيد وكذلك المسجد في مسقط والذي كانت تزينه زخارف من الخشب المحفور •

كانت صحار هي المحطة التالية في الحروب البرتغالية ضد المساويء العمانية • ويبدو أن صلات صحار بالداخل كانت أقوى من بقية المدن ، فقدمت الى صحار قوة قوامها ٧ آلاف مقاتل من الداخل من قبيلة بني جابر ، وحاول والى صحار اظهار قوته والتهديد بان صحار ستقاوم بوسائل مختلفة عن الوسائل التي واجهها البوكيرك في مدن أخرى • ولكن ازاء اصرار البوكيرك بالاستسلام واعلان الولاء لملك البرتغال واثقا من قدرته على الاستيلاء على صحار وافق الطرف العماني على التفاوض •

وبموجب شروط الاستسلام السلمي تم تعيين والى صحار نائبا عن ملك البرتغال وتم فرض جزية سنوية عليها • كما تم التوقيع من جانب والى صحار على تعهده بالولاء لملك البرتغال وتعهد البوكيرك من جانبه على حماية صحار •

وكانت المحطة الأخيرة من حملات البوكيرك في الأراضي العمانية ميناء خور فكان ، حيث قدمت قوات كبيرة من المشاة والفرسان • ولم يقيم أهالى خور فكان بايفاد بعثة تفاوض الى البوكيرك فقام القائد البرتغالى بالهجوم على البلدة وتمكن من الاستيلاء على قلعتها بعد مقاومة باسلة • ولكن الغنائم لم تكن بالحجم الذى كان يتمناها البرتغاليون اذ أن التجار الهندوس الذين كانوا في البلدة غادروها في أسطول صغير قبل الحملة البرتغالية حاملين معهم معظم ثرواتهم وبضائعهم •

وعلى أية حال فان العديد من الأسرى تم اطلاق سراحهم بعد ان تم جددع أنوفهم وآذانهم •

ويصف البوكيرك خور فكان بأنها تقع تحت جبل شاهق وكانت بلدة كبيرة يقطنها الكثير من التجار الهنود (البانيان) والطقس كان صحيا وتوجد فيها زراعة للقمح والدخن والبرتقال والليمون والنخل والتين والميناء كان جيدا يحميه حصنان والخيول كانت تصدر منها الى الهند .

بنجاح البرتغاليين في الحاق الهزيمة بالمقاومة الباسلة لأهالي خور فكان، أصبحت العديد من المدن العمانية الساحلية خاضعة للبرتغاليين .

وهكذا أصبحت عمان خاضعة لثلاثة سلطات : الامام محمد بن اسماعيل، ومركزه الرستاق ومناطق في الداخل كانت لا تزال خاضعة لبنى نبهان والمدن الساحلية : صور ، مسقط ، مطرح ، قريات ، قلهاة ، صحار ، خور فكان ، دبا ولوى خاضعة للبرتغاليين . الا ان القرى الساحلية الواقعة بين تلك المدن الساحلية كانت تخضع في ولاءها السلطة المركزية للامام .

عمان تحت الحكم البرتغالي :

ان النظام الذي اتبعه البرتغاليون من أجل ضمان السيطرة السياسية والتجارية على المدن الساحلية في عمان ، كان يتمثل في احكام السيطرة على الحصون والموانئ ، والجمارك وفي المدن المهمة كان يتم تعيين قائد برتغالي تساعده قوة عسكرية محدودة مع تزويده بكمية من الأسلحة تمكنه من الدفاع فترة زمنية محددة ، معتمدة أساسا على دوريات أساطيلها التي كانت تجوب المنطقة وترور المدن العمانية الساحلية للتأكد من استمرارية ولاء تلك المدن للبرتغال . ولم يكن هذا النظام يسمح لها بالتوغل في المسن الداخلية لعمان ، ذلك لان البرتغاليين كدولة بحرية كانت ستحتاج الى عدة ألوف من الجنود فيما لو حاولت التوغل داخل المدن نظرا للكثافة السكانية في المدن الداخلية الامر الذي كان سيضعها في حروب مستديمة تؤدي بها الى أهدح الخسائر وتحرمها من جنى الأرباح التي كانت تهدف الحصول عليها من خلال السيطرة على المدن التجارية الساحلية .

ونتيجة لذلك فقد فضل البرتغاليون عدم التدخل في الشؤون الداخلية أو الدينية للسكان والاكتفاء بالسيطرة على الجمارك والموانئ والحصون .

ونظرا الى ان الولاية في بعض المدن الساحلية العمانية قبل مجيء البرتغاليين كانوا خاضعين للملك هرمز وبعد سقوط هرمز بأيدي البرتغاليين وقبول ملك هرمز سلطة البرتغاليين والولاء للملكها ، فانها أبقت على الولاية الفرس في المدن العمانية مع ضمان ولائهم للملك البرتغال . وفي بعض الاحيان كانت تقوم بتثبيت شخصيات عمانية في بعض المدن اذا ثبت لها بأن تلك الشخصية راغبة في التعاون مع السلطات البرتغالية واعلان الولاء للملك البرتغال ودفع الضرائب السنوية .

وخلال الفترة من ١٥٠٧ بداية السيطرة البرتغالية الى عام ١٦٣٣ بداية طرد البرتغاليين بقيادة الامام ناصر بن مرشد اليعربى ، شهدت عمان والمنطقة تطورات وتدخلات سياسية معقدة ، فكان البرتغاليون من ناحيتهم يحاولون احكام السيطرة على المدن العمانية وجمع الضرائب السنوية وقمع أى تمرد من جانب ملك هرمز أو الولاية التابعين له .

وكان الفرس من جانبهم يحاولون استغلال الفرصة المواتية للاعلان عن استقلالهم والتخلص من السيطرة البرتغالية الى جانب محاولات تمرد من بعض الولاية الفرس في المدن العمانية ضد ملك هرمز .

والعمانيون من جانبهم خاضوا صراعا على مرحلتين ، تمثل ذلك الصراع في المرحلة الأولى باحلال ولاية عمانيين محل الولاية الفرس في المدن العمانية الساحلية مع بقاء الولاء للملك البرتغال . ثم المرحلة اللاحقة للتخلص من الاستعمار البرتغالى .

والى جانب ذلك شهدت المنطقة صراعات دولية كبيرة ، فقد حاول الأتراك من جانبهم بدون جدوى تخليص المنطقة من السيطرة البرتغالية ثم دخل الانجليز والهولنديون طرفا في الصراعات الا أن صراعاتهم انحصرت

في حروب ضد الأساطير البرتغالية ولم يقدموا أية مساعدة للعمانيين لتحرير بلادهم •

وبالنسبة لمحاولات البرتغاليين احكام السيطرة على المدن العمانية جاءت العمليات الأولى عام ١٥٠٨ م ضد مدينة قلحات عندما قدم الأسطول البرتغالي بقيادة البوكيرك نفسه لتوجيه ضربة انتقامية ضد والى وسكان قلحات بسبب مساعدتهم لملك هرمز أثناء الحملة البرتغالية ضد هرمز •

وعندما فشل نورونها ابن أخ البوكيرك في اقناع والى شريف الدين بالتوجه الى سفينة القائد لمقابلة قائد الأسطول : البوكيرك خوفا على حياته ، قام الأخير بانزال قواته الى البر فالتجأ شريف الدين الى التلال الخلفية للمدينة وبعد أن جمع القائد البرتغالي أكبر كمية ممكنة من المؤن والأشياء الثمينة قام بحرق المدينة بما في ذلك الجامع الذى كانت ترخرقه نقوش رائعة كما جاء في وصف البوكيرك نفسه وهو نفس الجامع الذى زاره ابن بطوطة قبل قرنين تقريبا من ذلك العام •

حافظت هرمز كما كانت في عصرها الذهبى على مكانتها كزعيمة للمدن التجارية في منطقة الخليج حتى بعد خضوع ملكها لسلطة البرتغاليين •

وكانت قلحات تتزعم مسؤولية جمع الضرائب من باقى المدن العمانية وتقوم بارسالها الى ملك هرمز لتسليمها الى البرتغاليين • وقد بلغت تلك الضرائب التى كانت تجمعها قلحات في العقد الثانى من القرن السادس عشر ١٩٢٠٠ أشرقية كانت تساوى ٥٧٦٠ ريالا ماريا تيريزا بالإضافة ٧٥٠٠ أشرقية كانت تدفعها مناطق ساحل جلفار (رأس الخيمة حاليا) وكذلك ١٥٠٠ أشرقية كانت تدفعها السفن المختلفة مقابل صيد اللؤلؤ بالخليج والتى كانت تجبر على الذهاب الى هرمز للحصول على تصريح المرور • وبالتالي فان

مجموع إيرادات الضرائب من عمان والسفن التابعة لها كانت تبلغ ٢٨٢٠٠
أشرفية • وكانت مسقط لوحدها تدفع أكبر مبلغ كمدينة مستقلة ٤٠٠٠
أشرفية مما يوضح مركز مسقط التجارى فى تلك الفترة •

وفى الوقت الذى كان يسعى ملك هرمز أن يدبر تمردا ضد البرتغاليين
ويحصل على استقلال بلاده والعودة الى العصر الذهبى لمملكته ، فانه كان
حريصا كل الحرص على قمع أى محاولة من جانب أى من ولايته فى المدن
الأخرى •

نفى عام ١٥١٩ وجد ملك هرمز ان لديه المبررات الكافية التى تدعو
الى كبح جماح الوالى فى قلهات ، ونظرا لمناعة قلهات وقدرتها للتجأ ملك
هرمز الى البرتغاليين لمساعدته فى تلك العملية •

وحاول الكابتن دوات ميديز دا فاسكونسيلو بالمؤازرة مع دوم جورج
والبوكيرك ائزال قوة صغيرة فى ظلام الليل للتوجه الى مسكن الوالى ريس
شهاب الدين ، الا ان القوة فشلت فى مهمتها نظرا لأن الوالى وقواته كانوا
على حذر من تلك العملية •

وفى العام التالى تم تسوية الأمور وديا من قبل الحاكم العام ونائب
الملك دوم ديجو لويس دا سيكويرا •

فى عام ١٥٢١ ، قام ملك هرمز بمحاولة الاستقلال بملكه من البرتغاليين
وجاء ذلك نتيجة تفاقم الأوضاع الاقتصادية والسياسية معا ونتيجة
للتدخلات السافرة من جانب البرتغاليين فى النظام الجمركى لهرمز وأساليب
وتصرفات المسؤولين البرتغاليين هناك •

وقد وضع ملك هرمز بالتعاون مع وزرائه خطة محكمة وسرية تم
بموجبها اخطار كافة الولاة فى المدن الساحلية بالتمرد على السلطات
البرتغالية فى يوم معين ومحدد ، وذلك لحرمان البرتغاليين من اللجوء الى
مدن أخرى •

وقد كان تواجد الأسطول البرتغالي في هرمز يشكل عائقاً لتنفيذ هذه الخطة • وبناء عليه لجأ ملك هرمز الى حيلة طلب بموجبها من قائد الأسطول البرتغالي التوجه الى البحار لمعاونته في قمع عمليات القرصنة التي كانت تتعرض لها بعض الموانئ على الساحل العماني ، وهكذا تمكن ملك هرمز من ابعاد نصف عدد القطع الحربية البرتغالية من هرمز •

ابتدأ التمرد في هرمز يوم ٣٠ نوفمبر عام ١٥٢١ م ، وقامت قوات ملك هرمز بالهجوم على السفينتين المتواجدتين في ميناء هرمز • وبعد أن تم أسر السفينتين واشعال الحريق في احدى تلك السفينتين بدأت المذبحة ضد البرتغاليين حيث تم قتل حوالي ٦٠ شخصا من البرتغاليين والتجأ الباقون الى الحصن المنيع •

وفي المدن الأخرى أنتشر التمرد في نفس الوقت ، ففى البحرين واجه المسيحيون الاعتداء من الأهالي حيث قتل أيضا قائد الحامية البرتغالية روى بيل •

وفي صحار استطاع عدد قليل من البرتغاليين النجاة والمحافظة على حياتهم •

وفي قلعات كانت معلومات التمرد قد وصلت الى سكانها قبل خذوته فتمكن عدد كبير من البرتغاليين النجاة واللجوء الى القوارب حاملين معهم ثمائهم •

أما في مسقط فان الظروف كانت مختلفة ، فقد كان الوالي في تلك الفترة عربى وهو الشيخ راشد وهو أول ذكر لوالى عربى في المدن الساحلية العمانية • ويبدو ان الوالى آثر معاونة البرتغاليين وكان على خلاف مع الفرس ، فمنع القيام بأى تمرد ، كما انه استغل مجيء الوكيل البرتغالى فاس دو غابجا في قلعات والمسؤول عن الساحل العماني ليعلن هسخ ولائه عن ملك هرمز واعلان ولائه لملك البرتغال •

ونتيجة لهذا الموقف من جانب الشيخ راشد ، فانه واجه مشكلة انتقام الولاة الفرس منه .

وفي أوائل عام ١٥٢٢ قام والى قلهات ريس ديلا مير شاه بمحاولة انتقامية ضد الشيخ راشد ، فبعث بقوات برية الى مسقط ، الا أن الشيخ راشد تمكن بشجاعته من إلحاق الهزيمة في قوات والى قلهات وقتل والى نفسه ، الا أن انتصاره هذا لم يحل دون سداد الضرائب السنوية بانتظام الى ملك هرمز .

قاد البرتغاليون بعد ذلك حملة لاسترداد سيطرتهم على المدن الساحلية في الخليج . فبعث الحاكم العام من جوا فور تلقيه الأنباء بقوة بحرية بقيادة دوم جو نسالو وفي الوقت نفسه جهز أسطولاً آخر بقيادة دوم لويز دو منيريزيس لمساعدته . وكان وصول قوات دوم جونزالو كافية لإعادة السيطرة البرتغالية الى هرمز .

ويبدو أن زعماء القبائل العربية في عمان قد حاولوا استغلال هذه الفرصة لفرض حكم عربي على المدن الساحلية العمانية . فعندما وصل دوم لويز في نفس العام الى صحار وجد أن قبيلتين عربيتين كانتا تحاولان انتزاع الحكم من والى الفارسي ريس شهاب الدين . وكانت إحدى القبيلتين بزعامة سلطان بن مسعود الذي كان يقود قوة من الفرسان تقدر بـ ٢٥٠ فارساً و ٣٠٠٠ من المشاة . والقبيلة الأخرى كانت بزعامة الشيخ حسين بن سعيد من بنى جابر الذي كان يقود قوة من الفرسان قوامها ٥٠٠ فارس و ٤٠٠٠ من المشاة .

ونجح القائد البرتغالي في عقد تحالف مع الزعيمين العمانيين لمهاجمة الفرس براً بقوات القبائل العمانية وبحراً بقوات برتغالية ، على أن يؤول حكم صحار للزعامات العمانية .

وقد تمكن الوالى ريس شهاب الدين من اللجوء الى سفنه والفرار قبل نزول القوات البرتغالية . وبعد انتصار القوات المتحالفة عين الشيخ حسين بن سعيد واليا على صحار كما تم تعيين وكيل برتغالى مقيم بغرض جمع الضرائب السنوية .

وفي عام ١٥٢٦ ، ظهرت بوادر تمرد جديد من جراء تصرفات القسائد البرتغالى ديبجو دو ميلو فى هرمز والى شملت أيضا بعض المدن الساحلية فى عمان ، الا أن القائد البرتغالى دو سابايو استطاع احتواء الأزمة وحلها وديا عن طريق تقديم تنازلات الى والى قلعات والشيخ راشد فى مسقط مع وعد بتأديب قائد الحامية البرتغالى فى هرمز دو ميلو .

محاولات الأتراك طرد البرتغاليين من المياه الخليجية :

فى عهد السلطان سليمان الأول الملقب بالقانونى (١٥٢٠ — ١٥٦٦) جرت محاولات طرد البرتغاليين من مياه الخليج .

ففى عام ١٥١٧ خضعت مصر للحكم العثمانى . وخلال الفترة التالية من حكم سليمان الأول تمكن الأتراك من اخضاع اليمن وعدة موانئ عربية تحت سلطتهم ، الا أن عملياتهم الحربية فى المياه الخليجية لم تبدأ الا عام ١٥٤٦ م عندما قامت قوة بحرية من أربعة سفن بقصف ظفار ثم مسقط . ولم تحاول البحرية التركية انزال القوات على البر ، ولكى يضمن والى مسقط الحماية لظفار طلب من السفن البرتغالية أن تترور ظفار بين فترة وأخرى أثناء رحلاتها البحرية .

وفى عام ١٥٥٢ م جرت المحاولة الثانية للأتراك لطرد البرتغاليين من المياه الخليجية ، وتم تجهيز الحملة الثانية بكفاءة عالية . فقد عهد داوود باشا والى مصر قيادة الحملة الى بىرى باشا ادميرال مصر وتكونت الحملة من أسطول من ٣٠ سفينة مختلفة الحجم وقوات قوامها ١٦ ألف مقاتل .

وكان قائد الحامية البرتغالية في مسقط في تلك الفترة دوم جودا ليسبوا والذي أوفده ملك البرتغال خصيصا لبناء حصن في مسقط لحماية البرتغاليين . وقام قائد الحامية البرتغالية بتجهيز الحصن الذى لم يكن بناؤه قد اكتمل بالمؤن وبالقوات المتوافرة لديه . الا أن هذه القوات لم تكن كافية لصد هجوم الأتراك الذين تمكنوا من النزول في المدينة وجمع الغنائم ثم الهجوم على القلعة التى تمكنت من الصمود أكثر من ١٨ يوما ، اضطر بعدها القائد البرتغالى الاستسلام نهائيا .

ورغم ذلك لم يحاول الأتراك ابقاء قوة عسكرية لهم في مسقط وانما اكتفوا بجمع الغنائم والتوجه الى هرمز معقل البرتغاليين في الخليج ، حيث تمكنوا من انزال قواتهم على البر وجمع الغنائم الا ان القلعة استطاعت الصمود . وبعد قصف دام عشرين يوما يأس قائد الحملة التركية ورخ حصاره عن القلعة .

وعندما قدم الأسطول البرتغالى من جوا لمطاردة الأسطول التركى لم يحاول قائد الحملة التركية يرى باشا صد الحملة أو مقاومتها . بل العكس من ذلك قام بتجميع الغنائم في السفن الثلاثة التى كان يملكها والتى فقدت واحدة منها في مياه البحرين واتجه بالباقيتين الى السويس ، الا أن تصرفاته هذه أدت الى قطع رأسه في مصر بتعليمات من القسطنطينية ومصادرة غنائمه .

لم يؤد الفشل الذى لحق بالحملتين السابقتين للأتراك الى تثبيط همم السلطان سليمان ، اذ أن جزءا كبيرا من ذلك الفشل كان يعود الى سوء تصرفات قواد حملته الذين هدفوا في النهاية الى جمع الغنائم وبالعكس من ذلك ، فان نجاح الأسطول التركى في حملته على مسقط وتمكنه من أسر قائد الحامية البرتغالى هناك خلق مزيدا من الحوافز على محاربة التواجد البرتغالى في منطقة الخليج .

وبناء على تعليمات السلطان سليمان ، قاد مراد باشا والى قطيف ، حملة فاشلة أخرى عام ١٥٥٣ ، حين تمكن القائد البرتغالي الذى كان على علم مسبق بتلك الحملة القادمة من البصرة ، من إلحاق هزيمة نكراء فى قطع أسطوله فى مداخل الخليج . ولكن سرعان ما أمر السلطان سليمان بإعداد حملة أخرى الى مياه الخليج ، وكان يقود الحملة هذه المرة سيدى على بن حسين وهو بحار متمرس ، شارك فى حملات بحرية تركية سابقة تحت أمره قواد مشهورين مثل بربروسا وخير الدين ، وكان قد عين أدميرالا فى مصر مكافأة له على خدماته السابقة ، الا أن القائد التركى وضع تقديرات متدنية لقدرات البرتغاليين .

وقامت أقوى معركة فاصلة بين الأسطولين فى المياه الإقليمية لمسقط انتصر فيها البرتغاليون مرة أخرى ولاذ سيدى على بالفرار الى الهند خوفا من اعدامه فى حالة العودة الى اسطنبول وبقي يتنقل بين سورات والمسند الاخرى فى الهند لمدة ثلاثة أعوام عاد بعدها الى اسطنبول حيث وجد أن القضية قد خفت حدتها فأحيل هو وخمسون آخرون من مرافقيه الى التقاعد .

ولادة تزيد عن عشرين عاما كانت المياه الخليجية هادئة من أية محاولة تركية مستجدة . ولكن فى عام ١٥٨٠ م وصلت شائعات الى مسقط بأن الأتراك يستعدون لحملة بحرية يتم تجهيزها فى عدن . الا أن قائد الحامية البرتغالية فى هرمز لم يصدق تلك الأنباء ، وبرغم محاولات والى مسقط التأكد من مدى صحة تلك الأنباء الا انه لم يتم اتخاذ اجراءات دفاعية واقية لتلك الحملة فى مسقط .

كان قائد الحملة التركية تلك ماثبر تركى اسمه سير على بيچ الذى قاد حملة من أربع سفن فقط من عدن فى أغسطس ١٥٨٠ م . وكان وصوله الى مسقط فى ٢٢ سبتمبر من ذلك العام . واتبع المغامر التركى تكتيكا جديد

لتحقيق الانتصار . فبدلاً من مهاجمة مسقط من الساحل فقط ، فإنه نزل بجزء من وحداته تقدر بـ ١٥٠ مقاتل في قرية سيداب في الجانب الخلفي من مسقط ، ووزع ليلاً تلك الوحدات على أبواب سور مسقط الثلاثة على أن يبدأ الهجوم براً من الخلف في نفس الوقت الذي تبدأ السفن بإطلاق نيرانها من الأمام .

وبرغم أن عدد البرتغاليين في مسقط في تلك الفترة كان يصل إلى ٥٠٠ شخص إلا أن ٧٠ شخصاً منهم فقط كانوا قادرين على حمل السلاح . وأدى الظهور المفاجيء للعدو من الأمام والخلف إلى إثارة البلبلة بين صفوف المدافعين والمدنيين الذين هرب أكبر عدد منهم مع أسرهم إلى مطرح .

وأدرك على بيج بعد تحقيق انتصار سريع أنه ليس من مصلحته البقاء كثيراً في مسقط خوفاً من قدوم نجدات للبرتغاليين ، فاكتمى بالغنائم التي استطاع جمعها في يوم واحد وبعد شحنها على السفن توجه إلى عدن ، ليقوم بعدها بغارات خاطفة على المواقع البرتغالية في شرق إفريقيا ، إلا أنه أثناء حملته عام ١٥٨٩ وقع أسيراً بيدى قائد الحامية البرتغالية في مباسا : دوم داسوزا كوتينهو ونقل إلى لشبونة حيث تنصّر ومات ربما من أثر التعذيب الذي لقيه .

الصراعات الأوروبية في مياه الخليج :

خلال الفترة من آخر حملة تركية سنة ١٥٨٠ إلى ١٦٢٠ بداية الصراع البرتغالي مع القوى الأوروبية الأخرى ، بقيت المدن الساحلية على ضفاف عمان هادئة بالنسبة للبرتغاليين ، وقد تعلم البرتغاليون درساً من الحملة التركية على مسقط عام ١٥٨٠ ، فبدأوا بتقوية استحكاماتها عن طريق بناء قلعتين ضخمتين على جانبي الميناء في مسقط هما قلعة سان جوا (جلالى حالياً) وانتهوا منها عام ١٥٨٧ ثم قلعة كابيتان (ميراني حالياً) انتهوا من بناءها عام ١٥٨٨ م .

وخلال فترة الهدوء النسبية كانت الملاحه العمانيه ودور البحارة العمانيين في نمو متزايد . وفي عام ١٦١٥ م ، أصبح الأسطول التجارى لصحار ينافس أسطول مسقط ، الأمر الذى كان يقلق البرتغاليين . وفي نفس العام أو بداية ١٦١٦ م قام والى صحار محمد بن مهنا بهجوم كاسح على السيب التى كانت خاضعة لنفوذ الأمير عمير بن حمير حيث قتل شقيقه على ابن حمير . وقد آثر البرتغاليون مساندة الأمير عمير بن حمير فى حملته الانتقامية ضد والى صحار ، فقدموا اليه عوضا بحريا بأسطول مكون من ٥ سفن بقيادة دوم فاسكودا جاما انضم اليه فيما بعد أسطول مكون من ٦ سفن بقيادة دوم غرانسييسكو ولیم الذى جاء بسفن من جوا مركز نائب الملك والحاكم العام للسلطات البرتغالية فى الشرق . وقد انتهزت الحملة المشتركة حيث قتل والى محمد بن مهنا وقام البرتغاليون بنهب المدينة وسبى النساء قبل اشعال النيران فى المدينة وتدميرها تماما .

الفصل الثاني

الدولة العمانية في عهد دولة اليعاربة

نشأة الامبراطورية العمانية في عهد اليعاربة :

تحرير الأراضي العمانية من السيطرة البرتغالية :

تكانت مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية لتساهم ليس في طرد البرتغاليين الغزاة من الأراضي العمانية فقط : بل الى نجاح العمانيين في انشاء أول امبراطورية لهم في تاريخهم الذي تمتد جذوره الى عدة قرون قبل الميلاد .

ومن أبرز العوامل الداخلية ظهور قيادات وطنية قوية استطاعت أن توحد الكلمة وتزيل الخلافات الداخلية وتتمتع بمزايا شخصية فريدة ، منها الايمان بالله والتضحية بالذات والعمل المتواصل الدؤوب دون كلل أو بأس . كما ان تطور الوعي بين السكان ووحدة كلمتهم ضد العدو المشترك ساعد كثيرا على انجاح مهمة تلك الزعامات الوطنية .

وكانت العقيدة الدينية والمتمثلة بالجهاد في سبيل الله من العوامل المهمة في نجاح تلك القيادات ، ذلك أن الانسان المسلم عندما يحارب عدوا غير مسلم ، فان السعادة تمتلك جوارحه سواء أدت الحروب الى النصر أو الشهادة . والى جانب تلك العوامل الفكرية كانت الأداة تجارى الأهداف . تلك الأداة كانت تتمثل في قوة البحرية العمانية التي نمت عبر عدة قرون . وكذلك وعى القيادات الوطنية بضرورة تقوية البحرية وتدريب الجنود وتقوية الاستحكامات قبل وأثناء الخوض في الحروب ضد العدو .

أما العوامل الخارجية والظروف الإقليمية والدولية التي ساهمت في نجاح جهود المسلمين العمانيين ضد عدوهم البرتغالي هي أولا : صراعات الدول الأوروبية ببعضها في مياه الخليج • فبرغم ان الانجليز لم يقدموا أية مساعدة للعمانيين في حروبهم ضد البرتغاليين الا أن صراعاتهم ببعضهم واتخاذ الانجليز موقف الحياد في الصراعات العمانية البرتغالية ، قد أدت بلا شك الى اضعاف قدرات البرتغاليين في النمو والحد من سيطرتها ونفوذها في مياه الخليج •

ومن العوامل الخارجية الأخرى سقوط هرمز بيد الانجليز عام ١٦٢٢ • اذ أن سقوط هذه المدينة أدى الى زوال السيطرة البرتغالية عن أهم معقل لهم في الخليج وبالتالي خلق المناخ النفسى لظهور حركات تحرير الموانئ من كل سيطرة برتغالية •

لقد تم انشاء الامبراطورية العمانية عبر مرحلتين أساسيتين ، تمثلت المرحلة الاولى في طرد البرتغاليين من المدن العمانية الساحلية الى جانب تحقيق الوحدة الوطنية وتأسيس حكم مركزي شامل على كافة التراب العماني •

وتمثلت المرحلة الثانية في تحقيق الفتوحات العمانية في المدن الساحلية على ضفتي الخليج وفتوحات أخرى في الموانئ المهمة على الساحل الشرقي من إفريقيا • كانت أداة المرحلة الأولى أساسا القوات البرية بينما كانت أداة المرحلة الثانية القوات البحرية •

تولى تحقيق أهداف المرحلة الأولى ، الامام ناصر بن مرشد اليعربي والذي حكم عمان قرابة ربع قرن • وبرغم أنه بويح اماما بترشيح من قبل مجلس العلماء يقوده العالم الديني القاضي خميس بن سعيد الشققي والذي كان زوجا لأم الامام ناصر بن مرشد ، الا أن مؤثرات شخصيته وقوتها

واخلاصه هيأت المناخ ليتولى الامامة من بعده أبنائؤه وأحفاده قرابة قرن من الزمن • وقد ساعد على انتخابه اماما الى جانب مواهبه الشخصية واتصافه بالاستقامة والنزاهة والتدين ، انتشار الفوضى في العهد الأخير من حكم بنى نبهان • فبرغم أن سلطة بنى نبهان لم تكن قوية لفترة طويلة قبل هذه الأحداث الا أن نشأة الصراعات على الزعامة بينهم زاد من تدهور أوضاعهم وخلق الحاجة الى البحث عن زعامة جديدة • ففي عام ١٦٠٧ برز التنافس حادا بين نبهان بن فلاح وابن عمه عمير بن حمير الذى استطاع أن يحقق انتصارا على قوات نبهان في ينقل • ولكن بموت عمير بن حمير بعد ذلك بعدة أعوام ، وقعت البلاد مرة أخرى في فوضى كاملة •

كانت عمان في هذه الفترة مقسمة الى مناطق ثلثه مستقلة في معظم الأجزاء • وكان اليعاربة أيضا يتقاسمون تلك السلطات • فالرستاق كان يحكمها مالك بن أبى العرب اليعربى ، ونخل يحكمها سلطان بن أبى العرب وسماثل مانع بن سنان العميرى ، وسمد الثأن على بن قطان الهلالى ، وعبرى محمد بن جفير بن جابر ، وبهلى وبلاد سيت كانتا خاضعتين لسيف ابن محمد الهنائى ، وحصن الجابى كان خاضعا لنفوذ بنى هلال ومقنيات كانت خاضعة لسيف بن محمد بن جيفر ومنطقة جلفار كانت بها قلعتان احدهما تابعة للفرس تحت حكم ناصر والأخرى للبرتغاليين تحميها سفيفتان برتغاليتان • والى جانب ذلك خان المدن الساحلية المهمة : مسقط ، صحار ، قلهات ، صور ، قريات ، لوى كانت خاضعة للنفوذ البرتغالى •

كان من الطبيعى أن يوجه الامام جهوده في المرحلة الأولى نحو تحقيق الوحدة الوطنية واخضاع معظم المناطق تحت سيطرة الحكومة المركزية • ولم يفرق الامام في ذلك بين أبناء قبيلته وزعماء المناطق الاخرى ، بسلا بالعكس من ذلك ، فان أولى حملاته توجهت نحو ابن عمه مالك بن أبى العرب

اليعرى حاكم الرستاق ، وبعد حصار قوى حول قلعتها استطاع اخضاعها ثم توجه بعد ذلك الى النخل الخاضعة لعمه سلطان بن أبى العرب وتمكن من اخضاعها أيضا بعد حصار دام عدة أيام ، وعين عبد الله بن سعيد الشقصي واليا عليها . كما تمكن بعد ذلك من اخضاع سمائل تحت سلطته نتيجة تأييد الأهالي . وكانت نزوى من أهم المدن التي سعى الامام لاختضاعها خصوصا وأنه وردت اليه رسائل من أهلها تعلن ولاءهم له . وقاد الحملة بنفسه مروراً بازكى التي أعلنت ولائها له . ثم تمكن من اخضاع نزوى تحت سلطته حيث بنى حصناً جديداً .

وكانت لانتصارات الامام الى جانب الأخبار المتناقلة عن عدله ورأفته بالعفو عن المعارضين السابقين أثر في اعلان مزيد من الولاء من جانب السكان في مناطق مختلفة . فتمكن بعد ذلك من اخضاع سمد الشأن حيث استطاع الحاق الهزيمة بقوات على بن قحطان الهلالي ، كما أخضع ابرا حيث أتاه سكانها معلنين البيعة . وفي منطقة الظاهرة بذل الامام جهوداً مضنية لاختضاعها قتل فيها شقيق الامام جاعد بن مرشد ، الا أن الامام تمكن من اخضاع المنطقة تحت سلطته . ولم تحد فتوحات الامام الداخلية من محاولات التمرد الا ان انتصاراته المتلاحقة كانت كفيلة بالقضاء على تلك المحاولات .

أدت الفتوحات الداخلية للامام ناصر بن مرشد وسيطرته على أهم المدن والقلاع في عمان الداخلية والشرقية والظاهرة الى تهيئة الظروف المناسبة لبدء عملية تحرير التراب العماني من السيطرة البرتغالية . واعتمد الامام في حربه التحريرية على قوات القبائل البرية ولم يكن للأسطول العماني دور رئيسي في تلك الحملات .

توجهت أولى حملات الامام نحو جلفار (رأس الخيمة حالياً) وتعرف تلك المنطقة عند المؤرخين العمانيين بالصير . ففى بداية الثلاثينيات عندما

فشل البرتغاليون في استئجار هرمز مرة أخرى من الحكام الفرس بعد أن فقدوها عام ١٦٢٢ قرر القائد روى غرير بناء حصن في جلفار قرب حصن للفرس هناك • الا أن الامام ناصر وجه حملة بقيادة علي بن أحمد حيث دارت معركة بين مدافعي القلعة الفارسية بزعامة ناصر الدين والمدافعين عن القلعة البرتغالية التي كانت تحميها سفينتان حربيتان ، وقد تمكن القائد العماني علي بن أحمد من تحقيق الانتصار على القلعة الفارسية برغم أن البرتغاليين كانوا يمدونها بالمؤن والذخيرة • وكافأه الامام بتعيينه واليا على حصن الصير •

وبعد ان انضمت الى القائد العماني احدى القبائل العربية بزعامة خميس بن مخزوم الذي عاهد على بن أحمد على الاخلاص والوفاء ، استمرت الحرب التحريرية ضد الحصن البرتغالي • استطاعت القوات العمانية اجبار البرتغاليين على الاستسلام بطلب الامان غوافق القائد العماني بشرط تسلم الحصن ، وبعد ان عين أحد أقاربه واليا عليها عاد الى نزوى منتصرا •

وفي هذه الفترة التجأ حاكم لوى الشيخ سيف بن محمد ، الذي كان في حالة عداء مع الامام ، الى البرتغاليين طالبا مساعدته ضد قوات الامام فقام البرتغاليون بامداده بقوات صغيرة أرسلت من صحر التي كانت لا تزال خاضعة للبرتغاليين • فقام الامام بتوجيه حملة الى لوى استطاع خلالها الحاق الهزيمة بقوات الشيخ سيف بن محمد وتعيين وال من قبله •

وقد شجعت هذه الانتصارات الامام على المضي قدما لتحرير صحر ، المعتقل الرئيسي الثاني للبرتغاليين بعد مسقط • فأعد حملة بقيادة واليه على لوى حافظ بن سيف الذي أمره الامام ببناء حصن جديد في مواجهة الحصن البرتغالي •

وقد وصلت قوات الوالي حافظ بن سيف عام ١٦٣٣ الى صحر فعسكرت بقرية عمق • وبرغم ان البرتغاليين استعملوا أكبر قدر من النيران

المكثفة الا أن القائد العماني تمكن من بناء حصن جديد كما أمره الامام .
وقد كلفت هذه المارك فقدان واحد من أبرز القادة العمانيين العسكريين :
راشد بن عباد .

وأدت هذه المعركة الى تحرير صحار من الحكم البرتغالي ورغم ان
الحصن ظل تحت سيطرة البرتغاليين حتى عام ١٦٣٤ م ، وقد أدى نجاح
تحرير صحار الى توجيه الحملات نحو صور وقریات والتي استطاع الامام
تحريرها من البرتغاليين أيضا .

أما بالنسبة لتحرير مسقط ، فقد جرت أكثر من محاولة خلال الأربعينات
من القرن الخامس عشر ، الا أن نجاح العمانيين كان حليفا عام ١٦٤٨ م .
نفى هذه الحملة التي تولى قيادتها الشيخ مسعود بن رمضان ، استطاع
القائد العماني أن يفرض حصارا على مسقط خلال الفترة من ١٦ أغسطس
الى الحادي عشر من سبتمبر ، وخلال فترة الحصار تمكنت القوات العمانية
من الاستيلاء وهدم برج المراقبة الساحلية في مسقط ، وهدم القلعة البرتغالية
الى درجة أن البرتغاليين عرضوا البحث عن اتفاقية سلام . وقد تضمن
العرض العماني على الشروط التالية :

١ — تسليم وتدمير الحصون البرتغالية في قریات وصور .

٢ — إلغاء الجمارك التي كان يدفعها العمانيون لمنتجاتهم القادمة من
الداخل الى مسقط وتدمير سور المدينة .

٣ — أن يدفع البرتغاليون جزية مقدارها ٢٠٠ ألف بارادوس .

واذ وجد البرتغاليون أن تلك الشروط باهظة الثمن حاولوا الاستمرار
في المقاومة لمدة ٦ أسابيع أخرى اضطر بعدها القائد البرتغالي دوم جولياو
دا نورونها التوقيع على اتفاقية الاستسلام في ٣١ أكتوبر . وبموجب تلك
الاتفاقية وافق البرتغاليون على شروط الوفد العماني اضافة الى هدم حصن

مطرح وتسليم كافة الممتلكات البرتغالية في صحار ودفع جزية سنوية للعمانيين ، الا أن الحصون في مسقط بقيت بأيدي البرتغاليين •

بموت الامام ناصر بن مرشد عام ١٦٤٩ ، فان جزءا مهما من عوامل انشاء الامبراطورية العمانية قد تم تأسيسه • ويتمثل ذلك في نجاح الامام ناصر بن مرشد من تصفية الوجود البرتغالي من عمان باستثناء مدينتي مسقط • ويمكن اعتبار هذه المرحلة مهمة وأساسية للمرحلة التالية التي تم خلالها انشاء الامبراطورية العمانية والتي تولى زمامها الأئمة اليعاربة الأوائل الذين خلفوا الامام ناصر بن مرشد وبالدرجة الأولى الامامين سلطان بن سيف الأول وسيف بن سلطان الأول •

تحرير مسقط :

وقد تحققت في عهد الأئمة الأوائل من اليعاربة ثلاثة أهداف رئيسية :

١ — تحرير البقية الباقية من الأراضي العمانية من السيطرة البرتغالية •

٢ — توسيع سلطة ونفوذ عمان في منطقة الخليج والمحيط الهندي •

٣ — سيطرة العمانيين على أجزاء كبيرة من شرق افريقيا واخضاعها للحكم العماني بعد تحريرها من السيطرة البرتغالية •

وكانت الأداة الرئيسية لهذه الأهداف التطور الذي أصاب الأسطول العماني والقدرات القتالية للمحارب العماني • ولم تكن تلك الأهداف لتخلو من عراقيل كبيرة ... فقد حدثت عدة أشكال من التمرد والعصيان خصوصا عند انتخاب أو تعيين امام جديد • الا أن الأئمة الأوائل من اليعاربة كانوا قادرين على درأ تلك المخاطر وقمع محاولات التمرد والعصيان وفرض السلطة المركزية مرة أخرى •

كانت أولى المهام التي التزم بها الامام سلطان بن سيف والذي خلف الامام ناصر بن مرشد ، هو تحرير بقية الأراضى العمانية من السيطرة البرتغالية . وكانت مسقط هي الهدف الرئيسي والنهائي لهذه المرحلة من الصراعات العمانية البرتغالية . ولم يكن تحرير مسقط عملية سهلة أبدا . فقبل الوصول الى مسقط كان يستلزم السيطرة على مطرح حيث كان حصنها مزودا بوسائل دفاعية قوية من قبل البرتغاليين . ومسقط نفسها كانت محاطة بسورين من الخلف تجمعها عدة حصون مزودة بالأسلحة . كما أن تحرير الميناء كان يستلزم السيطرة على القلعتين الغربية والشرقية (ميراني وجلالى حاليا) واللتي كانت تحميها حامية برتغالية مزودة بأسلحة دفاعية متطورة الى جانب الجنبى البرتغالى بين القلعتين والذي كان يسميه البرتغاليين (جريزا) وكان بمثابة مركز مؤن وذخيرة للبرتغاليين ، الى جانب وجود سفينتين برتغاليتين فى عرض البحر ، كانت تطلق نيرانها على المهاجمين . فكان من الواضح أن محاولة الامام سلطان بن سيف تحرير مسقط عملية تعتبر من الناحية العسكرية من أصعب المحاولات .

اتخذ الامام سلطان بن سيف عدم سداد البرتغاليين للقرض السنوية ذريعة لاعلان الحرب فى أواخر عام ١٦٤٩ أو بداية ١٦٥٠ م . وبعد أن وجه نداء الى القبائل العمانية بالتجمع فى سيج الحرمل ، بدأ بشن هجماته من الأسوار الخلفية لمسقط وبدأ الامام هجمات خاطفة على الأسوار الخلفية لمسقط ، كما انه فرض حصارا طويلا حول مسقط لمنع المؤن من النفاذ الى البرتغاليين . .

وكانت الحاميات البرتغالية فى الحصون الخلفية قادرة على صد الهجمات ، وتكبد العمانيون بين ٤ — ٥ آلاف شهيد فى محاولة تحرير مسقط . وقد استغل الامام كل الفرص الممكنة لتحقيق هدفه مستغلا نفاذ المؤن والذخيرة . واختار فجر يوم الأحد ثوقيتا ملائما لشن هجمته الحاسمة ، وذلك بناء على نصيحة أحد الهندوس المقيمين فى مسقط واسمه ناروتام ،

والذى أبلغ الامام بأن البرتغاليين يكونون عادة سكارى يوم الأحد ، وكان هذا الهندوسى على خلاف مع أحد القواد البرتغاليين بسبب اصرار الأخير على التزوج من ابنته •

وقد تمكن العمانيون من شن تلك الحملة المفاجئة ونجحوا فى الاستيلاء على أسوار مسقط الخلفية ، واحتلال المدينة وكانت نتيجة انتصارهم استسلام قائد الحامية البرتغالى فى مطرح واحاطة العمانيين بعد ذلك مبنى « الجاريزا » المطلة على الساحل • فأثر القائد البرتغالى تركها وللجوء الى قلعة كابيتان (ميرانى حاليا) تاركا مسألة الدفاع عنها للحرس المكون من البلوشيين •

ولم تستطع السفينتان البرتغاليتان اللتان كان يتولى قيادتهما الكابتن براز كالديرا دورا مهما فى المعركة ، فاضطر القائد البرتغالى الى الاستسلام الكامل يوم ٢٣ يناير ، وبرغم أن الفارين من البرتغاليين وصلوا الى الهند وأبلغوا السلطات البرتغالية فى جوا ، الا أن النجدة البرتغالية عندما وصلت الى مياه مسقط ، كانت القلعتان ميرانى وجلالى قد استسلمتا للعمانيين •

ويبدو ان الامام سلطان بن سيف قد تمكن فى نفس العام من تحرير خصب من البرتغاليين •

وكانت تأثيرات تحرير مسقط بالغة الأهمية ليس بالنسبة للقضية الوطنية فى عمان ، بل أيضا بالنسبة لازدهار التجارة الدولية عبر منطقة الخليج • فتشير التقارير الاقتصادية أن تحرير مسقط قد أدى الى ازدهار فى تجارة الهولنديين ، فوصلت فى عام ١٦٥١ أحد عشر سفينة محملة بالبضائع من هولندا الى جمبرون ، المركز التجارى للهولنديين فى الخليج • كما ان الامام سلطان بن سيف عرض على الهولنديين استعداده للمساهمة فى نقل البضائع برا من أبو ظبى عبر القطيف الى البصرة ، مما يؤكد متانة مركز الامام واهتماماته الاقتصادية •

بداية الفتوحات العمانية :

كما سبق وان قلنا ، فان الفتوحات العمانية خارج المياه الاقليمية لعمان كانت أدواتها الرئيسية الأسطول البحرى • وقبل الخوض فى تفاصيل العمليات البحرية التى امتدت فى اتجاهين رئيسيين : منطقة الخليج والمحيط الهندى وشرق افريقيا ، فانه من الأجدر الامام ببعض المعلومات عن القوة البحرية العمانية فى عهد اليعاربة أى فى القرن السابع عشر •

وفى الواقع فانه لا توجد احصاءات دقيقة تبين عدد السفن البحرية من كل نوع ، ولكن هناك معلومات مهمة توضح نوعية تلك السفن وأنواع تجهيزاتها ، كما أنه من المعلوم أن حكام عمان فى أوقات الحروب كانوا يعتمدون على السفن التجارية الخاصة كأداة معاونة فى نقل الجنود والأسلحة والمؤن •

ويمكن تقسيم قطع الأسطول البحرى لعمان فى عهد اليعاربة الى ثلاثة أنواع : قوارب أو سفن للنقل الخفيف ، سفن متوسطة الحجم تصلح أساسا كأداة رئيسية للنقل الخارجى ثم سفن تجارية وحربية كبيرة بعضها مزودة بعشرات المدافع • والسفن أو القوارب الخفيفة عرفت أنواعها بالهورى والماشوا والعبرة والبقارة ، وهى سفن صغيرة تصلح لنقل المواد من السفن الكبيرة الى الشواطئ فى المياه الضحلة ، ومعظمها لا تستعمل للشرع ، ثم السفن المتوسطة : البغلة وهى تشبه البدن والبوم والسبوك والجالبوت وهى سفن شرعية كانت تقوم برحلات النقل التجارى فى المحيطات •

وابتداء من امامة سلطان بن سيف الذى خلف الامام ناصر بن مرشد عام ١٦٤٩ ، زاد الاهتمام نحو تطوير البحرية العمانية وتحديثها وأعقبه فى ذلك معظم الأئمة من اليعاربة فيما بعد • ونتج عن هذا الاهتمام امتلاك الأسطول العمانى لسفن على الطراز الأوروبى كانت تبنى فى موانئ الهند مزودة بمدافع وأسلحة ثقيلة •

وبمرور الوقت وبنهاية القرن السابع عشر ، أى بعد حوالى ٥٠ عاما من الجهود المضنية : أصبحت البحرية العمانية أقوى بحرية فى المحيط الهندى باستثناء بعض السفن الأوروبية الضخمة . وكانت قادرة على ارباب الأعداء فى المنطقة والملاحين الأوروبيين على حد سواء وأصبح الأسطول العمانى يتولى مسؤولية رئيسية فى منح الحماية للتجارة الدولية عبر المحيطات .

وتأتى التقارير أكثر دقة فى نهاية عهد الامام سيف بن سلطان الذى توفى عام ١٧١١ بعد حكم دام حوالى ٣٢ عاما . فتشير التقارير الى أن السفن العمانية كانت رباعية الأشعة ويقول هاملتون انه فى عام ١٧١٥ فترة حكم الامام سلطان بن سيف الثانى كانت القوة البحرية للدولة تتشكل من سفن أوروبية الطراز ، احداها مزودة بأربع وسبعين مدفعا واثنان بستين مدفعا ، وواحدة بخمسين مدفعا و ١٨ سفينة كل منها مزودة بـ ٣٢ الى ١٢ مدفعا . ومجموعة أخرى بثمانية الى أربعة مدافع .

ويقول بادجر ان عدد السفن فى عهد الامام سيف بن سلطان بلغت ٢٨ سفينة . أما السالى فيورد أسماء للسفن العمانية ويقول أنها سميت : الملك ، الفلك ، وكعب رأس والناصر والوأتى ، وان سفينة الملك كانت مزودة بثمانين مدفعا . ولم يتوان الامام سيف بن سلطان من الاستعانة بالخبرات الأوروبية فى سبيل تسير تلك السفن ، فقد عرف ان الامام عين مجموعة صغيرة من البحارة الانجليز للعمل على السفن العمانية .

وقد توجهت الحملات العمانية صوب العديد من المناطق فى المحيط الهندى والخليج وشرقى افريقيا على شكل هجمات خاطفة فى البداية قبل أن تتحول الى فتوحات مستقرة ، وقبل أن تصبح تلك المناطق جزءا من الامبراطورية العمانية . وتجدر الإشارة هنا بأن التواجد العمانى فى الخليج والمحيط الهندى وعلى سواحل شرق افريقيا سبق بمراحل عمليات الحملات البحرية ومحاولات الاستقرار والفتوحات .

ففى منطقة الخليج والمحيط الهندى كان البحارة العمانيون كما أسلفنا يلعبون دورا بارزا فى عمليات النقل التجارى الدولى •

أما فى شرق افريقيا ، فمنذ الأزمنة القديمة دأب الملاحون العمانيون على تسيير رحلاتهم وفق الظروف المناخية السائدة • فخلال فترة الرياح الموسمية القادمة من الشمال الشرقى خلال أشهر ديسمبر الى مارس من كل عام كان البحارة العمانيون يتجهون بسفنتهم الى سواحل شرق افريقيا ، وخلال فترة موسم الرياح الجنوبية الغربية وخلال أشهر أبريل حتى أواخر سبتمبر كانت تلك السفن تعود الى شبه الجزيرة العربية محملة فى ذهابها وايابها بالبضائع التى كانت محل تداول •

وأثناء تلك المبادلات التجارية بين البحارة العرب وسكان شرق افريقيا والتى كانت عناصرها الذهب والزجاج ، نتجت المحاولات الأولى للاستقرار المؤقت المحدود فى سواحل شرق افريقيا • ثم بدأت موجات الهجرة العمانية تتتابع منذ القرن الهجرى الأول نتيجة الاضطرابات السياسية التى شهدها العالم الاسلامى بعد وفاة الرسول (صلعم) •

وتقول الروايات أن عرب عمان نجحوا فى تأسيس بعض الامارات العربية فى الشرق الأفريقى أثناء العشرين سنة التى تلت وفاة النبى (صلعم)، كما ان الاضطرابات التى حصلت فى بداية العهد الأموى قد أدت الى لجوء الحكام العمانيين عام ٦٨٢ هـ الى بلاد الزنج • وفى عام ٦٩٥ هـ أدت الخلافات السياسية بين الخليفة الأموى عبد الملك والزعماء العمانيين من أبناء الجلندى الى هجرة مجموعة من قبيلة الازرد العمانية الى سواحل شرق افريقيا ومن المعتقد أنهم استقروا فى جزيرة ماغيا •

وقد أدت هذه الموجات المتلاحقة من الهجرة الى بداية ظهور السيطرة العربية القبلية فى العديد من المدن فى شرق افريقيا • وقد ساعد على نشأة

الحكم العربى فى تلك المدن ضعف الحكم المركزى للقبائل الافريقية . الى جانب نمسك العرب المهاجرين بلغتهم ودينهم ثم تزاوجهم من أبناء شرق أفريقيا والذى نتج عنه ظهور جيل من المسلمين الافريقيين العرب . كما أن خبرتهم التجارية المتفوقة على خبرة أبناء شرق افريقيا منحهم السيطرة الاقتصادية التجارية وما ترتب عليها من نفوذ سياسى متطور .

وعندما زار المسعودى ساحل شرق افريقيا فى القرن الخامس الهجرى . ذكر أن الامارات العربية تمتد من مقديشيو شمالا حتى سفالا جنوبا ، وتشمل عدة موانئ مثل برادة ومالندى وسيوه وكلوه والتى كانت أهمها . ورغم ذلك لم يحاول العرب انشاء دول مستقلة فى تلك المناطق ، اذ أن غالبية السكان كانت من الافريقيين . الا أن النفوذ العربى المتنامى قد هيا لأية محاولة عربية اسلامية لفتح تلك المناطق . خصوصا الكراهية التى كان يكنها العرب للبرتغاليين الذين تمكنوا من الاستيلاء على معظم تلك المدن .

ولهذه الاسباب عندما نجح الامام سلطان بن سيف من تحرير المدن العمانية كلها من السيطرة البرتغالية ؛ فان أخبار تلك الانتصارات قد حفزت أبناء تلك المدن وخصوصا أهالى ممباسا الى طلب النجدة من الامام سلطان ابن سيف لتحريرهم من السيطرة البرتغالية . وقد قرر الامام سلطان بن سيف الذى انتقل من سياسة الدفاع الى الهجوم فى صراعه مع البرتغاليين التجاوب مع نداء العرب المسلمين المقيمين فى تلك المناطق . فوجه عام ١٦٥٥ أسطولا مكونا من عدة سفن لمهاجمة المستعمرات البرتغالية فى زنجبار وباتا واستطاع الاسطول العمانى من تدمير استحكاماتها وكنيستها والاستيلاء على الغنائم .

ويرغم أن هذه الحملة لم تتمكن من فتح تلك المناطق وضمتها الى عمان ، الا أن نجاح الحملة قد دفع بأهالى تلك المناطق الى اعلان تمرد شامل ضد

السلطات البرتغالية في تلك المناطق • وقد تمكن البرتغاليون بعد ذلك من ارسال حملة بقيادة فرنسيسكو سيكاساسي كابوا لقمع التمرد والانتقام من المسلمين النافرين •

كما أن جزءا من حملة عام ١٦٥٥ توجهت نحو التواجد البرتغالي في المحيط الهندي ، وقد تمكنت الحملة في بومباي ، والتي كان يسميها العرب جلابة (بضم الجيم) من جمع الغنائم •

أصبح مهاجمة التواجد البرتغالي في المحيط الهندي وشرق افريقيا ومحاولة تحرير تلك المناطق وضماها تحت الحكم العماني سياسة ثابتة للامام سلطان بن سيف الاول • فقام في عام ١٦٦٠ م بمبادرة جديدة ضد البرتغاليين واستطاعت الحملة العمانية من الاستيلاء على غازا ومباسا •

وكان من نتائج هذه الحملة ضم مباسا رسميا الى سلطة الحكم العماني وتعيين الشيخ محمد بن مبارك واليا على مباسا • وبالتالي يمكن اعتبار هذه الحادثة بمثابة أول اعلان لقيام الامبراطورية العمانية ، ذلك برغم أن البرتغاليين تمكنوا في العام التالي من اعادة اخضاع مباسا وحاولوا هذه المرة استرضاء المسلمين بتعيين مسلم : مهنا اغو •

خلف الامام بلعرب والده سلطان بن سيف الاول حوالي عام ١٦٦٨ • وبرغم ان هذا الامام لم يقدر له حكم طويل اذ مات منتحرا حوالي عام ١٦٧٩ نتيجة صراعه القوي على السلطة. مع أخيه سيف بن سلطان ، الا أنه خلال حكمه الذي امتد ما يقارب من عقد كامل أثر على تتبع منهج والده في محاربة البرتغاليين شرقا وغربا ، بل أن الامام بلعرب وسع من دائرة أهداف انشاء الامبراطورية في محاولة لضم مناطق في الخليج خاضعة للبرتغاليين • فوجه عام ١٦٦٩ حملتين صوب قشم التابعة للبرتغاليين وهرمز التابعة للفرس •

وفي نفس العام أعد الامام أسطولا من ٢٨ سفينة حربية لتحرير مباسا من السيطرة البرتغالية وأقسم بتحقيق هذا الهدف أو الموت دونه . وكانت قوة الحملة كبيرة الى درجة أن الامام تشجع الى توجيه الحملة جنوبا الى موزمبيق في محاولة لتحريرها أيضا برغم أن الحملة لم تحقق هدفها هذه المرة بسبب الكثافة النيرانية من الحامية البرتغالية في قلعتها بقيادة جاسبارا دسوزا دو لاكيدا .

وفي العام التالي أرسل الامام بلعرب حملة الى مدينة دبو في الهند والتي كانت تخضع للحكم البرتغالي . وقد استعمل العمانيون وسائل تكتيكية معقدة ، فقد نزل الجنود ليلا في المدينة في جنح الظلام وفي وقت الفجر ، وعندما فتحت أبواب القلعة اندفع العمانيون الى الداخل ليقابلوا المدافعين البرتغاليين .

ولادة ٣ أيام متتالية كان العمانيون يجمعون الغنائم ، ولم يجد القائد البرتغالي وسيلة لدرأ المخاطر سوى اطلاق سراح المساجين من العبيد ومنحهم الحرية مقابل الدفاع ضد العمانيين . ونتيجة لذلك تمكنت القوة البرتغالية المكونة من حوالي ٤٠٠٠ جندي وسجين من قتل حوالي ألف عماني واجبار الباقين على الفرار .

وكما أسلفنا ، فإن الأئمة اليعاربة استطاعوا أن ينتقلوا من موقع الدفاع الى الهجوم ضد المراكز التجارية البرتغالية ؛ ولكن في عام ١٦٧٣ م حاول البرتغاليون أن يتبنوا سياسة الهجوم مرة أخرى . وقام نائب الملك في جوا بارسال أسطول ضخم هدفه تمشيط السفن العمانية في المحيط الهندي واطهار التفوق البرتغالي . وغادر الاسطول البرتغالي في سبتمبر من هذا العام ولكنه عند وصوله الى مسقط تأكد عدم قدرته على مواجهة بطاريات الدفاع القوية في قلاع مسقط ، فقرر بدلا من ذلك انزال القوة

في قرية سداب قرب مسقط ونجح في التوغل حتى الأسوار الخلفية لمسقط
ثم عاد ادراجه •

ولم يقف الامام موقف المتفرج فسرعان ما جهز أسطولاً من عشرة سفن
تجارية في ديسمبر من نفس العام وبعد تحويلها الى سفن عسكرية توجهت
صوب الهند وتمكنت من تدمير معظم سفن الأسطول البرتغالي التي وجدتھا
قرب دبو • وفي شهر فبراير من العام التالي ١٦٧٤ م ، أرسل الامام قوة
عمانية من ٦٠٠ مقاتل الى مستعمرة ياسين في الهند واستطاعت القوة العمانية
القيام بهجوم عنيف رغم تفوق الاسطول البرتغالي ثم نزول القوة وجمع
الغنائم •

جهود الامام سيف بن سلطان الاول :

وبعد تلك الأحداث من الصراعات العمانية البرتغالية ، انتقلت البلاد
الى صراعات داخلية بين الامام بلعرب وأخيه سيف ، وكان تأثيرها على
ما يبدو عظيماً على مجمل الصراع العماني البرتغالي وحركة انشاء
الامبراطورية العمانية • فلم تشهد الأعوام القليلة التالية مبادرات عمانية
ضد البرتغاليين • وأدت نتائج الصراعات الداخلية الى انتخاب سيف بن
سلطان الاول اماماً على عمان ••• والذي استمر حكمه حتى عام ١٧١١ م ،
أى ما يزيد عن ثلاثين عاماً •

وتعتبر جهود الامام سيف بن سلطان الاول حاسمة في انشاء
الامبراطورية ، وفي عهده تم اخضاع العديد من المدن التجارية في شرق
افريقيا اخضاعاً نهائياً للحكم العماني ترتب عنها تعيين ولاية عمانيين •••

وفي نفس الوقت فان جهود الامام لم تتوقف أبداً عن توجيه الحملات
ضد البرتغاليين في المحيط الهندي في محاولة لضعاف قوتها والاستيلاء على
الغنائم منها •

استغل البرتغاليون فترة الصراع بين الامام بلعرب وأخيه سسيف لاسترداد العديد من المدن في الساحل الشرقي من افريقيا ، فقامت حملة برتغالية ضخمة عام ١٦٧٨ م بقيادة نائب الحاكم بيدرو دو الميدا بالتوجه من موزمبيق نحو بانا التي كانت تحتل مكانة رئيسية بين المدن العربية في الساحل الشرقي من افريقيا . وتمكن البرتغاليون في هذه الحملة من اخضاع بانا واستولوا بعدها على سيو ولامو وماندا رغم مقاومتها العنيدة حيث قتل البرتغاليون حكام تلك المدن وحوالي مائتين من أعيان البلاد واتخذوا من مسجد بانا مقرا للقيادة وحولوا مسجدا آخر الى اسطول للخيول .

كانت شخصية الامام سيف بن سلطان الاول قوية جدا ، وكان النهج العلمي الذي يسير عليه هو تقوية الاستعدادات العسكرية وتقوية الاسطول العماني وتحديثه ليجارى أحدث الأساطيل وذلك قبل أن يتفرغ في جهاده مرة أخرى ضد البرتغاليين . ومن المعلوم تاريخيا ان الامام سيف بن سلطان الاول كان له دور كبير في تحديث الاسطول العماني . ولهذا نلاحظ انه لم تقم لعمان مبادرات وحروب ضد البرتغاليين الا عام ١١٩٤ أى بعد خمس سنوات تقريبا من تولى الامام سيف بن سلطان الحكم وذلك باستثناء الحملة الصغيرة التي بعث بها في مطلع حكمه لاسترداد بانا من البرتغاليين في شرق افريقيا .

وقد مكنت هذه الظروف البرتغاليين من توجيه حملات أخرى لاعادة اخضاع بانا عامي ١٦٨٦ و ١٦٨٧ م واستطاع البرتغاليون في حملة عام ١٦٨٧ على بانا أسر حاكمها ونقله الى جوا في الهند واجباره على توقيع وثيقة التعهد بطرد العمانيين وبناء قلعتين برتغاليتين فيها . ولكن بحلول عام ١٦٩٤ م بدأ الامام سيف بن سلطان جهاده ضد البرتغاليين غربا وشرقا .

توجه الاسطول العماني شرقا صوب الهند وبعد أن تمكنت القوات

العمانية من النزول في داماون وجمع الغنائم توجهت صوب مدينة سالسيت •
وفي هذه المدينة كما يروى هاميلتون : تمكن العمانيون من أسر حوالي ١٥٠٠
شخص وعادوا بغنائم وغيرة الى عمان • وفي نفس الوقت فان جزءا آخر
من الأسطول العماني توجه الى ميناء كونج في الخليج حيث تمكن العمانيون
من جمع غنائم قدرت بستين ألف تومان ، كما هددوا ميناء جمبرون •

وفي عام ١٦٩٥ م استغل الامام خروسة القلائل في بعض الموانئ الهندية
ووجه حملة صوب مدن باسالور ومانجالور الغنيتين في غرب الهند حيث تمكن
من إلحاق الأضرار بهما وجمع الغنائم • وعندما نما الى علمه بأن البرتغاليين
يحاولون بالتحالف مع بعض حكام الفرس توجيه حملة ضد مسقط ، قام
بمبادرة من جانبه فهاجم مرة أخرى مدينة مانجالور حيث تمكن من تدمير
المركز التجاري البرتغالي هناك •

وفي عام ١٦٩٦ بدأت أقوى الحملات العمانية في تاريخ دولة اليعاربة
ضد البرتغاليين — هذه الحملات التي أدت الى فتح مدن عديدة في القسم
الشمالي من ساحل افريقيا الشرقي ونشأة الامبراطورية العمانية وانهاء
الوجود البرتغالي •

فبناء على الرسائل والالتماسات التي وردت للامام من أهالي مومباسا ،
بعث الامام في مارس ١٦٩٦ أسطولا كبيرا يضم سبعة سفن حربية ضخمة
وحوالي عشرة سفن صغيرة تحمل قوة قوامها ٣٠٠ مقاتل لمهاجمة مومباسا •
كان من الواضح أمام القوات العمانية أن الاستيلاء على قلعة يسوع في
مومباسا من الأمور المستعصية ولما كان الهدف هو احتلال القلعة وتحرير
مومباسا نهائيا فقد اتبعت القوات العمانية أسلوب حرب النفس الطويلة •
خفي الوقت الذي تم فرض الحصار حول مومباسا والقلعة ، كانت المدافع
البحرية العمانية تقصف المناطق المحيطة بالقلعة في محاولة لعزلها والحيولة

دون وصول المؤن والذخيرة اليها وقد ساعد على تحقيق هذا الهدف انقطاع القلعة عن البر الا عبر لسان خسيق كان باستمرار هدفا للمدفعية العمانية .

وخلال فترة الحصار التي دامت عامين و ٩ أشهر كانت التعزيزات ترد الى الأسطول العماني من جانب ، وكان البرتغاليون من جانبهم يبعثون بحملات بحرية في محاولة فك الحصار ، وبعد سبعة أشهر تقريبا تناقص عدد الملاحيين في القلعة من ٢٥٠٠ رجل الى ألف وخمسمائة ، وعدد الجنود البرتغاليين من ٥٠ مقاتل الى ٢٠ مقاتلا وذلك نتيجة انتشار الأمراض ونقص كمية المؤن .

وفي هذه الفترة وصلت حملة برتغالية مكونة من أربع سفن تحمل سبعمائة وسبعين رجلا : ولكن الحملة البرتغالية لم تتمكن سوى امداد القلعة ببعض الذخيرة والغذاء ودخول حوالي مائة مقاتل لمساندة الحامية البرتغالية .

ولكن في بداية عام ١٦٩٧ انتشر الطاعون بين المدافعين ولم يبق من أفراد الحامية الا عشرين رجلا ٠٠٠ وفي سبتمبر من عام ١٦٩٧ قدمت نجدة برتغالية أخرى من قاعدتها في موزمبيق وتمكن قائدها من دخول القلعة الا أنه مات فيها في نوفمبر من نفس العام . وبعد عدة أسابيع قام أسطول برتغالي ثالث بمحاولة فاشلة لفك الحصار الذي استمر عاما آخر . وفي منتصف ديسمبر من عام ١٦٩٨ وجد الأسطول البرتغالي القادم من جوا مركز نائب الملك : أن القلعة بات يرفرف عليها العلم العماني الأحمر .

كان لسقوط قلعة يسوع أثر كبير في نفوس المسلمين والعرب واطهار تفوق الأسطول العماني على الأسطول البرتغالي . وفي العام التالي نجح الامام سيف في تحرير عدة مدن أخرى من السيطرة البرتغالية ، حيث تمكن من تحرير بمبا وكوه وباتا وزنجبار ، وعين الشيخ ناصر بن عبد الله واليا على

تلك المدن من مقره في ممبابا • وهكذا نشأت أول امبراطورية عمانية في التاريخ • وبقيت تلك المدن خلال البقية من عمر الامام سيف خاضعة كلية للعمانيين برغم الحملات الفاشلة التي بعثها البرتغاليون من لشبونة مباشرة خلال أعوام ١٦٩٩ و ١٧٠٣ و ١٧١٠ م •

وخلال المدة الباقية من عمر الامام سيف بن سلطان وبعد اخضاع الجزء الشمالي من ساحل شرق افريقيا ، انصهرت موجة الحروب الى حد كبير • وعندما نما الى علم السلطات العمانية نبأ تواجد أسطول برتغالي قرب رأس الحد في المنطقة الشرقية من عمان قام والى مطرح بارسال أسطول عماني لدرء الخطر في ١٣ مايو من عام ١٦٩٨ م •

وبرغم أن النصر في هذه المعركة كان للبرتغاليين ، فان الامام سرعان ما قرر توجيه حملة انتقامية في العام التالي صوب المركز التجاري البرتغالي في سالسيت في الهند • وقد تمكن الاسطول العماني من تكبيد البرتغاليين خسائر فادحة وابقاء حامية عمانية مكونة من ٣٠٠ رجل لمراقبة التحركات البرتغالية • ولم تنحصر أعمال الامام سيف بن سلطان الاول في المحيط الهندي وشرق افريقيا فقط ، بل انه في العقد الأخير من القرن السابع عشر تمكن من انزال قوة عمانية في جزيرة البحرين التي كانت خاضعة للحكم الفارسي في تلك الفترة •

وتعتبر فترة حكم الامام سيف بن سلطان الاول الذي كان أقوى أئمة اليعاربة في التاريخ العماني ، نقطة تحول في التاريخ العماني • وفي عهده زادت الاهتمامات ببناء دولة تسير المقتضيات الحضارية • ففي الداخل وجد الاستقرار في عهده وقام بالعديد من أعمال اصلاح الأوضاع الزراعية عن طريق تعمير مجموعة من الأفلاج • ويقول الرحالة لوكير عام ١٧٠٥ م بأن السفن العمانية كانت تصنع في سورات وبعضها في نهر أندوس بالهند والتي

لم يعرف عنها الأوروبيون الا قليلا • كما انه أحصى في ميناء مسقط وحده ١٤ سفينة حربية ••• وكانت السفن الاخرى التي تمخر البهار كبيرة واحداها تحمل ٧٠ مدفعا •

خلف الامام سيف بن سلطان الاول ابنه سلطان حوالى عام ١٧١١ واستمر حكمه زهاء ٨ سنوات قام خلالها ببناء قلعة حزم الشهيرة التي اتخذها مقرا لسكناه • وبرغم الفترة القصيرة لحكم الامام سلطان بن سيف الثانى فان البلاد شهدت استقرار ونموا متريدا ، كما أن التجارة الدولية شهدت نموا متعاظما •

وفى مجال شئون الامبراطورية العمانية ، بقيت كافة المدن التي افنتحتها العمانيون فى الجزء الشمالى الشرقى من افريقيا ، خاضعة للحكم العمانى • بل أن عدة جزر فى الخليج فى هذه الفترة وقعت تحت حكم العمانيين • كما أن الامام سلطان بن سيف الثانى قام بحملة مجددة عام ١٧١٧ ضد البحرين وتمكن من تقوية الحامية العمانية هناك • أما فى مجال حروبه ضد البرتغاليين فقد حدثت عدة معارك مع الأساطيل البرتغالية الا أن تلك المعارك لم تسكن ذات طبيعة استراتيجية •

ففى فبراير من عام ١٧١٤ م اصطدم الأسطول العمانى بأسطول برتغالى خارج مدينة سورات فى الهند وكانت نتيجة المعركة استشهاد ٢٨ قتيلًا وجرح ٣٤ آخرين من العمانيين •

وفى عام ١٧١٩ م استنجد الفرس بالبرتغاليين لمساعدتهم فى محاربة مسقط نتيجة فقدانهم العديد من الجزر فى الخليج وجزر البحرين فأرسل نائب الحاكم العام من جوا أسطولا برتغاليا الى الخليج فى فبراير ١٧١٩ م •

وعندما وصلت تلك المعلومات للامام قام بارسال أسطول عمانى الذى احتدم فى معركة يوم الرابع من أغسطس أمام سواحل ميناء كونج فى مداخل

الخليج واستمرت المعركة زهاء يومين انسحب بعدها الأسطول العماني ،
الا أن الأسطول البرتغالي قام بملاحقته في مضائق هرمز وكانت نتائج تلك
المعارك استشهاد وجرح حوالي ٥٠٠ مقاتل عماني .

ضعف دولة اليعاربة ونهايتها

كان موت الامام سلطان بن سيف الثاني حوالي عام ١٧١٩ م ذا أثر
بالمن في الحياة السياسية والاقتصادية لعمان . فالفترة التي تلت وفاته شهدت
صراعات وحروباً أهلية تعتبر أفظع أنواع الحروب الأهلية في تاريخ عمان
قاطبة . كما أن نتائج تلك الحروب امتدت بصورة دراماتيكية على أوضاع
الامبراطورية العمانية في شرق افريقيا ومنطقة الخليج . وقبل تناول تأثيرات
تلك الأحداث على أوضاع الامبراطورية يجدر بنا تبين ملامح تلك الأحداث
التي امتدت قرابة ثلاثين عاما والتي انتهت بالعودة الى الوحدة الوطنية ونمو
وازدهار أوضاع الامبراطورية العمانية بعد انتخاب أحمد بن سعيد
البوسعيدى اماما على عمان حوالي عام ١٧٤٩ م .

بعد موت الامام سلطان بن سيف ظهرت مشكلة الخلافة ، وبرغم أن
اليعاربة استطاعوا الاحتفاظ بمنصب الامامة بشكل وراثي منذ تم مبايعة
ناصر بن مرشد اماما عام ١٦٢٤ م . الا أن هذه المرة فان الخليفة المرشح
سيف بن الامام سلطان كان صغير السن . فانقسم الوجهاء الى فريقين :
أحدهما يناصر انتخاب سيف اماما والآخرين بايعوا مهنا بن سلطان بن ناصر
وفتح عن ذلك بداية الصراعات التي انتهت بمقتل مهنا بن سلطان في العام
التالي .

وبموت مهنا اختار فريق : يعرب بن بلعرب اماما ولذا بادر المناصرون
لسيف الى تكليف بلعرب بن ناصر خال « سيف » العمل لانقراع الامامة
لسيف . وبعد حروب دامية تمكن بلعرب من السيطرة على مسقط وسمائل
ونخل وازكي ونزوى . ونتيجة لذلك وافق يعرب بن بلعرب على التنازل عن
الامامة ومبايعة سيف ، واستعدت البلاد لاحتفالات تثبيت سيف اماما .

ولكن مناسبة الاحتفالات تحولت الى كارثة • فقد قام محمد بن ناصر زعيم بنى غافر بتخريض أهالى بولى وبنى ريام وبنى قطب والنعيم ومجموعة قبائل أخرى وكذلك الامام المخلوع يعرب بن بلعرب ضد خال الامام سيف • ونتج عنها حروب طاحنة دامت أربع سنوات كان النصر فيها لقوات محمد بن ناصر الغافرى • وفى المعارك الأولى تمكن محمد بن ناصر من أسر بلعرب بن ناصر ولى الامام سيف وبعد انتصاره على بلعرب بن ناصر أصبح محمد بن ناصر زعيم الغافريين يتصرف وكأنه وليا على الامام سيف ، فكان يصحب الامام الصغير معه فى المعارك وكذلك أسيره يعرب بن ناصر مقيدا •

تولى المعارضة بعد ذلك خلف بن مبارك زعيم بنى هناة ، وهذه هى الفترة التى انقسم فيها المجتمع العماني الى فريقين سياسيين : فريق الهناويين تحت زعامة خلف بن مبارك وفريق الغافريين تحت زعامة محمد بن ناصر •

وكان تشكل محمة بن ناصر يعتمد أساسا على القبائل الشمالية والظاهرة أى بنى نعيم وبنى قطب وبنى ياس ورحمة بن جابر •

أما الهناويون فكان تحالفهم يشمل أساسا قبائل الشرقية من بنى على وآل وهبة والعوام •

وانتهت المعارك عام ١٧٢٤ م بنصر ساحق للغافريين ، ونتج عنها مبايعة محمد بن ناصر اماما فى أكتوبر من ذلك العام • وكان يبدو أن رضى التصروب قد انتهت ولكن الهناويين استطاعوا من جديد جمع تكتلهم كما أن خلف استطاع عمل خديعة سياسية استطاع عن طريقها فك التحالف الذى كان يربط قبائل بنى ياس وبنى قطب والنعيم مع محمد بن ناصر زعيم الغافريين •

وكانت معركة صطار فاصلة فى الصراع الهناوى الغافرى • وفى هذه المعركة قتل خلف بن مبارك زعيم الهناويين من ناحية ، كما جرح الامام

محمد بن ناصر ومات على أثره في مارس ١٧٢٨ م • وكان يبدو انه باعادة انتخاب سيف بن سلطان اماما في أبريل ١٧٢٨ م فان الصراعات الدموية قد انتهت خصوصا وان كلتا المجموعتين من غافريين وهنوايين بايعتا سيف اماما •

ولكن الذى حصل أن بلعرب بن حمير أحد أقرباء سيف تولى المعارضة وبعد أن تمكن من اقناع أهالى نزوى بالتخلي عن سيف ، سارع الى جمع قوات تمكن بها من السيطرة على سمائل وازكى والنخل والشرقية وجميع حصون الظاهرة ، وتم انتخابه اماما • وبقيت المناطق الساحلية بالباطنة والرسناق تحت سلطة سيف •

ونتيجة تدهور مكانة سيف استنجد الاخير بوالى مكران الذى أرسل اليه جنودا مسلحين من البلوش الا أن هذه القوة لم تكن كافية ضد قوات بلعرب بن حمير فواجهت الهزيمة •

وهكذا بقيت البلاد منقسمة الى سلطتين لفترة زمنية غير قصيرة • وخلال تلك الفترة كانت سلطة نادر شاه في فارس والذى تولى الحكم عام ١٧٢٢ تزداد قوة وانتشارا في منطقة الخليج • والذى استطاع بعد تقوية أسطوله الاستيلاء على البصرة عام ١٧٣٥ والبحرين عام ١٧٣٦ م • فقرر الامام سيف بن سلطان الثانى الاستعانة بالفرس بهدف اخضاع البلاد تحت سيطرته واستجاب نادر شاه لطلب الامام سيف والذى كانت أطماع فتح عمان واخضاعها للفرس تستولى عليه •

ففى ١٦ أبريل ١٧٣٧ نزلت القوات الفارسية خور فكان واستطاعت اخضاع رحمة بن مطر زعيم الهولة في جلفار تحت سيطرته • ثم تقدمت القوات المشتركة في معركة فاصلة ضد بلعرب بن حمير في منطقة الظاهرة حيث تمكنت من إلحاق الهزيمة في قوات الامام بلعرب • ولكن نتيجة سوء

تصرفات قائد الحملة الفارسية لطيف خان : دبت الخلافات بين الامام سيف وبينه وترتب عنها انسحاب القوات الفارسية الى جلفار .

وبمجرد انسحاب القوات الفارسية عادت الثورة ضد الامام مشتتة من جديد . فمرة ثانية التجأ الامام الى نادر شاه . وفي هذه المرة كانت أطماع الفرس في السيطرة على عمان واضحة ومؤكدة وبدأ القائدان الفارسيان تقى خان ولطيف خان اللذان كانا يقودان الحملة الفارسية المكونة من ٦ آلاف مقاتل يتصرفان باستقلالية تامة عن الامام سيف . واستطاعت القوات الفارسية التقدم بوحشية ضاربة واستولت على نزوى وبهلى ومسقط أيضا ما عدا قلعتها الجلالى وميرانى الا أن صحار صمدت ضد الاحتلال بقيادة واليها أحمد بن سعيد . الا أن هذه الانتصارات الفارسية قد أثبتت لدى الامام سيف نية الفرس العدوانية ، ونتيجة الخلاف الذى دب بين الامام وقائد الحملة الفارسية تقى خان ، فان الامام انسحب بأسطوله الى بركة وعقد تحالفا مع منافسه بلعرب بن حمير لطرد الفرس . وفي نفس الوقت فان الخلافات التى دبت بين القائدين الفارسيين أدت الى قيام تقى خان بدس السم للطيف خان .

أدى الصلح بين الامامين المتنافسين الى توطيد المقاومة ضد الفرس . واستطاعت المقاومة العمانية من الاستيلاء على سمائل واجلاء الفرس عن حصارهم لصحار ثم اجبارهم للتقهقر الى جلفار فى الشمال . وانتشرت حركة المقاومة ضد الفرس فى جميع المناطق الساحلية ، كما أن السفن العمانية قامت بقطع المؤن عن القوات الفارسية الى جانب مهاجمتها لعدة موانئ فى الخليج مثل باسيدو وجزيرة قشم كما حاصروا الحامية الفارسية فى البحرين وتمكنوا من القضاء عليها . وساعد على تحقيق الانتصارات ضد الفرس قيام ثورات داخلية فيها ، فاضطر نادر شاه الى استدعاء تقى خان فى مارس ١٧٣٩ للقضاء على ثورة أهالى جمبرون .

ومرة أخرى كان من الممكن أن نستقر الأمور للإمام سيف بن سلطان
الآن ضعف شخصية الإمام سيف واهتمامه بحياته الخاصة أجبرت العديد
من المشايخ والقضاة الى انتخاب سلطان بن مرشد اليعربى اماما في فبراير
من عام ١٧٤٢ ، وبعد أن أعلنت ازكى وسمائل ونزوى وبهلى وأماكن أخرى
خضوعها للإمام الجديد تقدم بقواته نحو العاصمة رستاق وتمكن من إخضاعها
واجبار الامام سيف اللجوء الى مسقط .

ومرة ثالثة فان الامام سيف برغم التجارب المريرة التجأ الى نادر شاه
ووصل الوفد العماني الى أصفهان في ربيع ١٧٤٢ م . وفي سبتمبر من نفس
العام خرجت الحملة الفارسية الثالثة وقوامها ٦٠٠٠ مقاتل بقيادة ميرزا
محمد تقى خان ، وبعد وصولها الى جلفار توجه الامام سيف للاقائتها مما
أعطى الفرصة للبحارة العمانيين بأن يتطوعوا لوضع قطع سفنهم في مسقط
لمنصرة الامام سلطان بن مرشد . وتوزعت خطة الهجوم على أن يتولى
أسطول فارس بقيادة كلب علي خان محاصرة صحار وأن يقوم ميرزا تقى خان
بالتعاون مع سيف بالتوجه الى مسقط .

صحار قلعة المقاومة :

في هذه الفترة من المهم الإشارة الى دور صحار في تزعم المقاومة ضد
الفرس وتخليص البلاد من السيطرة الأجنبية وتوحيدها . فقد تولى زمام
المقاومة أحمد بن سعيد مؤسس دولة البوسعيديين والذي كان الامام سيف
قد عينه واليا على صحار . وقد استطاع هذا الوالى أن يبرهن عن قدراته
القتالية والدفاع عن صحار أثناء الحصار الذي فرضه الفرس عليهما إبان
حملتهم الثانية التي قادها تقى خان عام ١٧٣٨ م . وبدأت شخصيته تملو
تدريجيا وأثناء الحملة الفارسية الثالثة فرض الحصار على صحار بحرا وبراً
وامتدت فترة الحصار ٧ أشهر .

وقد أدرك الامام سلطان بن مرشد أهمية هذا الدفاع المستميت من

جانب الوالى فبادر بجمع قوة كبيرة من عزب الظاهرة وبنى غافر وأهالى الرستاق وتقدم الى صحار بهدف مناصرة الوالى أحمد بن سعيد وبعد أن تمكن من شق طريقه عبر خطوط المحاصرين والانضمام الى الوالى أحمد بن سعيد ، فان جرحا اصابه أثناء تلك العملية أودى بحياته حوالى عام ١٧٤٤م •

وقد ترتب عن موت الامام سلطان بن مرشد بأن أصبح الوالى أحمد ابن سعيد زعيم الحركة الوطنية • وبرغم أن الحصار الطويل حول صحار برا وبحرا أدى الى نقصان فادح فى المؤن والذخيرة ، وبرغم أن الفرس كانوا يدعمون أسطولهم بشتى الوسائل الا أنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على صحار الأمر الذى كلف العمانيين حوالى ثلاثة آلاف شهيد •

ونتيجة لهذه المقاومة الصلبة يؤس القائد الفارسى من السيطرة على صحار فبعث الى نادر شاه طلبا بالموافقة على عقد صلح مع الوالى أحمد ابن سعيد وقد تضمن الصلح :

- ١ — أن يرفع الفرس الحصار عن صحار وتغادر قواتهم عمان •
- ٢ — يحتفظ نادر شاه بمسقط ، وأن يدفع له الوالى أحمد الجزية •
- ٣ — تظل صحار وبركاء تابعة لأحمد بن سعيد •

وكان من الواضح أن الوالى أحمد بن سعيد قد اتخذ من هذا الصلح بداية للتحرر النهائى من السيطرة الفارسية • اذ ما أن غادرت القوات الفارسية عمان ، حتى توقف الوالى أحمد بن سعيد عن دفع الجزية وتقدم نحو بركا حيث عين خلفان بن محمد السعيدى واليا عليها ، وتمهيدا لتحرير مسقط ، حول التجارة الخارجية الى بركاء وقدم كل التسهيلات للتجار بهدف وقف التجارة مع مسقط • ثم جاءت الظروف مواتية لتحرير مسقط بعد أن مات الامام سيف بن سلطان فيها ، اذ قام نائب الامام : ماجد بن سلطان بارسال رسالة الى شيراز لدعم سلطته ولكن عند عودة السفينة الى مسقط

جذبته الرياح الى صحار فعرف الوالى أحمد بن سعيد عن الرسائل المتبادلة مع نادر شاه ، ثم قام بإرسال قوة قوامها أربعمائة مقاتل بقيادة واليه في بركاء . فاضطرت الحامية الفارسية للاستسلام ثم أمرها أحمد بن سعيد بالرحيل وفي عرض البحر تم اغراقها وحرقتها . وهكذا أصبح الوالى أحمد ابن سعيد يسيطر على معظم المنطقة الساحلية من صحار الى مسقط .

انتقل الوالى أحمد بن سعيد الى المرحلة الثانية من نضاله بعد تحرير عمان من السيطرة الفارسية . وتمثلت المرحلة الثانية في تحقيق الوحدة الوطنية . وبعد موت الامام سلطان بن راشد تم انتخاب بلعرب بن حمير مرة أخرى اماما في رستاق .

وكان الامام الجديد يلقي التأييد من معظم القبائل التي انطوت تحت التحالف الغافرى سابقا مثل بنو نعيم والقواسم ومجموعات أخرى من قبائل منطقة الصير . وبالمقابل فان معظم القبائل الهناوية والتي انتخبت أحمد بن سعيد اماما في مسقط قبل مبايعته العامة كانت تؤازر الامام أحمد بن سعيد تقديرا لخدماته الوطنية .

وبعد معارك طاحنة بين الطرفين انتصرت قوات الامام أحمد بن سعيد وقتل الامام بلعرب بن حمير . وانحصرت المقاومة بقيادة سليمان بن محمد بن عدى اليعربى الذى كان واليا من طرف الامام سلطان بن مرشد على سمد الشأن ، الا أن سليمان أثر التنازل بعد أن خضعت معظم المدن : الرستاق ، سمائل ، ازكى ، نزوى ، بهلى للامام أحمد بن سعيد فجازاه الامام أحمد بتعيينه واليا على النخل .

هناك تضارب في الروايات بالنسبة لتاريخ انتخاب أحمد بن سعيد ، اماما فبرغم أن بعض الروايات تشير الى عام ١٧٤٤ م لهذا الحدث ، الا أن الرحالة الألمانى نيبوهر الذى زار عمان عام ١٧٦٥ يؤكد أن الانتخاب تم عام ١٧٤٩ م اذ يشير الى أنه قد مضت ١٦ عاما على حكم الامام أحمد بن سعيد عند قدومه الى عمان .

ويبدو أن الاختلاف في الروايات ربما يعود الى الفترة التي أعقبت موت الامام سلطان بن مرشد عام ١٧٤٤ ثم مبايعة الامام أحمد بن سعيد تلتها حروب ضد الامام بلعرب بن حمير . وأخير المبايعة العامة التي ربما حصلت عام ١٧٤٩ م .

أثر الأحوال المضطربة على شؤون الامبراطورية :

خلال الثلاثين عاما من الاضطرابات التي أعقبت موت الامام سلطان ابن سيف الثاني عام ١٧١٩ ، كانت شؤون الامبراطورية تتدهور بشكل واسع ، فقد ساءت الأحوال الاقتصادية في داخل البلاد ، كما أن عمان فقدت زعامتها في منطقة الخليج في فترة حكم نادر شاه الذي تمكن من استرداد سيطرته على العديد من الموانئ والسيطرة على جزر البحرين عام ١٧٣٦ م . أما في شرق افريقيا فقد استطاع البرتغاليون عام ١٧٢٨ م الاستيلاء على مباسا ولادة عامين تقريبا كما امتدت سيطرتهم على طول الساحل من باتا حتى كلوه . ومن العوامل التي ساعدت البرتغاليين على تلك الانتصارات حدوث تمرد من قبل سكان مباسا ضد الوالي ناصر بن عبد الله وقيامهم بتعيين سيسا رومبا واليا عليهم ، الا أن رفض مشايخ الجالية العربية أدى الى قيام حرب أهلية استغلها البرتغاليون لفرض سيطرتهم . ولكن سوء تصرفات البرتغاليين أدت مجددا الى ثورة عامة من قبل الأهالي وانتهزوا فرصة الأعياد في عام ١٧٣٠ م للقيام بتمرد ضد البرتغاليين مستغلين انشغال البرتغاليين في الاحتفال بأعيادهم . فقام الأهالي بذبح البرتغاليين أينما وجدوهم في المدينة ومن نجا منهم هرب الى موزمبيق . وبعد نجاح السكان من طرد البرتغاليين من مباسا بعثوا بوغد الى امام عمان الذي أرسل قوة من ثلاث سفن بقيادة أحمد بن سعيد العموري والذي عينه الامام واليا جديدا على مباسا . وقد تمكن الوالي أيضا من إعادة اخضاع زنجبار تحت سلطته .

وأصبحت جميع المدن والجزر في ذلك الجزء من شرق افريقيا ترسل الجزية السنوية الى الامام .

وقد حاول البرتغاليون في نفس العام ارسال أسطول من جوا في الهند لاحتلال ممباسا ، ولكن سوء الأحوال البحرية حالت دون ذلك وبقيت السيطرة العمانية قائمة على طول الساحل من رأس وليجاد الى مقديشيو الا انه يجب الاعتراف بأن تلك السيطرة كانت ضعيفة .

وقد مارس حكام تلك المدن حكما شبه مستقل برغم انهم كانوا يرسلون الزكاة السنوية .

وفي عام ١٧٣٩ م قبل سقوط دولة اليعاربة بعدة أعوام ، تم تعيين محمد بن عثمان المزروعى واليا على ممباسا بدلا من أحمد بن سعيد المعمرى . وكان هذا الوالى الجديد تحدوه آمال الاستقلال التام عن السلطة المركزية في عمان . الا أنه في فترة حكم اليعاربة استمر في ولائه الاسمى لتلك الدولة . وفي نفس الوقت كان يعمل على كسب ولاء أبناء ممباسا والمناطق المحيطة بها لنفسه . واستطاع عن طريق معاملة الناس بالعدل والمساواة أن يكسب عطف الشيوخ والرؤساء وأن يضمن التأييد لخطته القادمة ، وما أن انتهت دولة اليعاربة وتولى الامام أحمد بن سعيد مؤسس دولة البوسعيد الحكم حتى أعلن انفصاله الرسمى عن عمان وهذا الانفصال وآثاره سنتناوله في الفصل القادم .

الفصل الثالث

نمو الدولة العمانية وازدهارها في عهد البوسعيدين

نمو وازدهار الامبراطورية :

اوضاع الامبراطورية في عهد الامام أحمد بن سعيد :

عندما تولى الامامة أحمد بن سعيد البوسعيدي بعد فترة طويلة من الصراعات الداخلية والصراعات مع الفرس . فان الأوضاع الداخلية كانت متردية الى حد كبير ؛ علاوة على ذلك ، فان الأجزاء الغربية من الامبراطورية في شرق افريقيا كانت متفككة ، وكانت تحدد بعض الولاة وخصوصا محمد ابن عثمان المزروعى في ممباسا آمال الانفصال التام عن عمان وتكوين دولة مستقلة له . الا أنه على سعيد العلاقات الخارجية ، فان التهديدات البرتغالية كانت قد تلاشت . ولكن كان على الامام أحمد أن يبرهن عن كفاءته في كيفية توجيه السياسة تجاه الدولتين العظيمتين بريطانيا وفرنسا واللتين كانتا في صراع مستمر مع بعضهما .

وفي منطقة الخليج فان اغتيال نادر شاه عام ١٧٤٧ وقيام القلاقل والاضطرابات في فارس منحت فرصة للامام أحمد للتفرغ للشؤون الداخلية، الا انه بعد نجاح كريم خان زند في السيطرة على فارس وحكمه خلال الفترة ١٧٥٦ - ١٧٧٧ وهي الفترة المعاصرة لحكم الامام أحمد بن سعيد ظهرت من جديد التحديات أمام الامام أحمد بن سعيد . ومن التحديات الأخرى التي جابهت الامام أحمد ، نشأة قوة القواسم في بعض الأجزاء من عمان الشمالية وقيامهم بحركات الانفصال بل وتوسيع قاعدة سيطرتهم على عدة مدن من شمال عمان .

وفي المجال الداخلي ، فقد كانت غالبية الشعب العُماني تؤازره وتواليه ذلك لأن الامام أحمد كان رمزا للنضال من أجل تحقيق الوحدة الوطنية ، وقد كان لهذا الاتجاه أثر كبير في سرعة توطيد الامام أحمد لحكمه . وقد استطاع الامام أحمد أن يصل الى تفاهم مع اليعاربة بعد أن قضى على حكمهم ، بأن أقطع لليعارية قلعتي نخل والحزم . فانحصر نفوذهم السياسي وظلوا يمارسون سلطاتهم المحلية كولاية واعتكفوا في ممتلكاتهم بالجبل الأخضر كما عقد الامام صلحا مع ناصر بن محمد الجابري والذي كان والسده زعيما للتجمع المغافري بأن أبقاه زعيما على منطقة الظاهرة بشرط اعترافه بالولاء للحكومة المركزية .

وهكذا شهدت عمان في فترة حكم الامام أحمد استقرارا داخليا ساهم في تحقيق الوحدة الوطنية وتحقيق الازدهار والنمو التدريجي . ولم يعكر صفو هذا الاستقرار الداخلي الا احداث التمرد من جانب ولديه سيف وسلطان في الفترة الاخيرة من حكمه .

وفي المنطقة الشمالية الغربية من عمان المعروفة بالصير ، وجه الامام جهوده بهدف اخضاعها للحكم المركزي . وقد واجه الامام في تلك المنطقة تحديات من جانب القواسم الذين عرف عنهم انهم من أهل قبائل الهولة العربية والتي كانت تقطن الجزء الفارسي من الخليج بين جمبرون ورأس بردستان ثم هاجرت الى رأس الخيمة حيث استطاعت أن توطد نفوذها وتكون لنفسها قوة بحرية مستقلة نمت تدريجيا . وبعد هجرتها عرفت بالقواسم نسبة الى قاسم جد الشيخ راشد بن مطر الذي عاصر الامام أحمد بن سعيد خلال فترة حكمه ١٧٥٨ أو ١٧٥٩ .

قاد الامام قواته صوب خصب حيث أعلن الشيخ حسن بن عبد الله الشحو ولائه للامام أحمد ، وأثناء تواجده في خصب نما الى علمه أنباء تمرد في المنطقة الشرقية فكلف خلفان بن محمد بالتوجه الى جلفار (رأس الخيمة)

على رأس قوة بحرية كبيرة ، وبعد عودته من الشرقية استبدل خلفان بن محمد بقائد أكثر كفاءة وهو : سيد علي بن سيف الذي قاد أسطولا من أربع سفن كبيرة وعشرة سفن متوسطة الحجم وقام بفرض الحصار حول تلك المنطقة .

وكان من نتائج ذلك الحصار أن خضعت له كل الموانئ في منطقة الصير باستثناء جلفار . كما أجبرت القواسم عام ١٧٦٢ على إرسال وفد برئاسة الشيخ صقر برفقة عمه عبد الله الى العاصمة الرستاق للتفاوض مع الامام . وكانت نتائج تلك المباحثات الاتفاق على خضوع كافة الموانئ في تلك المنطقة للامام أحمد مع بقاء القواسم في جلفار وانهاء الحصار البحري العماني .

والواقع ان الاتفاقية المعقودة مع القواسم كانت ذات أثر محدود في العلاقات بين الطرفين ... اذ أنه بمضى الوقت فان قوة القواسم كانت في نمو مستمر خصوصا قوة أسطولهم البحري ...

وترتب عن ذلك حدوث عدة اشتباكات أثناء فترة الامام أحمد ، كان يحاول خلالها القواسم توسيع قاعدة حكمهم والتوسع في الأراضي العمانية الى جانب المناوشات التي كانت تحصل بين قطع من الأسطول العماني وقطع من أسطول القواسم . كما أن قوة القواسم كانت في تعاظم مستمر الى درجة أن قطعا من أسطولهم كانت تهاجم السفن الاوروبية ومنها السفن الانجليزية مما خلق تقاربا سياسيا بين عمان وبريطانيا وبرزت النتائج العملية لهذا التقارب في الربع الأول من القرن التاسع عشر . على أن هذا الصراع بين الامام أحمد والقواسم لم يخل أيضا من حالات تعاون وتنسيق ، كما حصل عام ١٧٧٢ عندما وقع الطرفان صلحا بهدف التفرغ للقيام بعمليات ضد فارس في منطقة الخليج .

سياسة الامام أحمد تجاه الخليج :

ان اهتمامات الامام أحمد في تقوية ودعم دور الامبراطورية العمانية في منطقة الخليج كانت تفوق الى حد كبير اهتماماته بشؤون الامبراطورية في شرق افريقيا • ولهذا نرى أن الامام وجه جهودا مكثفة نحو توطيد مركزه في منطقة الخليج ومجابهة القوى المختلفة •

قضى الامام أحمد الفترة الأولى من حكمه كما أسلفنا ، في توطيد النظام والاستقرار في الداخل وبمجابهة نفوذ القواسم في منطقة الصير • وفي فارس فان كريم خان زند بعد أن استولى على الحكم عام ١٧٥٦ وقام بتوطيد نفوذه في الداخل وجه جهوده صوب عمان فبعث برسالة الى الامام أحمد يطلب منه دفع جزية سنوية ، فبعث اليه الامام أحمد برده بأن عمان لا تدفع الجزية لأحد ، واذا أمر كريم خان على مطالبه ، فان عليه أن ينتزعا بالقوة •

وكان واضحا من صيغة جواب الامام أحمد ثقته بقدراته القتالية وامكانات مواجهة التطورات • وترتب عن هذا الرد حصول بعض المناوشات فاستولى كريم خان على بعض القطع البحرية العمانية ، مما أجبر الامام أحمد عام ١٧٧٦ على ارسال أسطول الى بوشهر للمطالبة بالتعويضات • كما أن الامام قام بالتحالف مع القواسم كما أسلفنا في عام ١٧٧٢ بالقيام بارسال حملة بقيادة والى مسقط خلفان بن محمد الى بوشهر حيث تم تدمير بعض القطع الفارسية •

وخلال عام ١٧٧٥ م ، كان لمحاولة احتلال البصرة من قبل الفرس دور كبير في اظهار قوة وقدرات الأسطول العماني واكساب الامام أحمد هبة قوية في المنطقة • ففي هذا العام قرر كريم خان زند توجيه حملة ضد

الأتراك في البصرة وقاد الحملة الفارسية صادق خان شقيق الشاه وقدرت القوات الفارسية بـ ٥٠ ألف مقاتل •

واستجابة لنداء الدولة العثمانية قام الامام بتجهيز أسطول قوى والذي شمل السفينتين رحمانى و ٩ سفن رباعية الشراع وسبعين سفيننة نقل متوسطة وصغيرة بالاضافة الى ٥٠ مركبا شرايعا محملة بالرجال • وبعد أن تجاوز الأسطول العماني مياه بوشهر في الحادى عشر من سبتمبر رسا في مياه شط العرب واستطاع الأسطول العماني كسر السلاسل الحديدية في مدخل شط العرب والتقدم بالاسطول وتدمير بعض القطع البحرية التى كان يقودها حاكم بوشهر وتسهيّل وصول التموينات الى البصرة •

وقد كان لهذه الحملة التى قادها الامام بنفسه أثر طيب لدى السلطات العثمانية . فقرر السلطان العثماني مصطفى الثالث تقديرا لهذه المساعدة دفع ضريبة سنوية للامام أحمد من خزانة البصرة ٥٠٠ هذه الضريبة التى استمر سدادها حتى عهد السيد سعيد بن سلطان وكانت سببا في توتر العلاقات في فترات متعددة • حاول الامام بعد ذلك أن يعرض الوساطة بين العثمانيين والفرس ولكن بدون جدوى مما أجبره على العودة الى عمان في نهاية ١٧٧٥ م • وبصفة عامة يمكن القول أن النفوذ الثابت لعمان في منطقة الخليج في عهد الامام أحمد بن سعيد كان يمتد حتى الاحساء والبحرين وحتى حدود ظفار في المنطقة الغربية •

وقد كانت اهتمامات الامام في ضمان حرية الملاحة بالخليج والمحيط الهندي كبيرة جدا ، غفى عام ١٧٧٦ م قام بارسال سفينته الرحمانى الى مانجالور في مقاطعة ميسور بالهند للاستفهام عن سبب انقطاع شحنات الأرز الى مسقط وعندما علم الوفد العماني أن سبب ذلك الانقطاع يعود الى أعمال القرصنة التى يمارسها القراصنة على سواحل ملبار ضد السفن التى تحمل الأرز الى مسقط ، بادر بارسال حملة تأديبية الى سواحل ملبار •

وكان من نتائج هذه الحملة قيام حاكم ميسور بإرسال مبعوث من قبله الى الامام أحمد في الرستاق لتأكيد علاقات الصداقة ولتعيين مبعوث تجارى دائم في مسقط ليتولى رعاية العلاقات بين الطرفين • وإستمر هذا التمثيل التجارى قائما في مسقط حتى عام ١٧٩٩ م عندما سقطت مقاطعة ميسور تحت الحكم البريطانى وقتل فيها حاكمها تبو صاحب •

شؤون الامبراطورية في شرق أفريقيا :

كان التحدى الذى واجهه الامام أحمد ، من قبل محمد بن عثمان المزروعى الذى كان قد عين واليا على ممباسا في عهد الامام سيف بن سلطان الثانى عام ١٧٣٩ م ، ذا معنى خطير اذ أن سكوت الامام عن تصرفاته كان يمكن أن يكون بداية لانحياز الحكم العمانى في شرق افريقيا • فالنظام الذى اتبعه اليعاربة في تيسير أمور المناطق التابعة لعمان في شرق افريقيا كان يتمثل في تعيين الولاة في المناطق الأساسية • وكان الولاة يحافظون بالنيابة عن الأئمة على جمع الزكاة والخراج وارسالها الى الامام ...

كما أن الولاة كانوا يبلغون الأئمة عن أية مخاطر تهدد تلك المناطق وخصوصا محاولات البرتغاليين استرداد نفوذهم • فكان الأئمة يرسلون أساطيلهم لمواجهة تلك التحديات • وقد مكنت الأحوال الداخلية المضطربة في عمان ، خلال الفترة الاخيرة من حكم اليعاربة ، هؤلاء الولاة من زيادة نفوذهم الشخصى وسيطرتهم على المدن وممارستهم نوعا من الاستقلال •

وقد أدرك الامام أحمد أهمية المقاطعات الغربية من الامبراطورية ، فأرسل في بداية حكمه عام ١٧٥٠ بسفن الى ممباسا وكيلو وزنجبار حاملة بعض الشخصيات التى قرر الامام تعيينهم كولاة • الا أن محمد بن عثمان المزروعى الذى كان قد تمكن خلال فترة تواجده من توطيد حكمه وكسب ولاء الشيوخ والأهالى ، أعلن تمرده على سلطة الامام أحمد وأوقف ارسال الأموال السنوية المعتادة •

وقد أدرك الامام مخاطر اعلان الاستقلال من جانب ممباسا ، فقام بارسال ستة من أعوانه المخلصين تحت رئاسته سيف بن خلف لانهاء استقلال ممباسا . وقد لجأ هؤلاء الى الحيلة . فبعد أن اتفقوا مع محمد بن عثمان المزروعى بأنهم جاءوا لمساعدته ولانتزاع حكم ممباسا من الامام أحمد وبعد أن استطاعوا كسب وده وثقته بهم طلبوا منه السماح لهم بالرحيل الى كلوه وبمبا لجمع الأعوان والمناصرين للقضية المشتركة : وقبل اليوم المحدد للرحيل قصدوا زيارته فى القلعة بحجة توديعه فقابلهم فى قلعته واستغل سيف بن خلف الفرصة وقام باغتيال محمد بن عثمان المزروعى وقتل حاشيته الموجودة فى القلعة . الا أن هذه الحادثة لم تمنح سوى فرصة استمرار الحكم العماني على ممباسا لعام واحد اذ أن سيف بن خلف بعد اغتياله لحمد قام بايداع أخيه على فى السجن ، الا أن عليا بعد أن تم اطلاق سراحه قاد الحركة ضد سيف وتمكن من اخراج قواته من ممباسا وأخذ ثأره باغتيال سيف نفسه .

وباستمرار حكم المزروعين ، أصبحت ممباسا مستقلة عن عمان ومتمردة عليها . الا أن بقية المدن فى شرق افريقيا بقيت خاضعة للامام أحمد . ولم يكتف على بن عثمان المزروعى باستقلال ممباسا . بل حاول توسيع دائرة حكمه لتشمل أهم مدينة أخرى فى شرق افريقيا . فبعث بحملة بحرية بقيادة سعود بن ناصر الى زنجبار حيث تمكنت تلك الحملة من أن تستولى على معظم أجزاء زنجبار لولا الامدادات المستمرة التى كان يتلقاها والى محمد بن جعد البوسعيدى الذى كان الامام أحمد قد عينه واليا على زنجبار .

ولكن سعود بن ناصر بدلا من أن يواصل الحرب لصالح على بن عثمان المزروعى ، فانه دخل فى خلاف مع سيده وأثر أن يحل محله فى الحكم ، قدبر مؤامرة لقتله وتمكن من تنفيذها عام ١٧٥٣ م . وقد مكته ذلك من الحكم على ممباسا لبضع سنوات .

والواقع فإن هذه التحركات من جانب ممباسا ، لم تؤثر تأثيرا قويا على شؤون الامبراطورية في شرق افريقيا . فقد استمرت القوافل التجارية ذهابا وايابا في رحلاتها المعتادة . ويبدو أن انشغال الامام أحمد في توطيد دعائم الحكم في عمان ومجابهة التحديات في منطقة الخليج قد حال دون ارسال حملة بحرية قوية لاسترداد ممباسا .

العلاقات الدولية في عهد الامام أحمد بن سعيد :

اتسمت العلاقات بين الدولتين العظميين بريطانيا وفرنسا في بحار الشرق بالتنافس التجارى منذ تم انشاء وكالات تجارية لهما في القرن السابع عشر ... واحتفظ الامام أحمد كأسلافه اليعاربة بعلاقات ودية مع كل من بريطانيا وفرنسا ، وانسجمت تلك العلاقات الودية مع الأوضاع السلمية السائدة بين الدولتين العظميين ، ولكن قيام حرب السنوات السبع بين بريطانيا وفرنسا (١٧٥٦ — ١٧٦٣) ، كانت لها انعكاساتها على بحار الشرق ، وأدت تلك الانعكاسات الى ملاحقة سفن كل طرف بسفن الطرف الآخر ، مما وضع حكام عمان في مواقف محرجة .

وظهرت بوادر أولى تلك المواقف المحرجة عام ١٧٦١ عندما حاول الكونت داستان ملاحقة سفينة تجارية بريطانية في المياه الإقليمية لمسقط . وكان مثل هذا التصرف يعنى الاساءة الى سيادة عمان ، فاضطر الوالى محمد خلفان في مسقط الى اصدار تعليماته بقصف السفينة الفرنسية من المدافع المنصوبة في القلعة ، فأجبر السفينة الفرنسية على مغادرة مياه مسقط . قام بعدها الكونت داستان بمهاجمة المركز التجارى البريطانى في جمبرون وأسر الموجودين فيها ثم التوجه الى جزر موريتشوسى .

وحدثت حالة مشابهة عام ١٧٧٨ ، عندما اضطرت سفينة تجارية بريطانية من اللجوء الى مسقط هربا من ملاحقات السفن الفرنسية في

البحار • وحاولت سفينة فرنسية اخراج السفينة البريطانية من مسقط بالقوة مما اضطر ازماءها الوالى محمد بن خلفان الى اطلاق النار على السفينة الفرنسية واجبارها على مغادرة مسقط •

ورغم تلك المواقف المرحجة ، فان العلاقات الودية استمرت مع فرنسا • ووردت في احدى رسائل الامام الى الفرنسيين العبارة الودية التالية « اتنى صديق للفرنسيين وأعتبر نفسى ابنا لهم وأضع تحت تصرفهم مينائى بما فيه من ماء ومائية » كما أن علاقات عمان التجارية مع جزر موريتشيوسى الفرنسية استمرت وطيدة •

وفي عهد الامام قدمت أول سفينة تجارية من موريتشيوسى تحمل السكر ونقلت من مسقط التمرور والسمك المالح والبن • كما أن السلطات الفرنسية كانت حريصة بدورها على تنمية تلك العلاقات ، وعندما حصلت أزمة السفينة « الصالح » بين الامام أحمد وفرنسا ، فان السلطات الفرنسية اتخذت كل ما من شأنه ارضاء الامام •

ففى عام ١٧٨١ ، قامت ثلاث سفن فرنسية بملاحقة السفينة البريطانية « بيجلير بيرج » التى التجأت الى مسقط • وعندما قُشلت في أسرها اتجهت الى مياه الخليج حيث قامت بالاستيلاء على السفينة العمانية « الصالح » ذات الـ ٥٠ مدفعا والتي كانت في رحلة تجارية من الهند الى البصرة • وبعد الاستيلاء على السفينة تم بيعها من قبل المسؤولين الفرنسيين الى المهراتيين • وعندما علم الامام أنباء تلك الحادثة فانه في الوقت الذى بعث بوفد الى موريتشيوسى لتقديم الاحتجاج والمطالبة بالتعويضات عن السفينة وحمولتها والتي قدرت بمليون ومائتى ألف روبية ، فانه في نفس الوقت أصدر تعليماته بعد مضي شهرين بالاستيلاء على احدى السفن الفرنسية التى قدمت الى مسقط حيث تم مصادرتها وأخذ ملاحيا أسرى •

وقامت السلطات الفرنسية بعد ذلك بإرسال الكابتن ماكينزا بصحبة السفينة La Thetig الى مسقط لتقديمها هدية الى الامام تعويضا عن السفينة « الصالح » مع خطاب اعتذار من الحكومة الفرنسية .

وباستثناء تلك المواقف المرحجة ، فان السفن البريطانية والفرنسية كانت تقوم بزيارات ودية وتجارية الى مسقط لتتزوّد بالماء والمؤن واجراء اصلاحات . وهكذا أثبت الإمام قدراته على اتباع سياسة الحياد بين الدولتين العظميين .

وعندما توفي الامام أحمد بن سعيد في ١٩ محرم ١١٩٨ هـ (١٥ ديسمبر ١٧٨٣ م) ، غانه ترك أحوال الامبراطورية قوية شامخة بل وزاد من هيبة عمان في منطقة الخليج عن طريق مواقفه الحازمة ، مثل موقفه إبان الاحتلال الفارسي للبصرة ، وأرسى دعائم سياسة يقظة وحذرة بالنسبة للتعامل مع الدول الكبرى في المنطقة .

أحوال عمان بعد وفاة الامام أحمد :

تعتبر الفترة التي أعقبت وفاة الامام أحمد عام ١٧٨٣ م وحتى تولي سلطان بن الامام الحكم عام ١٧٩٢ . فترة حرجة في تاريخ عمان . فخلال هذه السنوات التسع ، فان معظم الأحداث كانت تتمثل في صراعات داخلية . ولم يبرز لعمان دور يذكر في هذه المرحلة لتوطيد مزيد من نفوذها في الخليج أو شرق افريقيا . الا أنه يجب التنويه أن تلك الصراعات الداخلية لم تقف حائلا في وجه استمرار الأنشطة التجارية وتحركات السفن العمانية الى أقاصى البحار .

والصراعات الداخلية بين أبناء الامام ابتدأت في الواقع في الفترة الأخيرة من عهد الامام ، الا أنه استطاع كبح جماحها . فقبل وفاته بعدة سنوات قام ولداه سيف وسلطان بمحاولة لاطهار نفوذهما وبناء سلطتهما .

ومن المعروف أن ابن الامام الأكبر هلال كان ضريبا وغير قادر على التحرك ، أما ابنه سعيد فكان الامام قد منحه ولاية نزوى ولم يكن طموحا . كما أن ابنه قيس ارتضى بنصيبه في ولاية صحار ، وكان ولداه محمد وطالب صغيرى السن . أما ولداه سيف وسلطان من أم من قبيلة حبور فكانا طموحين وقاما بأول محاولة تمرد لهما حوالى عام ١٧٨٠ بعد توطيد علاقاتهما مع القواسم وبني نعيم وبالتآزر مع جماعة متعاونة من نخل وتمكنا أثناء هجوم ليلى على مدينة بركاء من اغتيال الوالى والسيطرة على القلعة .

وردا على ذلك قام الامام بارسال قوة قامت بقصف القلعة وأجبرت ولديه على الاستسلام ، ثم عفا عنهما الامام . كما أن تلك الحادثة أثارت غضب الامام ضد اليعاربة حيث أن الامام اعتبر أن قيام جماعة من نخل بمساعدة ولديه لم يمكن ليتحقق لولا التأييد من جانب الوالى محمد بن سليمان اليعربى .

وفي عام ١٧٨١ قام سيف وسلطان بمحاولة للاستيلاء على مسقط .

وقدما في قوة صغيرة وطلبا من الوالى السماح لهما بالدخول فرحب بهما •
وبعد دخولهما على الوالى قاما بعملية السيطرة على قلعتى ميرانى وجلالى •

وعندما أدرك الوالى مكيدتهما أشعر الامام بذلك • فقام الامام أحمد
بالتوجه من الرستاق الى مسقط ، وبعد أن رفض ولداه الاستسلام ، أمر
الامام بالبدء بالعمليات العسكرية • وبعث سيف وسلطان برسالة الى الشيخ
صقر زعيم القواسم لنجدتهما ، وتقدمت قوات الشيخ صقر الى مسقط ، واذ
أحس الامام بمخاوف من تلك الحركة من جانب القواسم ارتضى بعقد صلح
مع ولديه سمح لكل منهما بالاحتفاظ باحدى القلعتين •

وبعد فترة قصيرة استطاع الامام اقناع ولديه بالاحتفاظ بقلعة
الجلالى بينهما وأن تسيطر قواته على قلعة ميرانى • الا أن هذا التفاهم
لم يدم أكثر من عدة أشهر قام بعدها ولداه بخديعة ضد أخيهما سعيد وتمكنا
من حبسه في قلعة الجلالى •

ولم يجد الامام بدا من مواجهة ولديه مرة أخرى بالقوة ، فقدم من
الرستاق ووصل في يناير ١٧٨٢ الى مسقط • واذ رفض ولداه الاستسلام
أمر باطلاق النيران على قلعة الجلالى وتمكن سعيد بن الامام أحمد أثناء
ذلك من الهروب من القلعة فاضطر ولداه سيف وسلطان الى الاستسلام ،
وقام الامام أحمد باصطحاب ولده سيف وأبقاه معه في الرستاق •

وبعد وفاة الامام أحمد بن سعيد اجتمع العلماء والمشايع في الرستاق
حيث تم انتخاب ابنه سعيد اماما • وبايعت له جميع المناطق ، وبعد الجباية
بقيت قلاع الحزم ونخل في أيدي اليعاربة تمت ولاية محمد بن سليمان
اليعرى • كما احتفظ قيس بن الامام بصرار • أما سيف وسلطان فقد بعثا
برسالة الى زعيم القواسم لتناصرتهم في القضاء على الامام سعيد • أما
الشيخ صقر فانه بدلا من مناصرة سيف وسلطان فقد جمع قوات كبيرة

واستطاع أن يخضع بها مدن الشمال : الشارقة . والرمس ، وخورفكان
وجزيرة الحمراء تحت سلطته • وفشلت قوات الامام سعيد في هذه المرحلة
من استرداد تلك المناطق •

واذ ينس سيف بن الامام من محاولة السيطرة على الحكم في عمان
هاجر الى شرق افريقيا حيث نزل على مدينة لامو التي لم تكن تتواجد فيها
قوات للامام واستطاع السيطرة عليها ، الا أن الامام سعيد بعث بعد ذلك بقوة
بقيادة ابنه حمد ، لكن حمد ما أن وصل الى لامو وعلم بوفاة عمه سيف حتى
عاد ادراجه الى عمان • أما سلطان فانه هاجر الى اقليم مكران حيث أقطعه
حاكمها ميناء ومدينة جواهر وحيث عاش كلاجئ لعدة أعوام وكان خلالها
يأخذ نصف إيرادات الميناء لنفسه ويسلم النصف لحاكم مكران حسب
الاتفاق بينهما •

وخلال السنوات الثلاث التالية ، تمكن حمد بن الامام سعيد من
الاستقرار في مسقط . حيث استطاع أن يظهر قدراته كمقاتل طموح • وعندما
تشبت المعارك مجددا بين القواسم والامام سعيد عام ١٧٨٧ أدى حمد ابن
الامام سعيد دورا كبيرا الى جانب قائد الحملة العمانية محمد بن خلفان
في محاصرة المدن التي كان القواسم قد استولوا عليها سابقا • وتمكن من
استرداد خور فكان وجزيرة الحمراء وفرض الحصار حول الرمس ثم عاد الى
مسقط تاركا الأسطول للقيام بعمليات ضد جلفار (رأس الخيمة) •

وفي نفس الوقت فان سلطان بن الامام أحمد الذي يبدو أنه قد مل
الاقامة في منفاه بجواهر عاد نشيطا الى مسقط : واستطاع أن يضمن دعم
زعيم قبيلة بني جابر : محمد ناصر الجابري الذي كانت تربطه به صلات
النسب من والدته • واذا نما الى علم سيد حمد الاستعدادات التي كان يقوم
بها عمه سلطان ، بادر بقيادة حملة ضده في سمائل الا أنه وجد أن قوات عمه
تفوق قواته فأتجه الى الرستاق للاجتماع بوالده ، ومكنت هذه الظروف

سلطان بن الامام أحمد من التقدم صوب مسقط وجمع الغنائم أثناء حملته على مطرح . وأجبرت هذه الأحداث حمد بن الامام سعيد الى البحث عن صالح مع عمه بقيت مسقط بموجبه تحت سيطرته .

وفى عام ١٧٩٢ . كان سيد حمد مشغولا فى اعداد حملة كبيرة لم يعرف وجهتها ، اذ أن اصابته بمرض الجدري قد أودى بحياته .

أوضاع الدولة العمانية فى عهد سلطان بن الامام أحمد (١٧٩٣ — ١٨٠٤) .

أثبت سلطان ، كما وضع من خلال الأحداث السابقة ، أنه كان ذا شخصية قوية وطموحة . فقد كان الرجل طويل القامة ، قوى البنية اتصف بالجرأة والتبل مثل والده الامام أحمد . وعندما توفى السيد حمد ، أدرك سلطان بن الامام أحمد أن الفرصة أصبحت سانحة له لتحقيق طموحاته فى حكم عمان . فاستغل الفراغ الناشئ من موت سيد حمد وتمكن بمساعدة زعيم التحالف العافرى محمد بن ناصر الجابرى من الاستيلاء على مسقط .

وقد حاول الامام سعيد من جانبه أن يعيد تثبيت سلطته فى الرستاق ، فجمع قواته وأخوته فى تحالف ضد السيد سلطان ، وتحركت القوات من الرستاق وصحار صوب مسقط الا أن القبائل العافرية كانت قادرة على صدما . وترتب عن ذلك عقد صلح فى بركا بين الاخوة المتنازعين وتم الاتفاق خلاله على أن يبقى الامام سعيد فى العاصمة القديمة رستاق كزعيم روحى للدولة وأن يحتفظ قيس بحكمه فى صحار وأن يصبح أخوهما محمد حاكما فى السوق .

أما مسقط التى أصبحت فى هذه الفترة العاصمة الفعلية للدولة فتبقى خاضعة لسيد سلطان الى جانب بركا وأن يتولى السيد سلطان المسؤوليات السياسية للدولة . وبهذا القرار نستطيع أن نقول أن السيد سلطان أصبح

الحاكم الفعلي لعمان • فقد كانت مسقط في هذه الفترة هي المركز التجاري الرئيسي في عمان واليها كانت ترد أيضا الايرادات من كافة الموانئ العمانية في الخارج • كما أنها كانت القاعدة البحرية العسكرية الرئيسية في عمان •

وبرغم أن فترة حكم السيد سلطان تعتبر قصيرة من الناحية التاريخية (عشر سنوات) • الا أن عمان شهدت في عهده أعظم الحوادث السياسية • ففي عهده بلغ الصراع بين الدولتين العظميين بريطانيا وفرنسا في منطقة الخليج أوجه •

ويمكننا تقسيم فترة حكم السيد سلطان القصيرة الى قسمين رئيسيين • الأولى امتدت حتى عام ١٨٠٠ • كان السيد سلطان خلالها يعمل بكل مهمة على توسيع رقعة الامبراطورية العمانية وزيادة نفوذها خصوصا في منطقة الخليج • أما الفترة الباقية من عمره حتى عام ١٨٠٤ م فقد كان عليه أن ينتقل الى سياسة الدفاع عن المكاسب التي تحققت في عهده • ومواجهة التحديات المستجدة • من جانب القوى الاقليمية الأخرى •

ففي مجال توسيع رقعة الامبراطورية العمانية ، كانت أولى الأعمال التي قام بها سيد سلطان ارسال حملة بحرية بقيادة سيف بن علي لاحتلال ميناء جواهر في الجزء الجنوبي الغربي من فارس حيث أقام فيها عدة سنوات لاجئا سياسيا • وقد تمكن القائد العماني الى جانب الاستيلاء على جواهر • من الاستيلاء على قرية شهباز غربي جواهر حوالي ١٠٠ ميل والمطلّة على المحيط الهندي أيضا • وقد أدى نجاحه في تلك الحملة الى قيامه بقيادة حملة أخرى قوية ضد بنى معين في جزيرتي قشم وهرمز على مدخل الخليج • وكانت الحملة مركزة ومنظمة الى درجة أن الجزيرتين سقطتا في أيدي القوات العمانية •

ونظرا الى أن شيخ بنى معين كان قد استأجر ميناء بندر عباس بفرمان من الشاه . فانه ترتب على سقوط حكومة بنى معين أن تمكن السيد سلطان ابن الامام عام ١٧٩٤ م من استصدار فرمان من الشاه استأجر بموجبها ميناء بندر عباس وتوابعها مقابل ايجار سنوى قدره ٦٠٠٠ تومان وحل في ذلك محل شيخ بنى معين .

وأدت هذه الفتوحات العمانية ليس فقط الى توسيع رقعة الامبراطورية العمانية . بل أنها منحت عمان السيطرة الكاملة على جانبى مضيق هرمز وبالتالي السيطرة على التجارة عبر الخليج .

كانت المحطة التالية في مخطط سيد سلطان لتوسيع رقعة الامبراطورية العمانية هي جزر البحرين التي كان يحكمها في تلك الفترة آل خليفة وهم فرع من قبيلة العتوب تمكنوا من اقامة حكم عربى فيها عام ١٧٨٣ م .

وفى عام ١٧٩٩ بعد أن تمكن السيد سلطان من قمع تمرد من جانب قبائل الدروع وبنى نعيم في الظاهرة قاد حملة بحرية ضخمة على رأس خرقاته البحرية جنجاها الى جانب ثلاث سفن ثلاثية الشراع وستين بغلة واتجه بها الى البحرين . وكان لرفض العتوب في البحرين دفع الضريبة البحرية التى كانت تتقاضاها عمان من جميع السفن المتجهة من الهند الى الخليج مبررا كافيا لاعلان الحرب ، حيث أن رفض العتوب سداد تلك الضريبة أثرت على العوائد المالية لعمان .

. واذا أدرك العتوب عدم قدرتهم على مجابهة قوات السيد سلطان ، فانهم استنجدوا بفارس طالبين حمايتهم ومعلنين استعدادهم لدفع جزبة سنوية اليهم . وعندما علم السيد سلطان بذلك . فانه قرر التفاوض مع الفرس ، وفي نفس الوقت عرض على حاكم فارس استعداده لاستئجار جزيرة الخرج مقابل ايجار سنوى مع سداد ايجار السنوات الخمس مقدما . الا أن جهوده

تلك مع الفرس لم تؤد الى أية نتائج • وارتضى في النهاية سحب قواته مقابل قيام العتوب بسداد جزء من الضرائب المتجمعة •

وفي عام ١٨٠١ . أرسل السيد سلطان حملته الثانية الى البحرين بقيادة سيف بن علي الذي سبق وأن نجح في الاستيلاء على جزر قشم وهرمز من بني معين • واستطاع القائد العماني أن يحقق أهدافه ويسيطر على البحرين وقد تلا ذلك تعيين نجل السيد سلطان « سالم » الذي كان يبلغ من العمر ١٢ عاما واليا عليها ، الا أن السيطرة العمانية لم تستمر على البحرين أكثر من بضعة أشهر تمكن بعدها العتوب من استعادة سلطانهم •

ورغم ذلك ، فان جهود سلطان لم تتوقف ضد البحرين ، فقام بإرسال حملة ثالثة عام ١٨٠٢ بقيادة سيف بن علي مرة أخرى ، واستطاعت الحملة احتلال جزء من البحرين التي تمكنت من الصمود هذه المرة نتيجة المساعدات التي تلقتها من السعوديين ، فحاول السيد سلطان اكمال فتوحاته بالتعاون مع الفرس وبعث الشيخ علي على رأس وفد لمقابلة أمير شيراز مع هدايا قيمة وقبل أن تأتيه أية مساعدات قام في يونيو ١٨٠٢ بدعم الحملة بأسطول آخر بقيادته شخصيا وحاول لمدة شهرين متتاليين تحقيق الانتصار ، كما وصلته امدادات من جانب الفرس بقوات قوامها ٢٠٠ فارس و ٢٠٠٠ من المشاة وتمكنت الحملة من تحقيق أهدافها : اذ وافق العتوب على قبول السيادة الاسمية لعمان على الجزر ودفع الضرائب المقررة : كما أدت الى الحاق هزيمة كبيرة في قطع الأسطول البحريني • الا أن السيطرة لم تدم مرة أخرى على البحرين ، اذ تمكن العتوب بالتعاون مع السعوديين من اعادة سيطرتهم على تلك الجزر بعد فترة قصيرة •

ومن الجهود الأخرى التي بذلها السيد سلطان لتوطيد نفوذ عمان في الخليج قيامه بقيادة حملة في ديسمبر من عام ١٧٩٨ نحو البصرة • وكان هدف الحملة اجبار العثمانيين على دفع المستحقات من الضريبة التي تقررت

في عهد والده الامام أحمد مقابل المساعدات العسكرية الى قدمها لذك الحصار
الفارسي عن البصرة • ولكي يضمن نجاح الحملة عقد صلحا مع القواسم
في تلك الفترة •

ولما كانت البصرة خالية من قطع أسطول بحرية قادرة على صد الهجوم
العماني ، فان والي البصرة طلب من المقيم البريطاني السيد مانستي مساعدته
لصد الهجوم ، الا أن الحكومة البريطانية أثرت عدم زج نفسها في الصراعات
المحلية بين دول الخليج • وقد تمكن مستر مانستي أخيرا في التوسط بين
الطرفين والحصول على ترضية مناسبة لسيد سلطان •

وتعتبر جهود السيد سلطان في البحرين آخر جهوده في توسيع رقعة
الامبراطورية العمانية ، إذ أن الحوادث اللاحقة وبخاصة محاولات التوسع
السعودية ، قد أجبرت السيد سلطان الى الانتقال من سياسة الهجوم الى
الدفاع وذلك بهدف حماية عمان ونفوذها في الخليج من العدوان •

علاقات السيد سلطان بالسعوديين :

تعرف العلاقات بين عمان والسعوديين عند غالبية المؤرخين بالعلاقات
العمانية الوهابية • ولتوضيح تلك العلاقات بصورة مفصلة تجدر بنا العودة
الى الوراء لفهم الصلة بين الحركة الوهابية والفتوحات السعودية في أرجاء
الجزيرة العربية •

تعود جذور تلك الحركة الى أحد علماء الدين محمد بن عبد الوهاب
الذي ولد وتفقّه في « العيينة » في أواسط الجزيرة العربية ، وتتلخص دعوته
الدينية في الالتزام التام بمبدأ « التوحيد » ونبذ النذور ونبذ الدعوات الى
المصالحين ، والدعوة الى الله وحده سبحانه وتعالى • كما أنه اعتبر اللجوء
الى غير الله والدعوة الى الأنبياء والصالحين شركا بالله وكفرا ••• وبدأ بنشر
مفاهيم دعوته بين الناس واستجاب لدعوته عدد كبير من الناس •

وحدث التطور الجذري لدعوته عندما بايعه محمد بن سعود أمير الدرعية • وترتب على هذه المبايعة تعهد محمد بن سعود بالعمل على نشر تعاليم محمد بن عبد الوهاب ••• واعتبار محاربة من يقاومها جهادا في سبيل الله ••• وهكذا بدأت الفتوحات من جانب الأمير محمد بن سعود • وبحلول عام ١٧٦٥ م (عام وفاة محمد بن عبد الوهاب) كانت نجد كلها قد أصبحت خاضعة للسعوديين : ونشأت فيما يعرف عند المؤرخين « الدولة السعودية الأولى » •

وقد ساهمت حركة آل سعود في توحيد الجزيرة العربية التي كانت خاضعة اسميا للدولة العثمانية وعمليا للصراعات القبلية • كما أن الموارد المالية المتعددة من الزكاة والعشور على الأراضى والمواشى والبضائع والمخارج على المدن وخمس الغنائم ساهمت في اثراء « بيت المال » التابع للدولة •

وكانت القبائل المحاربة تأخذ أربعة أخماس غنائم الحرب • وكان من الطبيعي أن تجابه الفتوحات السعودية بمواقف عدائية من جانب الدولة العثمانية وأشرف مكة الذين بدأوا يفقدون السيطرة تدريجيا على الجزيرة العربية • وفى عام ١٧٩٥ تمكن السعوديون من اخضاع منطقة الاحساء في شرق الجزيرة العربية تحت الحكم السعودى • ثم بدأت الفتوحات السعودية في ثلاثة اتجاهات : غربا نحو الحجاز والمدن المقدسة : شمالا نحو العراق وجنوبا نحو مناطق في شرق الجزيرة العربية •

وصلت طلائع القوات السعودية في مستهل عام ١٨٠٠ الى منطقة الظفرة بقيادة سالم الحارثى • وكانت تتكون من ٧٠٠ فارس وفى فبراير وصلت تلك القوات الى واحة البريمي • ويبدو أن خلافات بعض القبائل في منطقة المظاهرة مع السيد سلطان قد سهلت عملية وصول القوات السعودية الى البريمي • ومنها وجه القائد السعودى رسالة الى السيد سلطان يطلب منه قبول مبادئ الدعوة الوهابية والسلطة الروحية للأمير عبد العزيز •

وجّه السيد سلطان قوة ضخمة بالتآزر مع أخيه قيس بصحار وتقدمت القوات العمانية عبر وادي الجزي • فآثر القائد السعودي التوجه الى رأس الخيمة لعقد تحالف مع القواسم الذين كانوا في صراع مع سيد سلطان • وتقدمت القوات المشتركة ، الا أن السيد سلطان كان قادرا على صدّها فاضطر القواسم الى عقد صلح مع السيد سلطان • ثم دارت المعركة بين القوات العمانية والسعودية ، وانتهت بعقد صلح وافق السيد سلطان بموجبه على بقاء قائد القوات السعودية في البريمي وذلك للتفرغ لتحقيق طموحاته في السيطرة على البحرين • وقد عادت البريمي بعد ذلك لعمان •

• وبانشغال السيد سلطان في عملياته ضد البحرين ، قام القائد السعودي ببناء تحصيناته العسكرية في البريمي • فقام ببناء القلعة الجديدة : قصر الصبارة الى جنوب قصر الخندق •

ولما كان هذا القائد السعودي شديد الطموح ، مغالياً في الثقة بنفسه ، حاول محاولات شديدة في السيطرة على بعض القبائل القريبة من حدوده توطئة لفرض الزكاة عليهم •

ولدة ثلاث سنوات بقيت تلك الأوضاع قائمة ، ولكن عندما ذهب السيد سلطان في يناير من عام ١٨٠٣ لأداء فريضة الحج وجد في نفس الوقت أن القوات السعودية كانت على مشارف مكة • وبناء على طلب شريف مكة قام بارسال معونة عسكرية ومالية بعد عودته الى مسقط ولكن تلك المعونة وصلت متأخرة علاوة على أنها أثارت غضب الأمير عبد العزيز •

وقد ظهرت الخلافات بين الأمير عبد العزيز وبين السيد سلطان ، وكانت خلافات شديدة جعلت الحرب لا مفر منها بين الطرفين ، فقام القائد السعودي سالم بن الحازق بشن الحرب ، غير أنه في نهاية الأمر تم الصلح بين الطرفين وأن يبقى الطرفان في حالة سلام لثلاث سنوات •

ولكن تلك الاتفاقية لم يكتب لها الاستمرار ، فقام سالم الحازق

بحملة أخرى بعد أن وصلت الامدادات وتوجه بها نحو الباطنة وقام السيد سلطان بمقابلته بقواته في شمال السوق •

وفي هذه اللحظة وصلت الى السيد سلطان والمفائد السعودي أنباء اغتيال الأمير عبد العزيز في الدرعية من قبل رجل شيعي انتقاما لمقتل أولاده أثناء الحملة السعودية على كربلاء وتم اغتيال الأمير السعودي أثناء تأديته فريضة الصلاة • وأدت هذه التطورات الى رفع القائد السعودي حصاره عن صحار والعودة بقواته الى البريمي ؛ كما أجبرت زعيم القواسم شيخ سلطان بن صقر على عقد صلح مع سيد سلطان •

العلاقات الدولية في عهد السيد سلطان :

واجه السيد سلطان أصعب فترات الصراع بين الدولتين العظميين في منطقة الخليج ، كما واجه الضغوط السياسية من قبل الدولتين العظميين ، حيث حاولت كل منهما أن تكسبه الى جانبه • ومن المعلوم أن السيد سلطان كأسلافه حافظ على استمرار العلاقات الودية والتجارية مع الفريقين ، كما أنه لم يسمح لأى من الدولتين العظميين انشاء بعثات سياسية دائمة لهما ، وحال دون حدوث اشتباكات بين الفريقين في المياه الاقليمية لعمان •

ومن نماذج حسن العلاقات الفرنسية العمانية تواجد طبيب فرنسي في خدمة السيد سلطان وتواجد وسيط تجارى هندي لرعاية مصالح الشركة الهندية الشرقية التابعة لبريطانيا ولرعاية أمور البريد التابعة للشركة •

وفي نهاية عام ١٧٩٦ بعث حاكم بومباي جوناثان دانكان بضابط الى مسقط لتقييم حجم النفوذ الفرنسي في مسقط ولعرفة موقف السيد سلطان من بريطانيا • وكان رد السيد سلطان وديا للغاية اذ أكد من خلاله بأنه حريص

على استمرار علاقات المودة القائمة • ولكن التطور الأساسى فى العلاقات جاء عقب نجاح نابليون بونابرت عام ١٧٩٨ فى الاستيلاء على مصر •

وكان اعتقاد المسؤولين البريطانيين فى الهند بأن مسقط ستكون المحطة القادمة ليونابرت فيما اذا فكر فى غزو الهند • فأوفد دنكان مهدي على خان ، المقيم البريطانى فى بوشهر لزيارة مسقط والتباحث مع السيد سلطان عن امكانية ابعاد الفرنسيين وحلفائهم الهولنديين عن مياه مسقط خلال فترة الحرب والسماح لبريطانيا بانشاء مقيمة فى مسقط •

كان العرض البريطانى يشكل مرحلة بالغة الأهمية فى مسار العلاقات الدولية وكان على السيد سلطان : أما رفض العرض البريطانى وقبول النتائج المترتبة وتعرض المصالح العمانية القوية مع الهند للاهتزاز وهو احتمال كان قائما فى ظل ظروف الحرب بين بريطانيا وفرنسا ، أو محاولة استغلال العرض البريطانى لعقد تحالف مع بريطانيا يفرض نوعا من الالتزامات والحقوق المتكافئة •

استمرت المباحثات بين السيد سلطان ومهدى على خان عدة أيام ، ونتج عنها توقيع السيد سلطان فى أكتوبر ١٨٩٨ « القولنامه » التى تضمنت فى المادة الثانية بعد الديباجة بأن عدو أحد الطرفين هو عدو الطرفين وصديق أحد الطرفين هو صديق كليهما • كما تضمنت مواد القولنامه تعهدا من جانب السيد سلطان بمنع الفرنسيين والهولنديين من فتح مقيمة فى مسقط ومساندة بريطانيا ، اذا حصلت معارك داخل المياه الإقليمية فى مسقط • الا أنه رخص التعهد بتقديم أية مساعدة عسكرية لبريطانيا اذا وقعت الحروب فى أعلى البحار •

وفى نفس الوقت اعتذر السيد سلطان عن السماح لبريطانيا بفتح مقيمة لها فى مسقط ، ولكنه سمح بفتح مقيمة لها فى بندر عباس ، الأمر الذى لو

تحقق كان سيكسب عمان اعترافا من احدى الدول العظمى بخضوع بندر عباس لعمان • وطلب السيد سلطان في نفس الوقت تقوية الروابط التجارية وذلك بالسماح للسفن العمانية بالترود بالمياه والأخشاب من ميناء بومباي وكلكتا مجانا أسوة بالخدمات التي تقدم للسفن البريطانية في مسقط ، كما طلب السماح بزيادة صادرات عمان من الملح الى كلكتا من ١٠٠٠ الى ٥ آلاف •

وفي يناير ١٧٩٩ بعث نابليون بونابرت بعد استيلائه على مصر برسالة الى السيد سلطان مصحوبة برسالة أخرى الى تيبو صاحب ، حاكم مانجالور وقد تضمنت رسالة بونابرت الى السيد سلطان ابلاغه بوصول الجيش الفرنسى الى مصر • وتأکید رغبته في استمرار علاقات الصداقة بين البلدين وترحيه لتقديم حمايته للسفن العمانية التي تقدم الى السويس مع رجائه بارسال الرسالة المرفقة الى صاحبها تيبو سلطان • ولكن الذى حصل فان الرسالتين قبل وصولهما الى السيد سلطان وقعا في يدى مندوب شركة الهند اشرقية في مخا وحولتا الى بومباي حيث تم تفسيرها بأن السيد سلطان يحاول التخلص من التزاماته حسب قولنامه ١٧٩٨ •

وبناء عليه قامت السلطات البريطانية بايفاد الكابتن مالكولم لمقابلة السيد سلطان في محاولة للحصول على تأكيد بالتزامه بالقولنامه • وفي نفس الوقت طلب من السيد سلطان قبول تعيين مقيم سياسى بريطانى • وقد أكد السيد سلطان لستر مالكولم أثناء مقابلتهما حرصه على دعم علاقات الصداقة بين البلدين ووقع يوم ١٨ يناير اتفاقية تؤكد نصوص قولنامه عام ١٧٩٨ ، كما وافق على إحلال الجراح بوجل محل الطبيب الفرنسى وأن يكون الدكتور بوجل في نفس الوقت أول مقيم لرعاية المصالح البريطانية في مسقط •

والواقع فان هذه المعاهدة مع بريطانيا لم تلغ العلاقات التجارية القائمة مع فرنسا والتي كان السيد سلطان حريصا عليها • ففي مايو ١٨٠٠

أبلغ السيد سلطان وفدا من بومباي بأنه لا يعتبر أن القولنامه تفرض عليه تحالفا هجوميا ودفاعيا مترمنا ، وأنه في الوقت الذي يمنح الفرنسيين من الإقامة في بلده فإنه يعتبر من حقه استمرار العلاقات التجارية وتزويد السفن الفرنسية التجارية بالمؤن •

وهكذا استمرت السفن التجارية الفرنسية تزور ميناء مسقط • وفي أغسطس ١٨٠٣ قدم وفد فرنسي برئاسة دو كافيناك لمقابلة السيد سلطان طالبا السماح للفرنسيين بتعيين مقيم سياسي فرنسي ، الا أن حاكم عمان اعتذر عن ذلك استنادا لقولنامه عام ١٧٩٨ مؤكدا في نفس الوقت حرصه على استمرار العلاقات التجارية المعتادة ودراسة أى اقتراح من شأنه تقوية تلك العلاقات ، الا أن بريطانيا من جانبها تقاعست عن تقديم أية مساعدة عسكرية للسيد سلطان في حروبه مع السعوديين •

وكان واضحا أن جهود السيد سلطان في الفترة الأخيرة من حكمه كانت مركزة على استمرار بسط السلطة المركزية على أرجاء عمان في مواجهة الفتوحات السعودية والنمو المتعاظم للقواسم • ومن الأفكار التي تطرق اليها هو عقد تحالف مع العثمانيين عن طريق باشا بغداد للقيام بعمليات مشتركة ضد السعوديين •

وفي سبتمبر ١٨٠٤ ، قام بالتحرك صوب البصرة للتأكد من مدى الاستعدادات الفعلية القائمة من جانب العثمانيين ، حيث تأكد له أن الحكومة العثمانية لم تكن جادة • وأثناء عودته بالخليج في نوفمبر من نفس العام انتقل على ظهر قارب منفرد للنزول على جزيرة باسيدور حيث فوجئ بهجوم من جانب بعض سفن القراصنة الذين تمكنوا من اغتياله ثم نقل الى لنجة حيث تم دقنه •

من الواضح من خلال دراسة تاريخ حياة السيد سلطان أنه ترك شؤون

الامبراطورية أقوى مما كانت • فقد وسع من رقعة الامبراطورية العمانية وأصبح العديد من الموانئ في الجانب الفارسي من الخليج تابعة لعمان وعلى وجه الخصوص ميناء قشم وميناء هرمز الاستراتيجيين على مدخل الخليج أضلغة على ميناء بندر عباس ولنجة وشهار وجوادر •

وفي شرق إفريقيا بقيت الأوضاع سائدة كما كانت في عهد والده الامام أحمد •

ومن الناحية العسكرية فإن أسطول السيد سلطان الخاص كان يتكون من السفينة الضخمة جنجاغا ذات ٣٢ مدفعا وطاقمة حملتها ١٠٠٠ طن الى جانب ثلاث سفن أخرى رباعية الشراع ذات عشرين مدفعا كانت تجوب البحار الى الهند ، إفريقيا ، العراق وحتى حدود الصين ، أما القوة العسكرية البحرية فكانت تتكون من ١٦ سفينة حمولة كل منها ٤٠٠ — ٧٠٠ طن و ٥٠ مركبا شراعيا ضخما و ٥٠ مركبا صغيرا •

وكانت التجارة مزدهرة في عهد السيد سلطان حتى أصبحت مسقط أعظم ميناء بمنطقة الخليج ، ومعظم التجارة كانت بأيدي العرب والجزء الآخر بأيدي البانيين من الهند • وقدرت تجارة الخليج في عهد السيد سلطان بحوالي مليون و ٦٠٠ ألف جنيه استرليني كان نصيب مسقط منها خمسة أثمان تلك التجارة • وكانت الجمارك على البضائع في حدود ٦٠ ٪ •

والى جانب ذلك فإن موارد خزانة الدولة كانت تتكون من عثور على المنتوجات الزراعية التي قدرت بمائة ألف روبية سنويا •

والواقع فإن إيرادات السيد سلطان من تجارته الخاصة كانت أيضا تشكل موردا رئيسيا لخزانة الدولة • الى جانب الخراج السنوي من سواحل

شرق افريقيا والموانئ الأخرى على الجزء الفارسي من الخليج والتابعة
لعمان .

أوضاع عمان في عهد بدر بن سيف (١٨٠٥ — ١٨٠٧) :

بموت السيد سلطان بن الامام أحمد في نوفمبر ١٨٠٤ ، ظهرت مرة ثانية
بؤادر صراعات داخلية في عمان . فقد كان أبناء السيد سلطان : سالم وسعيد
صغيرى السن . وبالتالي وجد عمهما قيس حاكم صحار أن الفرصة مناسبة
لقيامه بحركة بهدف الاستيلاء على حكم عمان . وكان السيد سلطان عند
مغادرته عمان في رحلته الأخيرة التي أودت بحياته قد عين محمد بن ناصر
ابن محمد الجابري وصيا على ابنه . فاستغل قيس هذه الأوضاع للقيام
بتمرده . وكان يساعد قيس في حركته أخوه محمد ، وتمكنت قوات قيس من
فرض الحصار حول مسقط .

وبرغم أن محمد بن ناصر عرض على قيس اقتطاعه مدينة الخابورة
وتخصيص ٢٠٠٠ ريال ماريا تيريزى سنويا له من خزانة الدولة الا أن قيس
رفض ذلك العرض . ونتيجة لهذا الاصرار فقد اجتمعت الأسرة وشاركت في
الاجتماع موزة بنت الامام أحمد ، التي كانت تلعب دورا سياسيا بارزا في
هذه الفترة وأقربت طلب المساعدة من بدر بن سيف بن الامام أحمد الذي كان
متواجدا في الدرعية في ذلك الوقت .

وكان بدر ذا شخصية طموحة مثل والده سيف الذي قضى نحبه في شرق
افريقيا . وفي عهد عمه السيد سلطان عام ١٨٠٣ قام بأول محاولة تمرد له
عام ١٨٠٣ مستغلا غياب عمه لأداء فريضة الحج . وعندما فشل في محاولته
تمكن من الهرب واتجه الى نجد حيث اجتمع بالأمير السعودى وتمكن من
توطيد علاقاته معه . وعندما وصلت الدعوة الى بدر من الوصى محمد بن ناصر
فانه سرعان ما توجه الى مسقط .

إن هذه الفترة من تاريخ الجزيرة العربية تميزت بالقتال والخصومات بين الاخوة العرب . وقد كان للاستعمار ووسائله دخل كبير في قيام تلك الحروب التي كانت عمان طرفاً فيها ، وهو الطرف الذي خرج من تلك الحروب ظافراً بسيادته ووحدته ، وبالرغم من كل المصاعب التي واجهته نتيجة تلك الحروب من خسارة في المال والرجال ، فقد استعان بالمصبر حتى بلغ مناه من الاستقرار .

وعندما استتبت الأمور لبدر بن سيف ، فإنه لم يتوان عن توطيد نفوذ عمان في منطقة الخليج . فقام في يونيو ١٨٠٥ بقيادة حملة بحرية ضد بني معين لاسترداد سيطرة عمان على جزيرتي قشم وهرمز وميناء بندر عباس في الخليج : وقد تمكن بنو معين في فترة الاضطرابات بعد موت السيد سلطان من إعادة فرض سيطرتهم على تلك المناطق . ويوم السابع من يونيو قام الأسطول بقصف الحامية الموجودة في بندر عباس وأجبروها على الاستسلام . ثم توجه الأسطول العماني الى جزيرة قشم حيث فرض حصاراً حولها وأجبر بني معين على الاستسلام مرة أخرى .

العلاقات الدولية في عهد بدر بن سيف :

بعد موت السيد سلطان بن الامام أحمد ، أوفدت السلطات البريطانية المقيم البريطاني السابق الكابتن دافيد سيتون الى مسقط بهدف إعادة فتح المقيمة البريطانية . وكانت تعليمات جورج بارلو الحاكم العام لسيتون تتضمن مساعدة أحد ابني سلطان لتولى الحكم مع عدم استعمال أية قوة . ولكن عندما وصل سيتون في مايو ١٨٠٥ الى مسقط وجد السيد بدر يستعد لحملته ضد بني معين — حلفاء القواسم وقد قرر سيتون مواكبة حملة السيد بدر بن سيف في بندر عباس وقشم على ظهر سفينته على أنه لم يقدم أية مساعدة عسكرية .

ومن الناحية الأخرى فإن السيد بدر بن سيف كان حريصا أيضا على استمرار العلاقات الودية مع فرنسا • وقد جاء في رسالته الى ديكان حاكم جزيرة فرنسا في المحيط الهندي ما يؤكد حرصه على استمرار العلاقات الودية بين الدولتين وترحيبه بقدوم السفن الفرنسية الى مسقط للترود بالياه والمؤن •

الدولة العمانية في عهد السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٦ — ١٨٥٦) :

تعتبر فترة حكم السيد سعيد بن سلطان أعظم فترة في تاريخ الامبراطورية من حيث نموها وازدهارها واتساعها • ففي الوقت الذي كان السيد سعيد شخصية طموحة محاربة لا تلتين ولا تتزعزع قدراته من التحديات التي كانت تواجهه : فإن صفاته الشخصية أهلته بأن يكون أعظم شخصية حكمت عمان في القرن التاسع عشر ، وتلك الصفات أيضا مكنته من كسب ولاء العمانيين والرضا التام بحكمه • فقد كان متواضعا لا يفرق بين العام والخاص وكان يجنح الى الشورى في أحكامه مستنيرا برأى الرؤساء والمشايخ •

ومن الناحية العسكرية كان جريئا يقود معظم الحملات بنفسه وكان ديبلوماسيا محنكا استطاع أن يكسب الاعتراف من جانب جميع الدول العظمى ، ووقع معاهدات الصداقة مع الولايات المتحدة الأمريكية ، بريطانيا ، فرنسا ، ألمانيا • ومن الناحية المالية كان تاجرا محنكا استطاع أن ينمى الموارد المالية من التجارة وهو الذي أدخل عدة زراعات جديدة في أجزاء الامبراطورية بشرق افريقيا •••

وفي نهاية عهده كانت تشكل إيرادات الدولة من شرق افريقيا ثلثي إيرادات الخزينة • والواقع فإن الأحداث في عهد السيد سعيد التي امتدت نصف قرن كانت جسيمة الى درجة أن كل عنصر من تلك العناصر تحتاج الى بحث •

توطيد الحكم داخليا في عهد السيد سعيد :

بذل السيد سعيد جهودا مفضية في سبيل توطيد دعائم الحكم في داخل عمان بعد نجاحه في القضاء على بدر بن سيف في بركا عام ١٨٠٧ وبرغم أنه كان صغير السن حوالي ١٦ عاما ، الا انه تمكن خلال فترة قصيرة من تثبيت دعائم الحكم • وباستقرار الأحداث الداخلية في عهده نجد أن عمان تميزت باستثناء الحروب مع السعوديين باستقرار تام • ولم يعكر صفو هذا الاستقرار سوى أحداث الخلافات مع حاكم صحار خصوصا في الفترات التي كان حاكم عمان موجودا خارج عمان •

ما إن تمكن السيد سعيد من تنفيذ اغتيال بدر بن سيف في بركا ، حتى أسرع عائدا الى مسقط • ويبدو أن ثمة كراهية عامة كانت سائدة بين الناس ضد بدر بن سيف ، ولم تحصل أية محاولة تمرد ضد السيد سعيد بل إن قاطبة القبائل أيدته • وبعد وصوله الى مسقط تم الاتفاق بين الأخوين سالم وسعيد على ممارسة الحكم بصفة مشتركة • وكان سالم يكبره بعامين تقريبا الا أن شخصية سعيد كانت أقوى، ومع الوقت أصبح هو الحاكم الفعلي لعمان • كما أن عمه قيس حاكم صحار قد أيد مساعيه ••• ولكن جهود السيد سعيد في تحقيق الوحدة الوطنية الكاملة خصوصا في السنوات العشر الأولى من حكمه تأثرت بالصراعات التي كانت قائمة مع القوات السعودية • وتلك الصراعات لا يمكن فصلها تاريخيا عن الصراعات الداخلية •

علاقات السيد سعيد مع السعوديين :

بمجرد أن تمكن السيد سعيد من اغتيال بدر بن سيف ، فإن علاقاته تدهورت مع السعوديين ، نظرا للعلاقات الوطيدة بين بدر بن سيف والسلطات السعودية • وترقب على نجاحه انسحاب الحامية السعودية التي كانت متواجدة في بركا الى البريمي ، مقر القوات السعودية آنذاك •

وحاول السيد سعيد تأكيد روابط الصداقة مع السعوديين فبعث عام ١٨٠٨ برسالة الى الأمير سعود بن عبد العزيز يؤكد حرصه على استمرار العلاقات الطيبة واستعداده للالتزام بالاتفاقية المعقودة مع عمان .

ولكن أحداث نهاية عام ١٨٠٩ أدت الى تدهور العلاقات من جديد وقيام الحروب بين الطرفين . ففى هذا العام تمكنت بريطانيا من توجيه ضربة قوية الى القواسم فى رأس الخيمة . فنتيجة لعمليات الاعتداء من جانب القواسم على السفن البريطانية قررت بريطانيا توجيه تلك الضربة ضد القواسم وتمكن الأسطول البريطانى فى ١١ نوفمبر ١٨٠٩ من السيطرة على رأس الخيمة وحرقها ، كما تم تدمير جميع السفن التى كانت راسية فى الميناء .

وبرغم أن تلك العمليات البريطانية لم تكن حاسمة ، لأن معظم قطع الأسطول التابع للقواسم كانت فى أعالي البحار ، الا أن السيد سعيد وجد أن الوقت بات مناسباً للقيام بعمليات لتحرير الأراضى العمانية من سيطرة القواسم وبالذات مدينة شناس .

وعندما التقى الكولونيل سميث قائد الحملة البريطانية بحاكم عمان وأخيه السيد سالم بعد انتهاء العمليات ضد رأس الخيمة تشاورا فيما يجب عمله . وعرض حاكم عمان على القائد البريطانى اشتراك قطع من الأسطول البريطانى فى حملة لاسترداد شناس .

وقد أدت العمليات المشتركة الى تمكن القوات العمانية فى السيطرة على شناس ، وكانت هذه الحادثة تشكل أول تعاون بريطانى عمانى عسكري بعد صدور قولنامه عام ١٧٩٨ . ولكن عمليات السيطرة على شناس لم تؤد الى نتائج ايجابية اذ ما إن انسحب الأسطول البريطانى عائدا الى مقر وحداته

في الهند . حتى أسرع القائد السعودي مطلق المطيري . بعد أن تمكن من جمع قوات كبيرة الى اعلان الحرب على السيد سعيد •

ودارت الحرب بين مدء وجزر ؛ وقد حاول السيد سعيد أن يحقق انتصاراً لقواته فبعث برسالة الى حكومة بومباي عام ١٨١٠ لمساعدته في مواجهة القوات السعودية الا أن السلطات البريطانية اعتذرت عن الاستجابة لطلبه مفضلة عدم التدخل في الصراعات الداخلية في الجزيرة العربية •

ويلاحظ في هذا الصدد أن سياسة بريطانيا في هذه الفترة في منطقة الخليج كانت تنحصر في مواجهة أعمال الاعتداءات التي كانت تقوم بها سفن القواسم والذي كان أسطولهم قد وصل الى درجة عالية من القوة ، حيث قدرت عدد سفنهم في هذه الفترة بما مجموعه ٨٧٦ قطعة بحرية منها ٦٣ قطعة كبيرة وقادرة على نقل ١٩ ألف مقاتل • وفي سبيل مجابهة القواسم ، كانت السلطات البريطانية لا تمنع من تقديم معونة عسكرية أو القيام بحملات مشتركة مع القوات العمانية • أما فيما عدا ذلك وبالذات فيما يتعلق بالسعوديين فان سياسة بريطانيا كانت تنحصر في عدم التدخل في تلك الصراعات وخصوصا الحروب البرية •

ونتيجة اعتذار السلطات البريطانية عن تقديم المساعدة لحاكم عمان فانه أوفد أخاه سالما في مهمة الى شيراز في محاولة للحصول على مساعدة فارسية ؛ ونجحت تلك المصاعى ووصلت قوات قوامها ١٥٠٠ مقاتل بقيادة سعدى خان • وتقدمت قوات السيد سعيد بقيادة أخيه سالم يساعده عمه قيس حاكم صحار وقائد القوات الفارسية صوب نخل • واستطاعت تلك القوات في البداية أن تحقق انتصارا على القوات السعودية المتحالفة مع

بعض القبائل العمانية واجبارها على التقهقر الى ازكى • ولكن ما أن تمكن
السعودي مطلق المطيري من جمع القوات وتنظيمها حتى بادر الى هجوم
عكسي ألحق خلاله بعض الخسائر في قوات السيد سعيد والقوات الفارسية
وترتب على ذلك انسحاب فلول القوات الفارسية نهائيا من عمان •

وفي عام ١٨١٣ قام المطلق المطيري بعمليات جديدة في عمان ، ولكن تلك
العمليات كانت سببا في موته • ففي نوفمبر ١٨١٣ تقدم بقوات كبيرة من
الظاهرة نحو الشرقية • وعند وصوله مناطق الحجرين تمكنت جماعة فدائية
من اغتياله واضطرت بقية قواته للانسحاب الى البريمي •

وتعتبر هذه الحادثة وحادثة وفاة الأمير سعود بن عبد العزيز عام ١٨١٤
بداية تحول في مجريات الأحداث • • • مكنت السيد سعيد من تحقيق سيطرته
على أرجاء عمان ثم التفرغ لمجابهة الأحداث في منطقة الخليج وتوسيع رقعة
الامبراطورية العمانية وتوطيد نفوذها •

وقد تصادف في نفس العام أن توفي ابن عمه فزان بن قيس أثناء تأديته
غريضة الحج • وكان فزان قد خلف والده في حكم صحار • وبوفاة فزان بن
قيس خضعت صحار للمرة الأولى السلطة المركزية للسيد سعيد •

وتجدر الإشارة هنا الى أن انتصارات محمد علي والى مصر ضد الأمراء
السعوديين كان لها دور أيضا في تخفيف حدة أحداث الصراعات العمانية
السعودية في تلك الفترة • فقد تمكنت قوات محمد علي من تحقيق انتصارات
متتالية على قوات الأمراء السعوديين ، وتمكنت في أبريل ١٨١٨ م من
الاستيلاء على الدرعية العاصمة وأنهت بذلك ما يعرف بالدولة السعودية
الأولى • ولم تتجدد الصراعات بين عمان والسعوديين الا بعد أن تمكن

الأمراء السعوديون مرة ثانية من انشاء دولتهم التي تعرف « بالدولة السعودية الثانية » .

وكما أسلفنا فقد مكنت هذه الظروف السيد سعيد من تحقيق مزيد من الوحدة الوطنية . وفي عام ١٨٣٠ ، قرر السيد سعيد توجيه حملة ضد بني بوعلی في الشرقية . وكانت قبائل بني بوعلی على خصام مع السيد سعيد لسنوات عديدة ، وكانت متحالفة مع القوات السعودية . وتصادف في نفس الوقت ان كانت السلطات البريطانية راغبة في توجيه ضربة انتقامية لقبائل بني بوعلی بسبب قيامهم باغتيال مترجم من سفينة مركوري البريطانية أثناء تواجده في الأشخرة في فترة سابقة . فاشتركت قوات بريطانية بقيادة الكابتن تومبسون مع قوات السيد سعيد في الحملة التي وصلت في بداية نوفمبر ١٨٣٠ الى بلاد بني بوعلی . وكانت قوة السيد سعيد تتألف من ١٠٠٠ مقاتل . وعندما رفضت قبائل بني بوعلی الاستسلام بدأت العمليات العسكرية ولكنها أدت الى خسائر فظيعة في جانب القوات البريطانية الذين خسروا ٦ من ضباطهم و ٢٧٠ قتيلاً آخرين الى جانب فقدانهم لكل القطع الحربية التي تم انزالها .

وخلقت تلك الخسائر الفادحة حافزاً أقوى لدى السلطات البريطانية في توجيه حملة أخرى ضد بني بوعلی . فقامت بإيفاد حملة بحرية أخرى بقيادة الكولونيل ليونيل سميث في يناير عام ١٨٣١ م . وتمكنت القوات البريطانية من الحاق هزيمة كبيرة في قوات قبائل بني بوعلی والتي حضرها السيد سعيد أيضاً .

وكانت نتيجة تلك الهزائم التي منيت بها قبائل بني بوعلی ان امتدت سيطرة السيد سعيد على تلك الأجزاء من عمان .

وفي فبراير من نفس العام توفي السيد سالم بن سلطان مما مكن

السيد سعيد من الافراد بالسلطة • ويعتقد بأن الامام سعيد بن الامام أحمد أيضا توفي في نفس العام في العاصمة القديمة : الرستاق والذي كان يمارس سلطاته كزعيم روجى هناك •

وقد حفزت الأوضاع المستقرة في عمان بعد اخضاع قبائل بنى بوعلی عام ١٨٢١ م ، الى تفرغ حاكم عمان لتوطيد شؤون الامبراطورية في الخليج وشرق افريقيا • وخلال العقد الثالث من القرن التاسع عشر بذل السيد سعيد جهودا لتوطيد نفوذ عمان في منطقة الخليج • وبعد العقد الرابع حتى وفاته كانت جهود السيد سعيد منصبه على توسيع رقعة الامبراطورية العمانية وتحقيق ازدهارها في شرق افريقيا وكذلك الى توطيد العلاقات الدولية •

ولكن في العقد الرابع توترت من جديد العلاقات مع السعوديين بعد أن تمكن آل سعود من استرداد حكمهم • وفي نهاية عام ١٨٣٢ بعد عودة السيد سعيد من زنجبار من رحلته الثانية برزت المشكلة من جديد مع السعوديين • وقد أثر السيد سعيد نظرا لاهتمامه في تلك الفترة كما أسلفنا ، للتفرغ لشؤون الامبراطورية في شرق افريقيا أن يوطد العلاقات مع السعوديين ، بأن عقد صلحا مع السعوديين • كما أنه اتفق مع السعوديين على التعاون بين البلدين للقضاء على أعدائهما ... وهذا الاتفاق يبدو أنه كان رمزا سياسيا للتفاهم الودى ، اذ لم يترتب عنه تحقيق أى تعاون فعلى غيما بعد • كما أن السلطات البريطانية عبرت عن مخاوفها من مثل هذا الاتفاق •

وهكذا ساد العلاقات بين الدولتين جو من التفاهم • وفي عام ١٨٤٥ . قام القائد السعودى سعد بن مطلق بقيادة هجوم برى من البريمى عبر

الباطنة صوب مسقط • واذ كان السيد سعيد في تلك الفترة موجودا في زنجبار فان ابنه سيد ثويني عرض حل المشكلة وديا بعد رجوعه الى والده • وفي نفس الوقت فان القبائل العمانية كانت تتجمع من أجل توحيد جهودها لمواجهة التطلعات السعودية • ونتج عنها موافقة القائد السعودي حل الخلافات وديا •

وفي عام ١٨٥٣ ، قدم الأمير عبد الله محل الأمير فيصل الى عمان ، وبعد أن تمكن من جمع قوات كبيرة وجه الى السيد ثويني طلبا بتسليم صحار ودفع أتاوة ضخمة • وتحرك السيد ثويني نحو صحار حيث تجمعت القبائل العمانية استعدادا للمعارك ، ومرة أخرى وافق الطرفان على انتهاء النزاع والاتفاق على الصلح •

جهود السيد سعيد في توطيد شؤون الامبراطورية في منطقة الخليج :

ما ان استتب الاستقرار الداخلي حتى بدأ السيد سعيد يوجه جهوده صوب منطقة الخليج • ومن المعلوم أن السيد سعيد ورث عن والده سلطان حكم العديد من الموانئ في منطقة الخليج أهمها جزيرتا قشم وهرمز على مداخل الخليج علاوة على ميناء بندر عباس وتوابعها التي كان السيد سلطان قد تمكن من استئجارها من الحكومة الفارسية مقابل ايجار سنوى •

وفي يوليو من عام ١٨٢٦ ، أوفد السيد سعيد أسطولا قام بمحاصرة ميناء بوشهر • وبناء على رغبة المقيم السياسى البريطانى لم يقيم بقصف المدينة الا أنه تمكن من أسر حاكم بوشهر وابقائه في عمان مدة عام ، وافق بعدها على الافراج عنه مقابل فدية بلغت ٦٠٠٠ ريال وزواجه من أميرة فارسية كانت حفيدة فتح على شاه •

وهكذا بقيت المواليء الفارسية خاضعة لحكم عمان حتى عام ١٨٥٤ ، عندما قامت حكومة فارس من شيراز لاعادة سلطة فارس على ميناء بندر عباس وتوابعها • وتمكنت القوات الفارسية من اجلاء الوالي العماني سيف ابن نيهان عنها • فاضطر السيد سعيد الى العودة من زنجبار لمواجهة تلك التطورات • وبعد عودته قام بارسال قوة بحرية بقيادة نجله السيد ثويني الذي تمكن من اعادة احتلال بندر عباس ، ولكن بعد ورود مزيد من التعزيزات من شيراز تمكنت القوات الفارسية من اجلاء العمانيين • فقام السيد سعيد بفرض حصار حول بندر عباس لعزلها عن العالم الخارجي • واضطرت السلطات الفارسية عام ١٨٥٦ للدخول في مفاوضات ترتب عنها عودة السلطة العمانية على بندر عباس وتوابعها ، على أن يرفع الايجار السنوي الى ١٦٠٠٠ تومانا ، وعدم السماح للسلطات العمانية بالتصرف بالميناء بمنحه لطرف ثالث وأن ينال تعيين الوالي الجديد موافقة السلطات الفارسية •

وكانت البحرين هدفا دائما وثابتا في مخطط السيد سعيد وذلك على نهج والده • ومن المعلوم تاريخيا أن اليعاربة استطاعوا اخضاع البحرين للحكم العماني لفترة زمنية ، كما نجح السيد سلطان والد السيد سعيد من احتلال البحرين لفترات وجيزة ، في مطلع القرن التاسع عشر •

و في عام ١٨١٠ استطاعت السلطات السعودية توحيد البحرين والقطيف و قطر في ادارة واحدة عين عليها عبد الله بن عفيصان وكانت سلطة آل خليفة اسمية في تلك الفترة • فاضطر آل خليفة للهجرة الى الزبارة ومنها طلبوا عون القوات الفارسية وتمكنوا بمساعدتها من اعادة سيطرتهم على البحرين خصوصا وأن القوات السعودية اضطرت في تلك الفترة الى الانسحاب من معظم المناطق لمواجهة تقدم القوات المصرية في نجد •

وقد حاول السيد سعيد أن يتحالف مع السعوديين للاستيلاء على

البحرين على أن يدفع للسعوديين في حالة نجاحه ايجارا سنويا عنها ، الا أن جهوده تلك فشلت • ثم تقدم السيد سعيد بعرض على الحكومة الفارسية للتعاون في اخضاع البحرين على أن يدفع للفرس ايجارا سنويا شيبها بالايجار الذي كان يدفعه عن بندر عباس وتوابعها الا أن هذا العرض لم يجد تجاوبا من الحكومة الفارسية • ولكن في عام ١٨١٦ م وابت الفرصة السيد سعيد للقيام بمحاولة لتحقيق أهدافه في البحرين ، اذ أنه بالتعاون مع رحمه بن جابر الذي اشتهر في تلك الفترة بأنه كان قرصانا جريئا قدم مساعدات قبل ذلك للسعوديين ، قام السيد سعيد بالقيام بهجومه على البحرين ، ولكن المعركة برغم أنها لم تحقق انتصارا ساحقا للسيد سعيد الا أنها أجبرت آل خليفة على الموافقة بدفع أتاوة سنوية لحكومة مسقط •

ويتوقف حكومة البحرين عن سداد تلك الأتاوة ، نشط السيد سعيد مرة أخرى في جهوده للسيطرة على البحرين ، وعرض على السلطات البريطانية عام ١٨١٩ أبان حدوث الحملات العمانية المشتركة ضد القواسم : التعاون لفرض سيطرة عمان على البحرين بهدف تحقيق الاستقرار بمنطقة الخليج ، الا أن الحكومة البريطانية لم توافق على تلك الخطة •

ثم جاءت التطورات السياسية عندما انضمت البحرين رسميا عام ١٨٢٤ لاتفاقية السلم البحرية التي فرضتها بريطانيا على القواسم وبعض الشيوخ عام ١٨٢٠ •

وبانضمام البحرين الى تلك الاتفاقية اكتسبت شبه اعتراف من دولة عظمى بكيانها المستقل • وبرغم تلك الاتفاقية قام السيد سعيد في نوفمبر ١٨٢٨ بحملة بحرية أخرى ضد البحرين ، الا أن تلك الحملة لم تحقق أهدافها •

وفي عام ١٨٣٩ ، نتيجة تقدم القوات المصرية في الجزيرة العربية عرض السيد سعيد على محمد علي قيامه بحملة على البحرين واخضاعها للسلطة العمانية مقابل سداده مبلغا سنويا ثابتا ، الا أن هذا العرض لم يجد طريقه الى التنفيذ •

وفي عام ١٨٤٣ ، جدد السيد سعيد عرضه على السلطات البريطانية للقيام بحملة ضد البحرين مستغلا فترة القلاقل التي كانت سائدة في البحرين • وقام السيد ثويني فعلا بتجهيز الحملة ضد البحرين الا أن السلطات البريطانية نصحته بالتخلي عن المشروع خوفا من ردود الفعل من جانب السعوديين والفرس •

واذ كانت بريطانيا في تلك الفترة تحاول الحد من نشاط القواسم ، وفيما يختص بعلاقات السيد سعيد مع محمد علي ، باشا مصر ، فإن تلك العلاقات كانت ودية في معظم فتراتهما • وفي عام ١٨١١ م عندما بدأت القوات المصرية هجومها في السعودية عرض السيد سعيد على محمد علي عقد تحالف بينهما ، ولكن محمد علي اكتفى في تلك الفترة باستئجار عشرين سفينة من حاكم عمان لدعم قواته البحرية •

واذا كانت بريطانيا في تلك الفترة تحاول الحد من نشاط القواسم ، فإنها دعمت جهود التقارب بين السيد سعيد والقوات المصرية ، اذ بعثت السلطات البريطانية للفتاننت سادلير عام ١٨١٧ م حاملا رسائل الى كل من ابراهيم باشا والسيد سعيد •

وعندما تمكنت القوات المصرية من الاستيلاء على العاصمة الدرعية عام ١٨١٨ ، بادر السيد سعيد بارسال تهنئة الى محمد علي • كما وفد حاجا الى مكة عام ١٨٢٤ ، حيث أرسل محمد علي وفدا لاستقباله والترحيب به •

وحتى عام ١٨٣٩ كانت الدلائل تشير الى حرص السلطات المصرية في الاستمرار في العلاقات الودية . ولكن في هذا العام استلم السيد سعيد رسالة من خالد بن سعود ، الذي كان المصريون قد عينوه حاكما على إقليم نجد بعد تمكنهم من القضاء على حكم الأمير فيصل ، والتي كان خالد يطلب بموجبها من حاكم عمان دفع الأتاوة السنوية التي توقف السيد سعيد عن سدائها بعد تمكن المصريين من القضاء على حكم آل سعود . فان السيد سعيد بادر الى ارسال رسالة احتجاج الى محمد علي ، فقام محمد علي بالكتابة الى خالد بن مسعود يطلب منه تجنب معاملة السيد سعيد بما يؤدي الى الاضطراب في العلاقات وتطبيب خاطره ، كما بعث برسالة اطمئنان الى السيد سعيد .

ولكن تلك الصداقات شهدت فترة توتر عام ١٨٣٩ نتيجة تفكير السلطات المصرية بمد سيطرتها على البريمي والتي بدأت بايفاد سعد بن مطلق لاعادة احتلال البريمي . وترتب عنها قيام السيد سعيد بتحريض القبائل في تلك المنطقة ضد سعد بن مطلق .

والواقع فان مجيء سعد بن مطلق الى البريمي عام ١٨٣٩ م ، جوبه أيضا بمعارضة قوية من جانب السلطات البريطانية اذ بادر هنك إنقيم السياسي البريطاني في الخليج الى ارسال رسالة احتجاج الى خورشيد باشا يطلب فيها الكف عن التدخل في شؤون البحرين وعمان ، مؤكدا في نفس الوقت أن ارسال القواسم الى البريمي دليل على عدم رغبة الاستمرار في العلاقات الودية بين الدولتين .

كما بعث المقيم السياسي البريطاني برسالة الى سلطان بن صقر زعيم القواسم يطلب منه عدم التحالف مع قوات السعد بن مطلق بل العمل على طردها . ولكن تطورات الحرب في سوريا بين القوات المصرية والقوات

البريطانية التركية المشتركة أدت الى اقرار معاهدة التسوية لعام ١٨٤٠ والتي بموجبها تم انسحاب القوات المصرية من الجزيرة العربية نهائيا .

وتشير الوثائق بأن العلاقات المصرية العمانية عادت ودية من جديد . وكانت الهدايا يتم تبادلها بين السيد سعيد ومحمد علي وخلفاءه عباس وسعيد .

وتعتبر جهود السيد سعيد ضد العثمانيين في البصرة آخر مجهوداته في دعم نفوذ عمان في الخليج . ففي نوفمبر ١٨٢٦ قاد أسطولا نحو البصرة مستغلا قيام الاضطرابات من قبل شيخ المنتفق . وكانت مطالب السيد سعيد تتلخص في اجبار متسلم البصرة على دفع المبالغ التي تعهدت سلطات البصرة بسدادها الى جده الامام أحمد أثناء مساهمته في رفع الحصار الفارسي عن البصرة . وقدر السيد سعيد جملة تلك المبالغ بـ ١٠٤ آلاف ريال ماريا تيريزي . ونجح السيد سعيد في حملته بعد أن هزم أسطول البصرة واستطاع أن يأخذ متسلم البصرة أسيرا معه الى مسقط ، وأجبر متسلم البصرة على تقديم تنازلات مرضية .

شؤون الامبراطورية في شرق افريقيا :

يعتبر السيد سعيد أعظم حاكم من أسرة البوسعيدي أدى أجل الخدمات لشؤون شرق افريقيا . وهو يعتبر أول وآخر حاكم عماني اتخذ من شرق أفريقيا في زنجبار عاصمة ثلثية له بعد مسقط .

وبعد العقد الرابع من القرن التاسع عشر ، فان فترات اقامته في زنجبار امتدت للعديد من السنوات الا أن ذلك لم يؤد الى اهماله شؤون عمان ، اذ أنه ما ان كان يتلقى أنباء القلاقل داخل عمان حتى كان يسارع عائدا الى مسقط . وفي عهده نمت وازدهرت شرق افريقيا ووصل نفوذ الامبراطورية هناك أقصى اتساع له .

وكان أكثر ما يقلق السيد سعيد بالنسبة لشرق إفريقيا هو تمكن المزروعين من الانفصال بممباسا ، وتمكنهم من فرض سيطرتهم على عدة مناطق أخرى مثل لامو وبمبا وباتا . ورغم أن السيد سعيد قاد أول حملة له ضد المزروعين عام ١٨٢٩ ، إلا أن سنوات حكمه الأولى وانشغاله في شؤون عمان والخليج لم تحل كلية دون قيامه بمجهودات محددة .

ففي عام ١٨١٢ أرسل أسطولا بقيادة خلف بن ناصر ليكون واليا على لامو ولبناء قلعة هناك ، وفي عام ١٨١٤ تولى حكم ممباسا عبد الله بن أحمد المزروعي الذي يعد أشجع حاكم من أسرة المزروعي ، والذي بدلا من قيامه بارسال الجزية والفراج أرسل بعضا من البارود الى السيد سعيد معبرا عن تحديه له ومجربا في نفس الوقت الأخطار المحرقة به سافر الى بومباي في محاولة لعقد تحالف مع بريطانيا بدون جدوى .

واستغل السيد سعيد بعد ذلك الاضطرابات الناشئة في باتا وأرسل قوة بحرية بقيادة عبد الله بن علي حيث استطاعت تلك القوة تعيين بوانا شيخ كوالى من قبل السيد سعيد ، إلا أن عبد الله بن أحمد تمكن مرة أخرى من إعادة سيطرته على تلك المنطقة . ثم قام السيد سعيد في عام ١٨٢٢ بارسال حملة أخرى بقيادة حامد بن أحمد الذي تمكن من الحصول على اعتراف السيادة العمانية وجمع الأموال السنوية من برلغا وباتا وسيوى ، وحقق هذا العمل والى زنجبار من قبل السيد سعيد للقيام بعمليات قصف ضد بمبا وإعادة إخضاعها للحكم العمانى .

وفي عام ١٨٢٣ مات عبد الله بن أحمد المزروعي وخلفه في الحكم سليمان بن علي . وقد اتخذ السيد سعيد ازاءه اجراءات فرض الحصار الاقتصادي بمنع أهالى عمان من التجارة مع ممباسا . هذا الاجراء الى جانب فقدان السيطرة على بمبا التي كانت ترد منها معظم المنتجات الغذائية الى ممباسا ، أثرت الى حد كبير على الأوضاع الاقتصادية لممباسا . وكتب

سليمان بن علي الى حكومة بومباي يطلب منها منحه حمايتها الا أن السلطات البريطانية رفضت عرضه لأن ذلك يتناقض مع الارتباطات والمواثيق القائمة بين بريطانيا وعمان .

أزمة أوين :

في الثالث من ديسمبر ١٨٢٣ قدمت الى ميناء ممباسا السفن البريطانية باراكوتا بقيادة الكابتن فيدال والبارجة البريطانية ليفين بقيادة الكابتن أوين . وقد حاول حاكم ممباسا سليمان بن علي استغلال تولد تلك السفن فيبعث ابن أخيه على رأس وفد الى الكابتن فيدال طالبا منه السماح له برفع العلم البريطاني على ممباسا ووضع البلدة تحت الحماية البريطانية ، وكان يعتقد أنه بهذا الاجراء يستطيع التخلص نهائيا من الحكم العماني . ولكن الكابتن فيدال اعتذر عن منحه الحماية البريطانية الا أنه وعده بارسال طلباته الى السلطات البريطانية .

ثم غادر فيدال بسفينته ممباسا يوم ٧ ديسمبر . وبرغم اعتذار فيدال قام سليمان بن علي برفع العلم البريطاني على ممباسا ، وذلك بهدف التموهية على الأسطول العماني . وعندما وصل الأسطول العماني بعد عدة أشهر لم يكتثر للعلم البريطاني المرفوع فبادر بقصف المدينة وفرض حصارا حول ممباسا دام شهرين .

وفي يوم ٧ فبراير ١٨٢٤ وصلت الفرقاطة ليفين التي كان يقودها الكابتن أوين ذات ٢٨ مدفعا : وقدم سليمان بن علي التماسا مجددا الى الكابتن أوين لوضع ممباسا تحت الحماية البريطانية . وكان تصرف الكابتن أوين مختلفا اذ وافق على منح ممباسا والشريط الساحلي من ماليندي الى بانجابي الحماية البريطانية . وأجبر الأسطول العماني على رفع الحصار . كما وقع اتفاقية مع سليمان بن علي نصت على تعهد بريطانيا باعادة جميع المدين

التي كانت خاضعة لمباسا وضمان توارث الحكم في أسرة المزروعى وتعيين وكيل بريطاني في ممباسا واقتسام دخل الجمارك بين الطرفين والسماح لرعايا البريطانيين بالتجارة في داخلية البلاد وتمهد من المزروعين بالغناء تجارة الرق بالتعاون مع بريطانيا • كما قام أوين بعد ذلك بالاستيلاء على ممبا واعادتها الى المزروعين •

وقد كان من الطبيعي أن تؤدي تلك الاجراءات الى خلق أزمة للعلاقات بين بريطانيا وعمان • فبعث السيد سعيد برسائل احتجاج الى السلطات البريطانية في بومباي • وكان واضحا أن أوين قد تصرف بمحض ارادته ولم يكن مخولا من السلطات البريطانية • فبعثت حكومة الهند برسالة الى السيد سعيد تعبر عن دهشتها من تصرف أوين وتهديء من روعه •

وفي عام ١٨٢٦ صدرت التعليمات من حكومة الهند بالغناء تلك الاجراءات وانسحاب القائد البريطاني من تلك المنطقة • كما ترك لبمبا وبراهما التصرف في ما يخص مستقبلهما مع السيد سعيد • وبهذا القرار انتهت ما يسمى بأزمة أوين •

جهود السيد سعيد في تحرير ممباسا :

وبانتهاء أزمة أوين بدأ السيد سعيد جهوده في اعادة تحرير ممباسا التي استقلت بشؤونها منذ عام ١٧٣٩ • وبعد صدور القرار البريطاني بعث السيد سعيد برسالة الى سالم المزروعى الذى حل في الحكم محل سليمان بن على عام ١٨٢٦ • وطلب السيد سعيد منه الاستسلام ، الا أن سالم وافق على ارسال زكاة محدودة ولكنه رفض الاستسلام الكامل •

واذ كان السيد سعيد مشغولا في تلك الفترة في شؤون الخليج فإنه ترك الأمور كما هي حتى عام ١٨٢٩ عندما تفرغ من غرض السلطة المركزية على ظفار أيضا أثر مقتل الوالى محمد عقيل في مرباط • فقام السيد سعيد بأول

رحلة الى شرق افريقيا على رأس سفينته ليفربول مع أسطول ضخّم وقوات قوامها ١٢٠٠ مقاتل . ورغم هذه الاستعدادات رفض سالم الاستسلام ، وقام السيد سعيد بعمليات القصف الا أنه منى بخسائر قوية ، فاضطر الى رفع الحصار والتوجه الى زنجبار ، حيث بدأ في انشاء دعائم العاصمة الثانية للامبراطورية .

وفي مايو ١٨٣٠ ، اضطر السيد سعيد للعودة الى مسقط نتيجة الاضطرابات التي سادت بقيام حمود بن عزان حاكم صحار بمحاولة الاستيلاء على مسقط بعد نجاحه في الاستيلاء على الخابورة وشنّاص . والواقع فان السلطات البريطانية قدّمت مساعدات قيمة الى السيد سعيد في غيابه وحالت دون نجاح خطط حمود بن عزان اذ رابطت في سساحل الباطنة قطع حربية بريطانية ووجه المقيم السياسي البريطاني انذارات الى حمود بن عزان .

وبعد عودة السيد سعيد قام بمحاولة لاعادة سلطة الحكومة المركزية على صحار وحاول التحالف من أجل ذلك مع سلطان بن مقر حاكم الشارقة ورشيد بن حميد حاكم عجمان ، ولكن الأخيرين لم يقدموا أية مساعدة فاضطر السيد سعيد إلى عقد صلح مع حمود بن عزان وافق بموجبه على بقاء حمود حاكما على صحار والخابورة ولكن تحت سيادة الحكومة المركزية .

وفي بداية ١٨٣٢ : بدأ السيد سعيد رحلته الثانية الى شرق افريقيا على رأس حملة قوية بهدف اخضاع مباسا . وتكونت قواته من ١٤٠٠ مقاتل وأربع سفن كبيرة و ٦٠ بغلة . وقام بقصف مباسا . واضطر هذه المرة سالم المزروعى للتوجه الى سفينة السيد سعيد للبحث عن شروط صلح مناسبة وتم الصلح ووافق سالم بموجبه على قبول سيادة عمان على مباسا وأن يكون واليا عليها من طرف السيد سعيد وبقاء تلك الولاية في ورثته وتقسيم العائدات الجمركية بين الطرفين .

ثم قام السيد سعيد بزيارة القلعة وبعد اجراء التحصينات أبقى فيها حامية عمانية من البلوش والعرب قوامها ٣٥٠ فردا على رأسهم العقيد سعيد بن خلفان ثم توجه الى زنجبار حيث بدأ في بناء قصره المعروف « متوتى » . كما قام بالاهتمام بشؤون الزراعة وصدرت تعليماته بزراعة محاصيل جديدة مثل القرنفل والأرز . وفي نفس الوقت كلف والى زنجبار بالقيام بحملة لاسترداد مقديشيو ونجح والى في مهمته .

ومرة أخرى حالت الأحداث الداخلية في عمان دون اقامته الطويلة فاضطر للعودة من رحلته الثانية في سبتمبر من نفس العام . وأثناء رحلته الى زنجبار كان قد عين لجنة مكونة من ابنه هلال وسعود بن على والى بركا ومحمد سالم لادارة شؤون الحكم . ولكن سعود بن على قام بعملية أسر هلال بن السيد سعيد ومحمد بن سالم وسجنهما في بركا . وفي نفس الوقت قام حمود بن عزان وهلال بن محمد بمهاجمة الرستاق . وقام سلطان بن صقر بالاستيلاء على خور فكان ودبا . وقادت موزه بنت الامام أحمد المقاومة للحفاظ على مسقط يؤازرها محمد بن ناصر الجابري . وقام المقيم السياسى البريطانى في بوشهر بارسال انذار الى المتمردين . ولدى عودة السيد سعيد عقد صلحا مع سعود بن على حيث تم تعيينه واليا على رستاق وطلب مساعدة بريطانية للقيام بحملة بهدف استرداد خور فكان ودبا . الا أن السلطات البريطانية اعتذرت عن تلك المساعدة .

وفي نوفمبر ١٨٣٣ قام السيد سعيد بقيادة حملته الثالثة ضد المزروعيين في ممباسا . والذي حصل أن السيد سعيد قبل مغادرته زنجبار كان قد كلف ناصر بن سلطان المسكرى القيام بحملة لتحرير ممباسا نهائيا من حكم المزروعيين وبمساعدة الحامية العمانية الموجودة في قلعة ممباسا . فتوجه ناصر الى ممباسا ونزل بالقلعة الا أن سالم المزروعى رفض التجاوب مع طلبه الذى اعتبره مخالفا للاتفاقية المعقودة مع السيد سعيد . فقام

ناصر بقصف المدينة من القلعة : ولكن الأهالي وقوات سالم المزروعى استطاعت أن تفرض حصارا حول القلعة وعزلها ، ودام الحصار سبعة أشهر • وقبل قيام السيد سعيد برحلته الثالثة أوغد حملة بقيادة حامد ابن أحمد على ظهر السفينة العمانية شاء ولكن حامد وصل متأخرا •

وبعد أن عين السيد سعيد ابنه ثوينى هذه المرة نائبا عنه فى عمان وعقد صلحا مع القائد السعودى سعد بن مطلق توجه الى زنجبار فى رحلته الثالثة على ظهر سفينة الرحمانى ترافقها السفينة ليفربول الضخمة ذات ٧٤ مدفعا وبقوة قوامها ١٤٠٠ مقاتل وبعد وصوله الى ممبسا قام سالم المزروعى بقتل قائد الحملة السابقة ناصر بن سلطان المسكرى خوفا من انتقامه فى حالة نجاح السيد سعيد فى حملته •

وازاء هذا التصرف قام أسطول السيد سعيد بعمليات قصف ضد ممبسا والتي دامت ٨ أيام ، الا أنها لم تؤد الى هزيمة كاملة لسالم بن أحمد المزروعى • فتم الاتفاق على صلح وافق سالم بموجبه مرة أخرى على قبول السيادة العمانية • واتفق أيضا على بقاء القلعة خالية من أية حماية تابعة للسيد سعيد مباشرة •

والواقع فان السيد سعيد بذل مجهودات مضية فى تلك الفترة لتوسيع حجم النفوذ العمانى فى شرق افريقيا • واستطاع عن طريق المصاهرة أن يفرض سلطة أسمية لعمان على مدغشقر بعد عام ١٨٢٨ • كما أرسل عدة حملات الى سيوى وباتا واستطاع اخضاعها تحت حكمه • ولكن سلطة عمان على مدغشقر لم تدم طويلا اذ تمكن الفرنسيون من اخضاعها لسلطتهم عام ١٨٣٢ م •

ومرة أخرى أجبرت الأحداث فى عمان السيد سعيد للعودة الى عمان فى

أبريل من عام ١٨٣٥م • وهذه المرة كان بطل القلاقل أيضا حمود بن عزان حاكم صحار الذى استغل حادثة اغتيال سعمود بن على للاستيلاء على الرستاق ثم تقدم لمهاجمة سمائل مستغلا ظروف وفاة واليها محمد بن ناصر الجابري • وقد مكنت هذه الانتصارات حمود من أن يحاول التقدم صوب مسقط • وتدخل المقيم السياسى البريطانى فى يوليو ١٨٣٤ وأنذر حمودا بأن محاولة الاستيلاء على مسقط ستجبر السلطات البريطانية اعتباره عدوا لها •

وبعد عدة أشهر قام حمود بن عزان بالاستيلاء على السوق وتمكن ثوينى بن سعيد من استردادها ، ولكن الأمور لم تحسم الا بعد عودة السيد سعيد الذى قاد حملة على صحار ، ورغم أن الحملة حققت انتصارات محدودة الا أنها أعادت سلطة السيد سعيد على أرجاء عمان ووضعت حدا لعمليات حمود بن عزان •

وقبل قيام السيد سعيد برحلته الرابعة الى شرق افريقيا فى نوفمبر عام ١٨٣٦ ، فإنه حاول أن يضمن عدم قيام حمود بن عزان بأية محاولة أثناء فترة غيابه • فعقد تحالفا مع قائد القوات السعودية سعد بن مطلق فى البريمي للقيام بحملة مشتركة ضد حمود بن عزان ، وقام سعد بن مطلق بمحاصرة صحار برا وأسطول السيد سعيد بحرا • وقد أدت تلك الحركة الى اجبار حمود بن عزان على البحث عن صلح مرض للطرفين • كما بذلت السلطات البريطانية مساعيها الحميدة لعقد صلح بينهما • ووافق حمود بن عزان على عدم القيام بأية عمليات فى غياب السيد سعيد والتنازل عن ادعاءاته فى السوق •

ومكنت هذه الاتفاقات السيد سعيد من القيام برحلته الرابعة الى شرق افريقيا • وفى ممباسا أدى موت سالم بن أحمد المزروعى فى مارس ١٨٣٥ الى حدوث الاضطرابات والقلاقل بين أفراد أسرته والتنافس بين أخويه

خميس وناصر • واستمرت تلك الاضطرابات مدة عام تم الاتفاق بعدها على تولي راشد بن سالم بن أحمد المزروعى الحكم • وفى فترة الاضطرابات بعث أهالى ممباسا الذين ملوا تلك الصراعات الداخلية ، برسائل الى السيد سعيد طالبين منه التدخل •

وغادر السيد سعيد مسقط فى نوفمبر ١٨٣٦ ووصل ممباسا حوالى نهاية ذلك العام • ثم عرض على راشد الاستسلام وبعد رفضه تام السيد سعيد بانزال قواته ومدفعيته على الجزء الشمالى من ممباسا مستفيدا من خبراته السابقة • واستطاع اخضاع معظم ممباسا تحت سيطرته والحصول على ولاء خميس وناصر أعمام راشد • فاضطر راشد ازاء ذلك طلب الصلح ووافق بموجبه على الشروط السابقة بالخضوع للحكم العثمانى واقتسام ايرادات الجمارك والابقاء على حامية عمانية داخل القلعة قوامها ٥٠٠ مقاتل وأن يقيم هو فى المدينة وليس فى القلعة •

وبعدها بفترة قام راشد بزيارة السيد سعيد فى زنجبار والذى عرض عليه التنازل عن ولاية ممباسا مقابل ولاية بمبا ، ولكن راشد رفض العرض وعاد الى ممباسا مكروما • وبعدها بشهرين صمم السيد سعيد بالتخلص نهائيا من أسرة المزروعى بمكيدة • فبعث بابنه خالد الى ممباسا والذى تمكن بعد وصوله الى القلعة من أسر حوالى ٣٠ شخصية من أسرة المزروعى بعد أن دعاهم ليبحث بعض الأمور فى القلعة •

ويانتشار أنباء هذه الاعتقالات غر بقية أفراد المزروعى الى المناطق الداخلية •

وهكذا زال حكم المزروعيين من ممباسا والذى دام أكثر من قرن من الزمن • كما أن مجموع الشخصيات التى تم اعتقالها نقلت الى زنجبار ومنها الى بقدر عباس وتم التخلص منهم •

وقد مكنت سيطرة السيد سعيد على ممباسا الى تحقيق الاستقرار في شرق افريقيا ومكنته من اقامة طويلة دامت حتى سبتمبر ١٨٣٩ عندما اضطر للعودة ازاء التطورات التي حصلت بقيام خورشيد باشا بارسال سعد بن مطلق لاعادة احتلال البريمي ولكن بانسحاب القوات المصرية عام ١٨٤٠ من الجزيرة العربية قرر السيد سعيد في ١٨٤١ القيام برحلته الخامسة الى زنجبار •

تميزت فترة اقامته الخامسة في زنجبار باستقرار تام في شؤون شرق افريقيا مما مكنته من الاهتمام بشؤون تطوير زنجبار وتقوية دورها لتصبح أهم ميناء في شرق افريقيا تزورها سفن جميع دول العالم • وأثناء اقامته التي امتدت حتى عام ١٨٥١ م ، كانت جهوده العسكرية منصبة على إخضاع سيوى تحت سيطرته والتي بعث اليها بقوات قوامها ٢٠٠٠ مقاتل في مارس ١٨٤٤ بقيادة حمود بن أحمد السمار •

وأثناء اقامته الطويلة التي دامت ما يقارب عقدا من الزمن ، شهدت عمان بعض الاضطرابات الداخلية الا أن تلك الاضطرابات كانت محدودة وكان السيد ثويني بن سعيد قادرا على مواجهتها • وتمثلت تلك الاضطرابات في محاولات هلال أكبر أبناء السيد سعيد للحصول على مركز سلطة في عمان •

ويبدو أن الخلافات بين السيد سعيد وابنه هلال كانت قوية الى درجة أنه عين ابنه ثويني حاكما على عمان في غيابه بدلا من هلال • فقام هلال في سبتمبر ١٨٤٥ بزيارة الى انجلترا ليعرض على الحكومة البريطانية شكواه • وأدى تصرفه هذا الى خلق مزيد من الكراهية بين الوالد والابن • فقام السيد سعيد في نوفمبر عام ١٨٤٩ بنفي هلال من زنجبار فغادرها هلال الى لامو بعض الوقت ثم الى عدن وبقى هلال في المنفى ومع تدهور صحته قضى نحبه يوم ٢٨/٩/١٨٥١ م •

والجزء الآخر من الاضطرابات تمثل مرة أخرى في جهود حاكم صحار حمود بن غزان • وكما أسلفنا فإن حمود وافق بموجب صلح عام ١٨٣٩ على عدم القيام بأية أعمال تحريضية ضد السيد سعيد • ولكن طموحاته كانت قوية ، وقبل قيامه بأي تحرك سافر الى بومباي لاستطلاع وجهة نظر السلطات البريطانية ولم يلق أى تأييد من جانب تلك السلطات ، ونتيجة لليأس الذى دب فى نفسه فانه أثر التخلي عن حكم صحار وتنازل عن الحكم لابنه سيف ، وتحول الى شبه ناسك فى الرستاق •

واتبع سيف بن حمود سياسة مخالفة لسياسة والده فوثق علاقاته مع السيد ثوينى • الا أن تلك المواقف الى جانب خلافات سيف مع المطاوعة خلقت خلافات حادة مع والده الذى قرر العودة الى المسرح السياسى •

وتمكن أحد المطاوعة من اغتيال سيف وعاد حمود حاكما على صحار عام ١٨٤٩ م • ويعودته برزت المشاكل مجددا بينه وبين السيد ثوينى • واستطاع السيد ثوينى هذه المرة من اعتقاله وزجه فى سجن الجلانى حيث قضى نجه فى أبريل ١٨٥٠ • ومن الجدير بالذكر أن السلطات البريطانية كانت قد عقدت اتفاقية مستقلة مع سيف بن حمود عام ١٨٤٩ لمنع تجارة الرق فى صحار •

ولكن اعتقال حمود ثم موته لم تنه المشاكل المستعصية مع صحار اذ سرعان ما نجح قيس بن غزان بالتعاون مع القواسم من أن يرث حكم أخيه فى صحار والخابورة وشنصاص • ولكن لدى عودة السيد سعيد من رحلته الخامسة فى مايو ١٨٥١ ، بادر الى شن هجوم ضد قيس وتمكن من استرداد الخابورة أولا ثم شنصاص • وازاء تلك التطورات وافق قيس ، نتيجة انسحاب حلفائه القواسم على التنازل عن صحار والاقامة فى الرستاق مقابل ٢٠٠ ريال ماريا تيريزى يتسلهما شهريا • وهكذا خضعت صحار للمرة الثانية للحكم المركزى للسيد سعيد وساد الاستقرار أنحاء عمان حتى تاريخ وفاته •

العلاقات الدولية في عهد السيد سعيد

العلاقات مع بريطانيا :

اتسمت العلاقات العمانية في عهد السيد سعيد بطابع الود بشكل عام ، ولو أن تلك العلاقات توترت في فترة ما بين ١٨٢٤ — ١٨٢٦ ، نتيجة أزمة أوبين كما أسلفنا . وكانت العلاقات في المرحلة الأولى تصدوها مبادئ قولنامه ١٧٩٨ التي نصت على اعتبار عدو أى من الطرفين عدوا للطرف الآخر .

وكان السيد سعيد يعتقد منذ البداية أنه من واجب السلطات البريطانية مساعدته في حروبه ضد كافة أعدائه . فلم يكن يدخر جهدا لطلب المساعدة البريطانية في حروبه ضد القواسم أو السعوديين ، بل أنه طالب بريطانيا بالتحالف معه للاستيلاء على البحرين كما أسلفنا .

ويلاحظ في هذا الصدد أن السلطات البريطانية كانت دقيقة في تحديد مواقفها من تلك الصراعات ، فكانت تقدم المساعدات العسكرية لأطراف تكون هي في صراع معها مثل القواسم أبان حملات عام ١٨٠٩ و ١٨٢١ ، ثم توقفت عن تقديم تلك المساعدات ضد القواسم بعد إبرام معاهدات السلم البحرية . كما قدمت مساعدة سياسية إبان احتلال سعد بن مطلق للبريمي مرة أخرى عام ١٨٣٩ بإيعاز من السلطات المصرية لأنها كانت في حرب مع المصريين . كما أنها قامت بتوجيه الانذارات لمنافسى السيد سعيد عندما كان المنافسون يهددون العاصمة مسقط كما حصل أثناء حملات حمود بن عزان عام ١٨٣٤ وغيرها . إلا أن السلطات البريطانية كانت حريصة على عدم زج نفسها في الصراعات الداخلية بين دول الخليج فتقاعست عن تقديم أية مساعدة لحاكم عمان في حروبه ضد السعوديين ، كما لم تقدم له أية مساعدة

من أجل تحرير بعض المناطق التي تمكن القواسم من السيطرة عليها في الأجزاء الشمالية الشرقية من عمان •

ومع مرور الوقت ثبت للطرفين أن مبادئ قولنامة عام ١٧٩٨ في الوقت التي أدت الى التعاون بين البلدين إلا أنها لم تكن تفرض التزامات مترتبة تحول دون توثيق علاقات عمان بالدول الأخرى • وكان أكثر ما يهم بريطانيا خصوصا في فترات الحروب عدم حدوث تقارب بين عمان ودولة أخرى قد يؤدي بالأضرار بمصالحها الحيوية في الخليج الذي اعتبرته السلطات البريطانية مفتاح ضمان السيطرة على الهند •

وبمرور الوقت فإن تلك العلاقات أخذت تتجه الى مزيد من طابع التعاون في الميادين الاقتصادية والتجارية والعسكرية أحيانا إلا أنها تميزت باحترام استقلال عمان وحققها في عقد اتفاقيات مستقلة مع الدول العظمى في العالم • بل اننا نجد أن عمان عقدت أول معاهدة صداقة مع الولايات المتحدة عام ١٨٣٣ وليس مع بريطانيا • بل أن المعاهدة مع أمريكا كانت أساسا للمعاهدة التي عقدت مع بريطانيا عام ١٨٣٩ ومع فرنسا عام ١٨٤٤ م •

وقد نصت معاهدة الصداقة بين البلدين عام ١٨٣٩ على حرية التجارة وتحديد الجمارك بـ ٥ ٪ وتمتع الدولتين ازاء الدولة الأخرى بمعاملة الأكثر رعاية وامتناع أية دولة عن نقل المعدات الحربية الى دولة معادية أثناء الحرب وتخويل القنصل البريطاني حق القضاء في المعاملات المتعلقة بالرعايا البريطانيين أو المتعلقة بقضية يكون طرف فيها بريطانيا •

وبشكل عام كانت العلاقات ودية للغاية وكانت الهدايا يتم مبادلتها ، وكانت الوفود تقوم بالزيارات لتقديم التهاني • بل أن السيد سعيد لم يجد حرجا في اهداء بريطانيا أكبر قطعة حربية : السفينة ليفربول عندما وجد أنه بإمكانه الاستغناء عنها وتوفير تكاليف صيانتها الباهظة وبالمقابل أهدته بريطانيا يختا تجاريا •

العلاقات مع فرنسا :

كان السيد سعيد حريصا منذ بداية توليه الحكم على استمرار علاقات الصداقة مع فرنسا وفي مستهل حكمه بعث برسالة الى الجنرال ديكان حاكم جزيرة فرنسا التي كانت مقرا للقوات الفرنسية في الشرق معبرا عن رغبته في استمرار تلك العلاقات الودية . الا أن حرصه هذا لم يطل دون التزامه بإبعاد عمان عن الصراعات بين الدولتين العظميين ، والتزامه أيضا بنصوص قولنامة ١٧٩٨ ، فأرغم سفينة فرنسية حربية على الخروج من مياه مسقط مما أدى الى توتر العلاقات لفترة وجيزة ، ولكنه عاود الاتصال بالجنرال ديكان عارضا عليه عقد معاهدة صداقة بين البلدين وغلا تم ذلك في ١٥ يونيو ١٨٠٧ والتي نصت على عودة العلاقات الودية بين البلدين واحترام حياد عمان بالنسبة للصراع الدائر بين فرنسا وبريطانيا الا أن الحكومة الفرنسية لم تصادق على تلك المعاهدة نظرا لأن فرنسا كانت ترغب في تحقيق حصارها البحري على السفن البريطانية ومنع السفن البريطانية من زيارة مسقط .

وبرغم ذلك عمل الجنرال ديكان على استمرار العلاقات التجارية الودية وأوفد مبعوثا عام ١٨٠٨ ليعمل على توطيد تلك العلاقات ، ولكن انتصار بريطانيا على الفرنسيين في بحار الشرق عام ١٨١٠ وتسليم الفرنسيين لجزيرة فرنسا مقر قيادتهم الى البريطانيين أدى الى زوال التواجد الفرنسي من بحار الشرق .

وبطول عام ١٨١٤ تمكنت فرنسا من استعادة جزيرة البوربون وعملت على إعادة العلاقات الودية مع عمان وترتب عليها توقيع معاهدة في ٣٠ مارس ١٨١٧ والتي بقيت سارية المفعول حتى عام ١٨٤٤ عندما تم استبدالها

بمعاهدة جديدة • ولكن بعد تلك المعاهدة عاد التوتر من جديد بين البلدين في أواخر العقد الرابع من القرن التاسع عشر عندما تبينت للسيد سعيد أطماع الفرنسيين في شرق إفريقيا •

ويعود سبب التوتر الى قيام الفرنسيين باحتلال جزيرة نوسينية بيه والتي كان السيد سعيد يؤكد خضوعها له استنادا على اتفاق مع ملكة تلك الجزيرة التي أعلنت ولائها له • وعندما تسلم السيد سعيد رسالة من حاكم جزيرة بوربون يعلن رغبته في تعيين قنصل فرنسي في زنجبار أسوة بالأمريكيين فانه اعتذر قبول تعيينه حتى يتم الانتهاء من توقيع المعاهدة الجديدة •

وفي ٤ نوفمبر ١٨٤٤ ، تم التوقيع على المعاهدة التجارية الجديدة مع فرنسا ، والتي كانت مشابهة للمعاهدة المعقودة مع الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٣٣ ومع بريطانيا ١٨٣٩ • وقد استعرض السيد سعيد قبل توقيع المعاهدة وجهة نظر السلطات البريطانية في عقد معاهدة مع فرنسا • وكانت وجهة نظر اللورد ابردين عدم رغبة بريطانيا في التدخل في أمر المعاهدات ، الا أنه أكد حرص بريطانيا بعدم منح الفرنسيين امتيازات تفوق الامتيازات الممنوحة لادنجلترا •

وقامت فرنسا بعد توقيع الاتفاقية بارسال بعثة بقيادة الكابتن جويان الذي قام خلال الفترة ١٨٤٦ - ١٨٤٧ بعمل مسح فني حول بعض المناطق الساحلية لشرق إفريقيا • وكان من ضمن أهداف المسح تحديد موقع مناسب في شرق إفريقيا مقابل الموقع الاستراتيجي للبريطانيين في عدن • كما حاول الكابتن جويان اقناع أهالي لامو وبرافا ببيع أراضيهم للحكومة الفرنسية •

الا أن السيد سعيد الذى كان على علم بجهود الفرنسيين ، استطاع مواجهتها واحتوائها •

وبشكل عام فقد ساهمت اتفاقية عام ١٨٤٤ على نمو وازدهار العلاقات التجارية بين البلدين • وتبع ذلك تأسيس قنصلية فرنسية في زنجبار عام ١٨٤٧ م • وكانت السفن الفرنسية وهى تحمل البضائع تجوب موانئ عمان • كما وفدت إحدى سفن السيد سعيد الى مرسيليا عام ١٨٤٩ حاملة هدايا الى رئيس الجمهورية الفرنسية •

العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية :

تعتبر معاهدة الصداقة والتجارة التى وقعت بين السيد سعيد والولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٣٣ تطورا مهما ليس فى مجرى العلاقات بين البلدين ، بل أيضا فى نقل عمان الى مصاف الدول التى كانت تلقى الاحترام من جانب القوى العظمى • وهذه المعاهدة هى التى فتحت الطريق أمام بريطانيا وفرنسا لعقد معاهدات مماثلة •

ومن الأسباب الرئيسية التى أدت الى عقد معاهدة مع الولايات المتحدة بعض الصعوبات التى كان يلقاها التجار الأمريكيون فى زنجبار ، فأبدى السيد سعيد ملاحظاته بأنه يمكن التغلب على تلك الصعوبات بعقد معاهدة تجارية دائمة • وكان عدد التجار الأمريكيين فى تلك الفترة فى زنجبار يفوق عدد التجار الانجليز باستثناء الهنود الذين كانوا أيضا من رعايا انجلترا •

ويذكر لين أن دخل السيد سعيد من التجارة مع الأمريكيين كان يشكل جزءا أساسيا من دخل الجمارك • وتولى نقل المراسلات بين السيد سعيد والحكومة الأمريكية التاجر الأمريكى ادموند روبرتس ، وحصل روبرتس على تفويض لتوقيع تلك المعاهدة بالنيابة عن الرئيس الأمريكى اندرو جاكسون ،

وكانت تنص على قيام العلاقات الودية بين البلدين وتعيين قناصل أمريكيين وتفويض القنصل الأمريكي حق القضاء في النزاعات بين الأمريكيين وتصفية ممتلكاتهم بعد وفاتهم ، وأعطت للسيد سعيد حق الشكوى الى رئيس الولايات المتحدة في حالة تصرف أى قنصل بشكل غير لائق •

وأعقب توقيع تلك المعاهدة عرض من السيد سعيد بقيام الولايات المتحدة بمساعدته في إعادة سيطرته على ممباسا ، وهو المهدف الرئيسى الذى ركز جهوده حوله في تلك الفترة • ورغم أن هذا العرض لم يلق أى تجاوب من جانب الولايات المتحدة ، الا أنه كان كافيا لاثارة شكوك السلطات البريطانية التى قررت ايفاد الكابتن هارت عام ١٨٣٤ لمراقبة التطورات • وقد طمأنه السيد سعيد على حسن نواياه وأبدى استعداداه لعقد معاهدة مماثلة مع بريطانيا ، الأمر الذى من شأنه النهوض بتجارتهما مع زنجبار لأن معظم التجارة في تلك الفترة كانت بأيدي الأمريكيين •

وتبع توقيع المعاهدة مع أمريكا تعيين ريتشارد واترز أول قنصل للولايات المتحدة في زنجبار في مارس ١٨٣٧ وتبع ذلك تعيين هنرى ب مارشال قنصلا في مسقط في أكتوبر ١٨٣٨ • وعندما غادر مارشال مسقط بعد ذلك بعدة أشهر تم تكليف أحد العمانيين وهو سعيد بن خلفان الذى كان يعمل مترجما في القنصلية ليدبر الشؤون القنصلية في مسقط تحت اشراف واترز في زنجبار • ونتج عن نمو وازدهار تلك العلاقات التجارية أن بعث السيد سعيد على ظهر سفينته سلطنة وفدا برئاسة أحمد بن نعمان الى نيويورك لتوطيد العلاقات السياسية ولتقديم هدايا الى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وذلك عام ١٨٤٠ م •

وفاة السيد سعيد وأوضاع الامبراطورية بعد وفاته :

بعد أن أنهى السيد سعيد خلافاته مع الفرس عام ١٨٥٦ استعد للقيام برحلته الأخيرة الى زنجبار • فغادر مسقط على ظهر بارجته فيكتوريا يوم ١٥ من سبتمبر عام ١٨٥٦ ، وقبل وصوله الى زنجبار وافقه المنية في البحر يوم ١٩ أكتوبر ١٨٥٦ م •

وترك السيد سعيد بعد وفاته امبراطورية واسعة الأرجاء • فعلى سعيد اتساع الامبراطورية فانه بالإضافة الى حدود عمان السياسية في تلك الفترة فان معظم الموانئ الاستراتيجية على الجانب الفارسي من الخليج مثل بندر عباس وتوابعها كانت خاضعة للحكم العماني بعقد ايجار من حكومة فارس • وكلمة توابع بندر عباس كانت تنطبق على الساحل من جنوب بندر عباس حتى مدينة جاسك امتدادا الى نهر سوديج وكانت أهم تلك المدن المؤجرة جزيرتي هرمز وقشم ومنطقة تازيان وشامل وميناب • وفي شرق افريقيا بلغ نفوذ عمان أقصى اتساعه ، وكان يشمل جميع الموانئ الواقعة بين رأس دلجادو ورأس جردفون وأهم الجزر زنجبار العاصمة الثانية وبمبا ومايا الى جانب عشرات المدن الساحلية من مقديشيو شمالا حتى مصب نهر روفوما جنوبا •

وبرغم عدم توفر احصاءات دقيقة عن مجموع قطع السفن الحربية الا أن اللفتانتنت هارت أحصى في زنجبار عام ١٨٣٤ السفينة الحربية الضخمة ليفرمول ذات ٧٤ مدفعا وقرقاطة ذات ٥٠ مدفعا وطرادا به ٢٠ مدفعا وسفينة شراعية ذات ثلاث صواري بـ ١٠ مدافع وسفينة شراعية ذات صاريين كلها بنيت في الهند • الى جانب السفينة مصطفى التي كانت مشغولة في حصار حول ممباسا •

وفي مسقط أحصى أحد الزائرين في نفس العام خمس سفن ذات ٣٠

مدفعا وستة أخرى احداها ذات ٢٤ مدفعا وأخرى ذات ٢٢ مدفعا ومنها اثنتان بكل منهما ١٨ مدفعا واثنتان بكل منهما ١٢ مدفعا • وإلى جانب ذلك كان السيد سعيد يملك سفينتين تجاريتين •

وكانت كل تلك السفن تؤدي مهام عسكرية وقت الحروب ومهام تجارية وقت السلم • ومن الواضح أن هذه الاحصاءات ليست دقيقة فهي فقط تمثل السفن المتواجدة في مسقط وزنجبار أثناء زيارة هؤلاء الأشخاص • وفي مجال الموارد المالية تشير احصاءات عام ١٨٣٤ بأن إيراداته من جمارك مسقط بلغت بين ١٦٥ ألف الى ٢٠٠ ألف ريال ماريّا تيريزى وهذا يعنى جملة واردات قدرها ٣٣ مليون ريال • وبالتالي تعتبر مسقط أهم ميناء بعد جدة في الجزيرة العربية •

وقد رت جمارك زنجبار بـ ١٥٠ ألف ريال ولكن تلك الأرقام متواضعة جدا اذا أخذنا في الاعتبار الازدهار الذى أصاب زنجبار بعد عام ١٨٣٤ نتيجة اهتمامات السيد سعيد بادخال منتجات زراعية جديدة في زنجبار مثل القرنفل والسكر والأرز • كما أن تلك الاحصاءات لا تشمل الإيرادات من تجارة السيد سعيد شخصيا ومن العوائد المالية من مختلف الموانئ في الخليج وشرق إفريقيا الى جانب العصور على المنتجات الزراعية •

الفصل الرابع

حالة الامبراطورية العمانية بعد وفاة السيد سعيد بن سلطان

ضعف الامبراطورية العمانية :

أدت وفاة السيد سعيد بن سلطان الى حدوث صدمة نفسية كبيرة في نفوس أبناء عمان قاطبة ، اهتزت لها تلال عمان حسب وصف المؤرخ العمانى ابن رزيق . وكانت صدمتها أقوى على كيان الامبراطورية العمانية التي دب في بنائها التفكك التدريجى نتيجة سلسلة من الأحداث السياسية والاقتصادية المتلاحقة .

فعلى الجانب السياسى ، تولى السيد ثوينى بن سعيد أكبر أبناء السيد سعيد حكم عمان نظرا لأن أخويه الأكبرين هلال وخالد توفيا قبل وفاة والدهما . وكان السيد ثوينى مضطعا بشؤون عمان ، محاربا جريئا قاد حملة الحصار ضد بندر عباس بنفسه ، كما تمكن من تخليص والده من منافس قوى وهو حمود بن عزان حاكم صحار . وفى زنجبار كان ماجد بن سعيد يقوم بمهام والده أثناء فترة غيابه بعد وفاة أخيه خالد عام ١٨٥٤ م .

أولى المشاكل التى اعترضت السيد ثوينى بعد توليه حكم عمان ، نقص الموارد المالية، حيث كانت زنجبار أغنى من مسقط وكانت الإيرادات من زنجبار تشكل ثلثى إيرادات الدولة أيام السيد سعيد ، فأجرى السيد ثوينى اتصالاته مع أخيه ماجد وتم الاتفاق بأن يقدم ماجد معونة سنوية للسيد ثوينى مقدارها ٤ ألف ريال ماريا تيريزى ، وكان هذا الترتيب ، كما وضح فيما بعد ، ترتيبا وديا بين الأخوين ، لم يكن السيد ثوينى يقصد بها اعترافا باستقلال زنجبار عن عمان أو تفكيك أوضاع الامبراطورية . وكان على السيد ثوينى مقابل ذلك أن يقدم لماجد نصف عدد الضيول العمانية سنويا .

وفي عام ١٨٥٨ م توقف ماجد عن سداد التزاماته ورغم أنه بعث بوغد لاستلام نصف كمية الخيول المتفق عليها • ووجد السيد ثويني أن أفضل أسلوب لمواجهة تحديات أخيه هو قيامه بحملة حربية ضده • فقام في نهاية عام ١٨٥٨ م • بتجهيز تلك الحملة والتي تكونت من الفرقاطة كارولين والمطراد كرليو والسفينة الرحمانى وحوالى ١٢ بغلة وقوة قوامها ٢٥٠٠ مقاتل •

وعندما وصلت أنباء تلك الحملة الى مسامع السلطات البريطانية ، سارعت الى ايفاد بعثة الى السيد ثويني والتي تمكنت من اللحاق به وهو لا يزال في صور في طريقه الى زنجبار • وقام الكولونيل رسل بتسليم رسالة الى السيد ثويني من حاكم بومباي تطلب منه ايقاف الحملة مع وعد من السلطات البريطانية بأن يتولى الحاكم العام في الهند الفصل في تلك المشكلة • وتجاوب السيد ثويني مع الاقتراح البريطانى نظرا لعلاقات الصداقة الوطيدة التي كانت قائمة بين البلدين ، ووعد بإرسال سفينته لاستدعاء القطع الحربية من أسطوله التي سبقته الى زنجبار •

تقسيم الدولة العمانية الى سلطنتين :

في الأول من مارس ١٨٦٠ م ، عين الفينستون ، حاكم بومباي ، اليريبادير كوجلان ، المقيم السياسى في عدن على رأس بعثة لتقصى الحقائق حول النزاع بين الأخوين ثويني وماجد • وكان يساعد كوجلان القس بيرسى بادجر الذى كان له دور مهم في استقصاء الجوانب التاريخية للأزمة • وباشرت اللجنة عملها في مسقط يوم ١٢ يونيو ١٨٦٠ م حيث قضى كوجلان تسعة أيام مع السيد ثويني في مناقشة حول الأزمة •

ومن الوجهة التاريخية أثبت كوجلان عدم صحة ادعاءات السيد ماجد والتي كانت معززة من قبل ريجبى ، المقيم السياسى البريطانى في زنجبار ،

وكانت وجهة نظر ثويني تتمثل أنه بصفته الحاكم الشرعي على عمان فهو أيضا الحاكم الشرعي على توابع عمان •

كما أكد السيد ثويني بأن والده لم يفكر قط في تقسيم الامبراطورية الى قسمين ، وأن الرغبة التي أبدأها والده عام ١٨٤٤ م بجعل ابنه خالد حاكما على زنجبار وثويني حاكما على عمان لم تكن أكثر من رغبة في تحقيق استقرار اداري ويعنى بها تعيينهما محافظين أو ولاية كما جرت العادة في عمان • كما أن السيد سعيد قد جعل للدولة خزانة مركزية واحدة •

وقد ساند كوجلان وجهات نظر السيد ثويني في تقريره الى حكومة بومباي ، فمن الناحية التاريخية كما أوضح زميله بادجر ، فان مبايعة مشايخ القبائل الرئيسية لأي حاكم هو الذي كان يقرر مستقبل الحاكم ، وبالتالي فان وجهة نظر السيد ثويني بعدم امكان تقسيم الدولة من قبل أى حاكم كانت سليمة ، كما أن حكام عمان مارسوا حق تعيين أى من أبنائهم كمحافظين أو ولاية على أى جزء من البلاد ولم يكن مثل ذلك للتعيين دليلا على تقسيم البلاد الى وحدات مستقلة • وفيما يتعلق بالمعونة التي اتفق الاخوان عليها فان السيد ثويني أكد لرئيس البعثة البريطانية بأن تلك المعونة قد تم الاتفاق عليها بشكل ودي ، وأن الوفد العماني الذي تفاوض مع السيد ماجد لم يخلو صلاحية الاتفاق على شروط معينة مقابل تلك المعونة مثل تقسيم الدولة أو غيرها •

سافر كوجلان الى زنجبار في سبتمبر ١٨٦٠ م • لمقابلة السيد ماجد من أجل استكمال أعمال اللجنة • وبعد مناقشات دارت مع السيد ماجد لم يغير كوجلان وجهة نظره في المسائل الأساسية • فبالنسبة لادعاءات ماجد بأن والده كان ينوي تقسيم الدولة بين أبنائه كتركة ، أكد كوجلان أن تلك الادعاءات ليست لها أسس تبررها ، وأن السيد ماجد اعترف بأن إعادة تقسيم الدولة الى وحدات مستقلة لم توجد حقا في التاريخ المعاصر •

أما بالنسبة لحجة ماجد بأن تعيينه جاء باختيار من أفراد أسرة البوسعيد والمشايخ الآخرين في زنجبار ، فإن كوجلان بنفسه رد بأن القبائل في عمان هي التي كانت تملك حق المبايعة والتعيين من الناحية التاريخية وأن أهالي زنجبار لم يمارسوا مثل ذلك الحق لأنهم كانوا بمثابة رعايا لحكومة عمان •

وأما حجة ماجد بأنه تم الاعتراف به كحاكم من قبل الدول العظمى وبالذات من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا ، فإن كوجلان أوضح بأن تشكيل لجنة تقصى الحقائق من قبل الحاكم العام في الهند وحتى ظهور نتائج وتوصيات اللجنة وقرار الحاكم العام يسقط حجة الامتثال لمواقف الدول الأخرى •

تلك كانت وجهات نظر كوجلان من الناحية التاريخية ، الا انه من الناحية السياسية فإن توصياته جاءت ليس لاحقاق الحق بل فيما يمكن أن يخدم وجهة نظره الاستقرار في المنطقة ومصالح بريطانيا على المدى البعيد • وبناء عليه فإنه أوصى بأن استقلال كل من الحاكمين سيؤدي الى تحقيق استقرار مثالي مع مراعاة فوارق الدخل بين الحاكمين ، كما أن استقلال زنجبار سيؤدي حتما الى أداء خدمة جليلة للحد من المنازعات • وبناء عليه قدم كوجلان ست توصيات :

- ١ — تثبيت السيد ماجد حاكما في زنجبار وتوابعها •
- ٢ — عدم السماح لسقوط القبائل العمانية التدخل في شؤون زنجبار •
- ٣ — أن يدفع ماجد الى ثويني معونة سنوية مقدارها ٤٠ ألف ريال تيريزي وسداد المتأخرات من تلك المعونة منذ عام ١٨٥٨ م •
- ٤ — أن تكون تلك المعونة بشكل دائم وأن تدفع من قبل ورثة ماجد الى ورثة ثويني مستقبلا •

٥ — ألا تتوقف تلك المعونة ألا في حالة قيام حاكم مسقط بمحاولة الاستيلاء على زنجبار بالقوة العسكرية •

٦ — في حالة حدوث مثل تلك المحاولة أو في حالة فشل حاكم زنجبار دفع المعونة فعلى الطرف المتضرر تقديم شكوى الى حكومة الهند قبل اللجوء الى القوة •

أقر جورج كلارك ، حاكم بومباي الجديد توصيات كوجلان وتم ارسالها الى تشارلز جون كاننج ، نائب الملك والحاكم العام في الهند في فبراير ١٨٦١ م • وفي الثاني من أبريل ١٨٦١ م • أصدر الحاكم العام تحكيمه : ماجد يصبح حاكما على زنجبار وتوابعها وعليه دفع معونة سنوية مقدارها ٤ ألف ريال ماريا تيريزى الى حاكم مسقط بالاضافة الى متأخرات المعونة عن السنتين الماضيتين •

ثم بعث كاننج برسالتين متشابهتين الى كل من السيد ثوينى والسيد ماجد توضحان بأن تلك المعونة تصبح لازمة في ورثة الحاكمين وهى تمثل حلا نهائيا بهدف تعويض الفوارق المالية من دخل كل منهما • وجاءت الخطوة الأخيرة في اقرار تحكيم كاننج من باريس يوم العاشر من مارس ١٨٦٢ م • عندما صدر البيان المشترك البريطانى والفرنسى الذى تضمن تعهد الدولتين باحترام استقلال كل من سلطنة مسقط وزنجبار •

كانت نتائج التقسيم وخيمة على مستقبل عمان • فمن الناحية العسكرية انشطر الأسطول العماني الى قسمين • فالسفن التى كانت موجودة في زنجبار وتلك التى رافقت السيد سعيد في رحلته الأخيرة آلت الى السيد ماجد ، بينما آلت السفن التى كانت موجودة في مسقط الى السيد ثوينى وكان عددها أقل •

ومن الناحية الاقتصادية فان نتائج هذا القرار كانت رهيبة جدا على

الاقتصاد العماني . فزنجبار وتوابعها قدرت إيراداتها عام ١٨٤٤ م بأكثر من ٤٠٠ ألف ريال ماريا تيريزي ، وكانت تمثل ثلثي دخل الخزينة بينما التزم ماجد بسداد معونة قدرها ٤٠ ألف ريال فقط .

وبالنسبة لاستمرارية المعونة فإن حاكم زنجبار استمر في سدادها حتى عام ١٨٧٣ م ، ثم وافقت بريطانيا بعدها على اعفاء حاكم زنجبار من تلك المعونة مقابل تعهد كامل بمساعدته لمنع تجارة الرقيق والتزمت السلطات البريطانية بسداد المعونة من خزائنها . ومنذ عام ١٨٨٨ م . كانت تلك المعونة تدفع من قبل السلطات البريطانية الحاكمة في الهند والتي استمرت في سدادها حتى عام ١٩٤٧ عندما استقلت الهند عن بريطانيا .

التدهور الاقتصادي في عمان بعد وفاة السيد سعيد :

إذا كان تقسيم الامبراطورية الى قسمين يعتبر من الناحية السياسية والاقتصادية العامل الرئيسي الذي أدى الى اضمحلال الامبراطورية وتدهور مكانة عمان التي عرفت بأنها « الدولة البحرية الأولى » في تلك الفترة ، فإن ثمة عوامل أخرى سياسية واقتصادية خارجية وداخلية ساهمت بدورها في احداث مزيد من التدهور الاقتصادي والتراجع الحضارى الى درجة أن أحد التقارير أشار في عام ١٨٦٨ م بأن مسقط أصبحت مدينة شبه مهجورة .

ففى الجانب السياسى فإن الأوضاع والصراعات الداخلية التى حدثت بعد وفاة السيد سعيد فى عمان خلال فترة لا تزيد عن ١٢ عاما ، أدت الى تولي ثلاث شخصيات حكم عمان . فالسيد ثويني واجه فى البداية منافسة شديدة من قبل أخيه تركي والتي أدت الى استنزاف جزء كبير من موارد الدولة . ثم جاءت المنافسة من نجله سالم الذى تمكن عام ١٨٦٦ م . ولكن حكم سالم لم يدم أكثر من عامين تمكن بعدها الامام عزان بن قيس الاستيلاء على الحكم . وكانت نتائج هذه الحروب الداخلية

كبيرة على الاقتصاد العماني وساهمت في تحقيق مزيد من التدهور
الاقتصادى التدريجى •

وفي الجانب الاقتصادى واجهت عمان منافسة حضارية بالحلل سفن
بخارية أوربية محل السفن التقليدية والتي لم تستطع التكنولوجيا العمانية
مجاراتها فأدى الى ركود اقتصادى تجارى تدريجى •

ومن المعلوم تاريخيا أن الاقتصاد العماني كان موزعا بين نشاط زراعى
في الأجزاء الداخلية من عمان ونشاط زراعى وتجارى في المناطق الساحلية •
وكان النشاط الزراعى في عمان الداخلية نشاطا استهلاكيا معيشيا ، يحاول
تحقيق الاكتفاء الذاتى ، وباستثناء الليمون المجفف واليسور ، فان النشاط
الزراعى لم يكن يلعب دورا يذكر في قيمة الصادرات ، كما أن الحواجز
الطبيعية مثل الجبال والمصارى والوديان ووسائل النقل البدائية (استعمال
الجمال) ، كانت تحول دون قيام الزراعة بدور في حركة التجارة وانعاش
خزينة الدولة • وبالتالي فان الموارد الأساسية كانت تأتي من أنشطة الموانئ
التجارية في عمان والخليج وشرق افريقيا والتي كانت تتمثل في الاستثمارات
النقدية والملاحة والأعمال التجارية والتجارة الخارجية • والتي كانت في
مجموعها تدر دخلا ثابتا من الجمارك لخزينة الدولة ولكن الذى حصل فان
عمان واجهت في النصف الثانى من القرن التاسع عشر مجموعة تحديات أدت
الى تقويض الدور التجارى والملاحى التاريخى لعمان •

تدهور النشاط التجارى والملاحى :

كانت صناعة السفن في عمان تمثل دعامة من دعائم الاقتصاد الوطنى
في المنطقة عبر آلاف السنين • وكان الملاحون العمانيون في العصور الوسطى
رواد الرحلات البحرية الى بلاد الصين • وكانت التكنولوجيا البحرية العمانية
في تلك العصور تضم خبرة تعد في طليعة الخبرات في مجال بناء السفن ،

وبالذات في مجال بناء السفن متوسطة الحجم • ولكن بظهور السفن الأوروبية الضخمة ذات الصواري الأربعة أو الثلاثة والمزودة بعشرات المدافع منذ القرن السابع عشر ، ظهرت الحاجة الى تملك العمانيين أيضا لمثل تلك السفن لمواجهة التحديات العالمية ، فلجأ حكام عمان الى أحواض بناء السفن في الهند لئلا حاجتهم من مثل تلك السفن بأعداد محدودة الا أن الجزء الأكبر من قطع الأسطول كانت من السفن المتوسطة الحجم والتي كانت أحواض السفن العمانية قادرة على توفيرها ، كما أن ورش صب الحديد كانت قادرة على تزويد أسطول الدولة بالمدافع •

وبحلول الستينات من القرن التاسع عشر ظهرت السفن البخارية الأوروبية على مسرح الملاحة في الخليج وبدأت تقوم بدور فعال في عمليات النقل التجاري • ولم يستطع العمانيون مواجهة هذا التحدي الضخم الذي كان يفوق قدراتهم ، خصوصا وأن تلك السفن كانت تقوم بعمليات النقل التجاري بأسعار أرخص من السفن الشراعية •

وترتب على هذا الوضع توجه التجار الى السفن البخارية لنقل بضائعهم تجنباً للتكاليف المرتفعة في السفن الشراعية • وأدى هذا الوضع بدوره الى توقف السفن العمانية تدريجيا عن أداء دورها التجاري في مجال النقل البحري ، واضطر العديد من أصحاب السفن الى بيع سفنهم لمواجهة تكاليف المعيشة أو للتخلص من تكاليف الصيانة والبطالة •

وهكذا انتقلت الأرباح الى الشركات الأوروبية بدلا من الملاحين العمانيين والخليجيين • وكما أسلفنا فإنه بانفصال زنجبار فقد الأسطول العماني المدولة أكثر من نصف قطعه والتي كانت تلعب دورا في عمليات النقل التجاري لحاكم الدولة • وفي الستينات اضطر حكام عمان الى بيع عدد آخر من قطع الأسطول •

كان عدد السفن الكبيرة التي كان العمانيون يملكونها عام ١٨٧١ م

حوالى ١٦ سفينة . وكان الاحتفاظ بها أمرا عسيرا لحاجتها المستمرة للصيانة الباهظة التكاليف الى جانب المناهضة القوية من السفن البخارية فاضطر العمانيون للتخلص من هذا النوع من السفن فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

وبمجيء السفن البخارية وقلة الحاجة الى السفن الشراعية الضخمة فان صناعة السفن فى عمان تأثرت بدورها الى حد كبير . كما قلّت العناية بالسفن الضخمة ، ويقرر ولستيد أنه فى عام ١٨٣٨ شاهد سفينة عمانية الصنع لا تقل حمولتها عن ٤٠٠ طن ، أما السفن التى كانت تبنى فى عمان فى أواخر القرن التاسع عشر فلم تكن تزيد حمولتها عن ١٠٠ الى ٢٠٠ طن .

الاستخطاماتُ الحربية في مَسَقَط

للأستاذة الدكتورّة سعاد ماهر

من المعروف مدى أهمية عمان في العالم القديم والوسيط وكذلك الحديث ، وذلك بسبب موقعها الاستراتيجي وتضاريسها وموقعها الجغرافي فهي حلقة الوصل بين الخليج والمحيط الهندي . أما أهميتها من الناحية الاقتصادية فهي المرفأ الذي أوصل تجارة الشرق الأقصى الى دول الشرق الأوسط ومنها الى أوروبا عبر البحر المتوسط دائماً والبحر الأحمر أحياناً . ومن ثم فهي في حاجة ماسة الى استحكامات حربية تحميها شر غوائل المجهول في البحر والبر معاً .

ولقد أوردت النشرة الرسمية في كتاب :

Gazetteer, (Persian Gulf 'Oman) Vol. II.

أسماء العماثر الحربية التي ما تزال موجودة بمسكن وموانئ سلطنة عمان ، فبلغ عددها أكثر من (٥٠٠) عمارة ، معظمها أسوار مدن من اللبن ومبان من الحجر للمجاري المائية المعروفة بالأفلاج ثم الابراج والقلاع والمناظر والحصون .

ولقد رددت المراجع التاريخية القديمة منها والمحدث أسماء متعددة على استحكامات عمان الحربية دون تفرقة بينها سواء من الناحية اللغوية والمعمارية أو الاستحكامات الحربية ، فكثيراً ما نجد المرجع يطلق على عمارة بعينها مرة اسم (قلعة) ثم يعود في فقرة ثانية فيسميها (حصناً) وفي ثالثة يطلق عليها اسم (برج) . وقد حذت المراجع الأجنبية حذر المصادر العربية فأطلقت على معظم العماثر الحربية لفظ Fort أو Fortress ويندر أن تذكر كلمة Citadel على القلعة أو Curtain wall على الأسوار . لذلك فقد رأينا من الضروري أن نوضح في كلمات الفرق بين

هذه المسميات جميعها من الناحية المعمارية • والحربية على أقل تقدير .

الحصن :

هو أكبر عمائر الاستحكامات الحربية وان لم يكن أمنعها ، وهو كل بناء يحيط بمساحة من الأرض ليحميها ويحصنها ضد أى اعتداء من داخل البلاد أو خارجها • ومن ثم فإن أسوار المدن كانت تعرف فى العصور الوسطى باسم الحصون ، مثال ذلك سور مدينة بغداد والقيروان وفاس والمهديّة وقرطبة والقاهرة وصنعاء وزبيد وغيرها • كما يوجد بسلطنة عمان الكثير من أسوار المدن المحصنة مثل سور مدينة بهلة (Bahlah) وسور مدينة (بنى بوحسن) وسور قرية الحزم ، وأسوار مسقط ومدينة (إبرا) (Ibra) وكذلك أسوار (ظفار) و (صلاله) و (طاقة) و (مرباط) وغيرها كثير •

على أن المبانى التى تحصن المدن أو القرى أو الأحياء ، لابد وأن تتميز عن الأسوار العادية باحتوائها على أجزاء معمارية خاصة القصد منها الحماية والتحصين والمراقبة تعرف باسم الأبراج والمساقطات والمراقب : التى يجب أن يتواجد فيها باستمرار حماية من العسكر والجند ورجال الدرك •

هذا وليس ما يمنع أن يكون ساكنو الحصن كلهم من العسكر والجند ، بل كثيراً ما يوجد بداخله عدد كبير من المدنيين الذين يقومون بالخدمات العامة أو بالمزراعة وخاصة فى داخل أسوار المدن •

وقد تطور استخدام الحصون فى العصور الوسطى وحتى بداية العصر الحديث تبعاً لتطور النظم الاجتماعية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت ونعنى بها النظم الإقطاعية • فلم يعد الحصن معقلاً فحسب بل أضفى

المقر الطبيعي لاقامة الأمير أو الملك أو السلطان ^(١) وأتباعه • فكان الطابق الأول من مباني الحصن يصوى الإبار ومخازن الأسلحة والعدد الحربية الثقيلة انلازمة بمقاومة حصار طويل • أما الطابق العلوى فقد خصص لرمى السهام والمواد السائلة وغيرها من القذائف على العدو المهاجم ، فى حين يستخدم الطابق الأوسط للأمير وأعوانه وأسرتة ^(٢) •

وقد ظلت معظم حصون سلطنة عمان تستخدم كذلك مقرأ للأئمة والسلاطين حتى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين •

لقد كان الحصن هو مركز الحكم التقليدى فى عمان مهما كانت قيمة الحاكم من القوة أو الضعف • وكان يحيط بهذا المقر أو الحصن الأسوار الضخمة بأبراجها العظيمة ومناقصها وبواباتها العالية التى تكتنفها الأبراج من جانبيها والتى تقوم على حراستها قوة من العسكر ببنادقهم وأسلحتهم وأعلامهم ، ودخل تلك الأسوار يفيم الأهالى •

ولما كانت الغاية من اقامة تلك الحصون بعمان هو التحكم فى المنطقة التى تشرف عليها ؛ لذلك فقد اختير لها فى معظم الأحيان وخاصة الساحلية منها ، مواقع استراتيجية هامة • خفى دائما أبداً مقابمة على للمخور والجبال أو فى بقعة ممتازة اذا كانت فى وادٍ أو سهل •

والى وقت ليس ببعيد كانت أهم حصون عمان كتلك التى فى الرستاق وصحار والحزم والدريز وبهلا ونزوى وجيرين وبركة الموز ونخل والميرانى والجالالى بمسقط وغيرها مما شهدت الحروب العمانية التقليدية التى خاضها

Evans : La Civilisation en France au Moyen Age. P. 48 (١)

Stephenson : Medieval Feudalism. P. 70. (٢)

أبناء الأجيال السابقة لعدة قرون مضت مستعملين الأسلحة التقليدية كالمخاض والنار الاغريقية وشظايا حجر الصوان وغيرها من أسلحة العصور الوسطى .

القلعة :

هى استحكام حربى يبنى فى منطقة استراتيجية كالجبل أو التل أو الروابى الصخرية أو على سواحل البحار . ومهمة هذه المباني مقصورة على المراقبة والدفاع ضد الاعتداء الخارجى ، ومن ثم غيى بالضرورة لابد وأن تتكون من مجموعة من الأبراج والمراقب والمزاغل (فتحات رمى السهام) وما الى ذلك من المباني الحربية .

كما تمتاز القلعة بأن ساكنيها من العسكر والجند ، ولا مجال لاقامة المدنيين بها . وعلى ذلك نستطيع القول بأن الحصن قد يشتمل على قلعة أو أكثر ضمن مبانيه ، أما القلعة فهى وحدة معمارية قائمة بذاتها ، وقد تكون منفصلة عن الحصن أو بداخله شريطة أن يكون الموقع المقامة عليه موقعا استراتيجيا كما أسلفنا القول . ومن أهم الأمثلة لذلك تلك الصورة التى رسمها (Carsten Niebuhr) لقلعة قريات فى القرن (١٨) م .

البرج :

البرج عبارة عن بناء حربى مربع أو مستدير الشكل يبرز عن سمت الجدار والأسوار وتحتوى الأبراج على مساقط (Machicoullis) ومراقب (Glacis) ومزاغل لرمى السهام . وتزود أسوار الحصون والقلاع بعدد من الأبراج ، ومن ثم فإن حجمها يكون عادة صغيراً لتعدددها . وقد يحدث أن تكتفى بعض القرى أو الموانى الصغيرة باقامة برج للمراقبة والدفاع الجدى ، وفى هذه الحالة فإن البرج يكون كبيراً حتى يتسع لاقامة حامية كبيرة يمكنها صد هجمات الأعداء أو على الأقل تعطيل تقدمهم حتى تستعد القلاع والحصون القريبة منها .

بعد هذا التعريف الموجز للعمائر التي استعملت في الاستحكامات الحربية ، والتي استخدمتها عمان جميعها في الدفاع عن نفسها وممتلكاتها عبر العصور ، نجد أن الطبيعة قد حبستها باستحكام حربي طبيعي بالإضافة الى العمائر السالف ذكرها ، ألا وهي الأفلاج ، ومن أشهرها (حصن بيت الفلج) الذي يعتمد أساساً في تحصينه على مياه الأفلاج التي تأتي من الجبال المجاورة •

ونعل مما ساعد على كثرة وجود الاستحكامات الحربية من حصون وقلاع وأبراج وأسوار بعمان عبر العصور ، هو نظام الأفلاج الذي عرفته عمان منذ أقدم العصور والذي ترجمه الأساطير الى عهد النبي داود عليه السلام والنبي سليمان عليه السلام الذي قيل انه أمر الجن ببناء عشرة آلاف مجرى للمياه في عشرة أيام ، ومنذ ذلك العهد لم تجف أبداً •

ولعل أحسن الأمثلة لنظام الأفلاج في عمان ما يوجد في منطقة (الظاهرة) والبريمي التي ما يزال يطلق على الأفلاج بها اسم (داوودي) نسبة الى نبي الله داود عليه السلام .

ولما كان هذا أمر الافلاج بالنسبة للاستحكامات الحربية بعمان فقد يكون من المفيد أن نذكر في ايجاز شيئاً عن ما هيتها قبل أن نتناولها بالبحث كاستحكام حربي •

تكاد تحتفظ عمان بتسعين في المائة مما يسقط عليها من الأمطار في أنواع من المجارى المائية أهمها ، الأبيار والأفلاج التي تنقسم بدورها الى قسمين الأول ويعرف باسم غال (Jhayl) وهو اسم غير معروف في عمان ، والثاني ويسمى كوانت (Qanat) •

وإذا ما درسنا عمارة الدور والقصور في عمان منذ أقدم العصور وحتى مطلع القرن العشرين ، لتبين لنا أنها كانت عمائر استحكامية على درجة كبيرة من الأهمية ، ومن ثم وجب اضافتها الى العمائر الاستحكامية بالسلطنة .

ومن المعلوم أن الغالبية العظمى من العمانيين ليسوا من ساكني الصحراء الرحل ، ولكنهم سكان مدن وقرى سكنوها منذ أقدم العصور . فما يزال هناك الكثير من الدور والقصور الآهلة بساكنيها حتى الآن والتي يرجع تاريخ بنائها الى عدة قرون مضت . وهذه الدور لا تقل من الناحية المعمارية والزخرفية عن مباني عمان الحديثة ، فان زخارفها الجصية ومشربياتها الخشبية ، وأهم من ذلك تخطيطها المعماري الذي روعي فيه ملامحة البيئة المحلية ، ليشهد بما كانت عليه عمان من تقدم حضاري ومعماري . فقد تعددت الطرز المعمارية في عمان تبعا لتعدد البيئة المناخية بها وكذا تبعا لموقعها الجغرافي وللتضاريس . فطراز عمائر السواحل مثلا يختلف عن طراز السهول والوديان ، وطراز الصحراء يختلف عن طراز عمائر الجبال وهكذا .

كذلك اختلفت طرز العمائر طبقا لاختلاف الحالة الاجتماعية وذلك مصداقا للمثل المأثور في عمان ، الذي يقول : الغنى يسكن القصور وعند بوابته يوجد العور (يعني الفقراء) . وهذا المثل ينطبق تماما على ساكني المدن والقرى العمانية في الماضي ، ذلك أن مركز المدينة والقرية يشغله دائما الحصن أو القلعة ، حيث يقيم السلطان أو الحاكم أو والي أو الشيخ ، وحوله يسكن أهلها .

وقد أعطتنا الدور التي ماتزال باقية حتى الآن في أحياء مسقط القديمة والتي يرجع بعضها الى القرن السادس عشر فكرة واضحة عن تخطيط المنازل والدور في عمان عامة . فقد كان المنزل يتكون من فناء مكشوف تحيط به

غالباً المبانى من جهاته الأربع ويمكن الوصول اليه عن طريق مدخل رئيسى (بوابة كبيرة) كثير العمق يعلوه عقد حلقه سقف مقبب ينتهى الى قلبه من الدرجات على الجانب الأيمن من المدخل . مما يضطر الداخل أن يمر فى زاوية قائمة يكون فيه صدره مجاوراً لحائط السلم الذى عمد المعمار الى فتح شقوق (مزاغل Arrow-slits) به لرمى السهام .

وهكذا نرى أن المعمار القديم قد استخدم فى مداخل البيوت والقصور نفس النظام الذى اتبعه فى مداخل الحصون والقلاع ، وهو المدخل المنحنى أو ذو الزاوية والذى عرف فى العمارة الإسلامية باسم المدخل المتكسر (Bent-Entrance) الذى يجبر القوة الداخلة من عسكر الأعداء الى الانحناء جهة اليمين معرضة الجانب الأيمن من صدرها ، وهو الذى يكون عادة خالياً من الدروع للإصابة بالسهام التى تخرج من المزاغل الموجودة فى ذلك الجدار .



ولما كان عدد عمائر عمان الحربية يربو على الخمسمائة كما أسلفنا القول ، ما بين أسوار وحصون وقلاع وأبراج وأفلاج ودور وقصور قديمة ، لذلك فقد رأينا أن نقصر الحديث على تلك التى ماتزال بحالة جيدة ، أو بحالة تسمح بدراستها . واتماماً للفائدة فقد رأينا أن نتناول بالبحث والدراسة استحكامات كل اقليم من أقاليم سلطنة عمان البالغ عددها تسعة اقاليم على حده .

١ - منطقة مسقط :

(انظر لوحة رقم (١) ، (٢))

مسقط هى عاصمة سلطنة عمان ومقر اقامة السلطان . وتتبع منطقة

مسقط على الساحل الجنوبي لخليج عمان على بعد أقل من ثلث المسافة الممتدة من رأس الحد في الجنوب ورأس مسندم التي تقع عند مدخل الخليج العربي (انظر شكل (٢)) .

أسوار مسقط :

(انظر شكل رقم (٤)) (Curtain-Walls)

كان يحيط بمدينة مسقط منذ العصور الوسطى على أقل تقدير أسوار وكتل كبيرة من الصخور الطبيعية ، التي كانت تقوم مقام السور ، وكان سمكها يبلغ مئتي أو ثلاثة أمثال سمك السور المبنى . الا أن تلك الأسوار القديمة قد تهدمت بمرور الزمن ، فأعيد بناؤها على ما هي عليه الآن فيما بين عامي (١٦٢٣ م / ١٠٣٣ هـ) وعام (١٦٢٦ م / ١٠٣٦ هـ) .

وتعتبر أسوار مدينة مسقط الخط الدفاعي الأول بالنسبة لتحصين وحماية المدينة ، ومن ثم فقد أطلقت عليه مصادر العصور الوسطى اسم الحصن ، فقد كانت تحيط بمسقط التي يبلغ طولها من الشرق الى الغرب قرابة نصف ميل ، وعرضها أى بعدها عن البحر قرابة ربع ميل ، احاطة السوار بالمعصم ، اللهم الا الجانب الشرقي حيث تحمي المدينة جبال شديدة الانحدار ، يفصلها عن جبال (الجلالى) فتحة تعرف باسم (مَغَب) .

وهكذا نرى أن أسوار مسقط تحيط بالجانب الغربى والجنوبى منها فقط ، أما الجانب الشمالى والشرقى فيحيطهما خليج مسقط والجبال الشرقية . ويبلغ طول ضلع الأسوار الغربية قرابة (٦٠٠) متر ، يبدأ في الشمال عند (باب المئاعيب) وينتهى عند (الباب الكبير) في نهاية الضلع الغربى من الأسوار ، حيث يبدأ ضلعاً صغيراً يقطع زاوية التقاء الضلعين الغربى والجنوبى ويبلغ طوله (٢٠٠) متر وينتهى عند (باب الكبيرته) .

ثم تأخذ الأسوار في الامتداد نحو الشرق قرابة (١٣٠٠) متر .
ويتخلل الأسوار على مسافات تكاد تكون متساوية أبراج مستديرة الشكل ،
يبعد كل منها عن الآخر (٣٠٠) متر .

وتتكون الأبراج من طابقين الأول منها مسط ، أما الثاني فيحتوى
على غرف ودهاليز لاقامة العسكر والجنود ، كما يوجد في جدران الطابق
الثاني للأبراج مزاغل (أى فتحات لرمى السهام Arrow-slits) .
ويعلو الأبراج شرفات كبيرة مستديرة تسمح المسافة بينها لموضع فوهات
المدافع أو (المكاحل) ، ويبلغ عددها ثمانية ، ثلاثة منها في الضلع الغربى
 وخمسة في الضلع الجنوبى .

وتحتوى أسوار مسقط على ثلاثة مداخل ، واحد منها يقع في الركن
الغربى أسفل قلعة الريانى ويعرف باسم (باب المتاعيب) . ويتكون باب
المتاعيب من صف من فتحات حديدية صغيرة خلفية يمر من خلالها وادى
الكبير الى الشاطىء وعند نهاية الضلع الغربى للأسوار يوجد مدخل رئيسى
يعرف (بالباب الكبير) الذى يقع أمامه حارة الدخيل (Dakhil) المؤدية
الى سوق المدينة فى الداخل ، كما يؤدى الباب الكبير الى سيداب (Sidab)
ومعظم الطرق التى توصل الى ضواحي مسقط والى مدينة مطرح . ويتكون
هذا المدخل الرئيسى من مدخل متسع يعلوه عقد مدبب يوجد خلفه فى
السقف فتحة بسعة المدخل تستخدم فى صب المواد المحرقة من قار وزيت
مغلى على العدو المقتحم . ويكتنف هذا المدخل من جانبيه نصفاً برج ،
بهما فى الطابق الثانى فتحات لرمى السهام .

أما المدخل الثالث فيقع فى منتصف الضلع الجنوبى ، وهو عبارة عن
مدخل رئيسى مماثل للمدخل الرئيسى الكبير ، ويعرف باسم (المدخل
الصغير) .

وتحتوى أسوار مسقط على عدد من الدهاليز والممرات فى الطابق الأول التى تسمح بوجود الجنود والعساكر لحمايتها والدفاع من المدينة ضد أى عدو يريد الاقتحام . أما أعلى الأسوار فتحتوى على ممرات مكشوفة توصل بين الأبراج، والتى تتسع للفرسان على صهوة خيولهم للتحرك بسرعة للدفاع عن المدينة .

أبراج مسقط :

(انظر لوحة رقم (١))

كما يحصن مسقط ويدافع عنها ويراقب مداخلها من البر والبحر مجموعة من الأبراج التى تعلو الجبال التى تحيط بضواحيها . وقد بنيت هذه الأبراج من مجموعة من الصخور السوداء ، مما جعلها تبدو كأنها منازل على قمم الجبال . ومهمة هذه الأبراج هو اعطاء اشارات ضوئية للقلاع والحصون حتى تستعد للدفاع عن المدينة أو الميناء وهى بذلك أشبه بفنارات الموانئ .

ولعل من أهم وأشهر أبراج مسقط التى ماتزال باقية حتى الآن برج (سعالى) الذى يوجد فى الركن الجنوبى الشرقى للمدينة و برج (بوستو) الذى يوجد خلف منتصف المدينة . وكذا برج المربع الذى يوجد على مسافة قريبة من وادى الكبير ، و برج (دامودر) الموجود فى الطرف الغربى للمدينة و برج (مديمن) فى الطريق الى ريام (Riyam) و برج مكلة عند نهاية الحافة التى تكون الجانب الغربى من الميناء . وهذه الأبراج جميعها لا عمل لها الآن .

قلع مسقط :

(انظر شكل (٤))

وكانت مسقط تعتمد في حمايتها على قلعتي الميراني والجلالي .
الواقعتين على الصخور التي تشغل طرفي المنطقة الرملية على
الشاطئ ، اذ ترتفع كل منهما على جرف صخري يبلغ ارتفاعه (١٥٠)
قدما عن سطح البحر ، ويمكن الوصول الى كل منهما عن طريق مجموعة
من الدرجات منحوتة في الصخر . (انظر لوحة رقم (١)) .

كما أقامت البرتغال كشافات أو مناظير كشفية في صيرة الشرقية لمعاونة
القلعتين (ميراني وجلالي) في الدفاع البحري وعلى الشاطئ الشرقي
للميناء وعلى بعد (٢٥٠) ياردة من رأس مسقط توجد صيرة الغربية على
الطرف الآخر ، يعلوها المأوى المقيبى المعروف باسم مكث الذي سبقت
الإشارة اليه .

وفي داخل مسقط توجد مخازن لخزن مياه المدينة تقع على بعد
(١/٢) ميل من وادي الكبير التي تحميها قلعة مربعة الشكل ، تحتوى على
ساقطات (تعرف عند أهل عمان باسم راوية) وتعرف في العمارة الاسلامية
باسم (maehicoullis) ترجع الى عهد البرتغال (انظر لوحة رقم (٣٥))

قلعة الميراني :

(انظر شكل رقم (٥)) ، (لوحة رقم (٩))

تقع قلعة ميراني الى الغرب من مسقط أقامها البرتغال في عهد الملك
فليب ملك أسبانيا بعد استيلائه على البرتغال ١٥٨٠ م / ٩٨٨ هـ .

قلعة الجلالى :

(انظر شكل رقم (٦))

وتقع فى مقابلة قلعة ميرانى فى الجهة الشرقية من مسقط وقد تم بناؤها بعد قلعة ميرانى بعام ١٥٨٨ م / ٩٩٧ هـ •

بيوت مسقط الأثرية :

سبق أن ذكرنا أن الدور والمقصور فى العصور القديمة والوسطى بل حتى أوائل القرن العشرين تعتبر ضمن العمارة الحربية ، ذلك أن تصميمها المعماري كان يلاحظ فيه أن يكون القصر أو الدار قلعة حربية يمكن أن تحمي نفسها وقت الحاجة •

ولعل أهم هذه الدور هى (من غرب المدينة الى شرقها)

(انظر شكل رقم (٤))

١ — بيت جريزه (لوحة رقم (٦))

٢ — بيت السيد شهاب •

٣ — بيت السيد فادر (انظر لوحة (٢٤))

٤ — بيت فرنسا (تشغله الآن السفارة الفرنسية)

٥ — بيت السيد عباس

٦ — بيت راتانسى (Ratansi)

٧ — بيت البئر

٨ — بيت السفارة الهندية

٩ — بيت مغب

١٠ — بيت السفارة الأمريكية

١١ — بيت السفارة الانجليزية

١٢ — بيت الزواوى (انظر لوحة رقم (١٣))

قلعة مطرح :

(لوحة رقم (١٧))

تعتبر مطرح أكبر مدينة فى سلطنة عمان وأكثرها أهمية من الناحية التجارية • وتقع مطرح على الجانب الغربى من خليج مطرح وعلى بعد ميلين غرب مدينة مسقط (انظر شكل (٣) ، (٤)) •

وتشبه قلعة مطرح قلعتى مسقط من حيث التخطيط المعمارى وأسلوب العمارة • هذا وقد حصنت المدينة بأسوار عالية خاصة تلك الأجزاء التى لم تحصنها الطبيعة . وقد تخلل السور مجموعة من الأبراج وعدة مداخل رئيسية ، أهمها الباب الكبير الذى يقع فى الركن الجنوبي الشرقى من المدينة والذى يبدأ منه الطريق الذى يخرج من مطرح الى مدينة روى (Ruwi) .

٢ — منطقة الباطنة :

وهى من أهم مناطق عمان ، وهى تقع فى الشمال على الساحل بين البحر والحجر الغربى • وتتقطع هذه المنطقة عدة وديان تتبع من قمم الجبال وتنتهى فى البحر كما أنها كثيرة القرى فى رعوس الوديان •

(م ١٠ — ندوة الدراسات د ٢)

قلعة صحار :

(انظر لوحة رقم (٢٥)) (شكل رقم (٣))

ويحمى مدينة صحار قلعة كبيرة يرجع تاريخها الى ما قبل الاسلام^(١) وان كان كثير من الأوروبيين ينسبونها الى البرتغال . ولعل مرجع هذا الخطأ هو أن البرتغاليين قد نقلوا تصميمها المعماري واستعملوه في استحكاماتهم الحربية التي أقاموها في منطقة الخليج مثل ميراني وجلالي وقلعة العجاج .

قلعة مصنعة : (Masna' ah)

(انظر شكل (١) ، (٢)) .

وقد كانت قلعة مصنعة ذات طراز معمارى اسلامى هام ، ذلك أنه روعى فيها أن يتوسط صحنها مسجد يؤدي فيه عسكرها صلواتهم الخمس دون الحاجة الى الخروج من القلعة خاصة وقت الأزمات . وقد أقيم في أوائل القرن العشرين قلعة في مدينة (أبو ظبي) على غرار قلعة مصنعة والغربية ، أما الضلع الرابع وهو الشمالى فيوجد به المدخل الرئيسى للقلعة تعرف باسم قلعة الشيخ .

وفي وسط مدينة بركا تقوم قلعة عالية مربعة الشكل يدعم أركانها أربعة أبراج . وتحيط المنازل بالقلعة من جهاتها الثلاث الشرقية والجنوبية الذى يكتنفه نصفاً برجين على جانبيه .

(انظر الشكل ٢ ، ٣)

قلعة سويق : Suwaiq

(انظر شكل (٢))

وتعتبر سويق احدى موانى وادى بنى جفير (Ghafir) • وفى
وسط المدينة توجد قلعة عالية مربعة الشكل يدعمها أربعة أبراج فى أركانها
الأربعة • وقد اتخذ الوالى القلعة مركزاً له وتقوم بحراستها قوة من
(٢٥) جندياً •

قلعة حزم : (Hazam)

(انظر شكل (١))

وتعتبر قلعة الحزم من أهم الاستحكامات الحربية فى عمان التى خلدها
التاريخ • وقد انشأ قلعة الحزم الامام السلطان بن سيف الثانى اليعربى
سنة ١٧٠٨م (سنة ١١٢١هـ) واتخذها قاعدة لحكمه بعد أن ترك الرستاق •

٣ — منطقة الحجر الغربى :

(انظر شكل (٢))

تقع هذه المنطقة الى الغرب من منطقة الباطنة ، وهى منطقة جبلية •
وقاعدة المنطقة مدينة الرستاق التى تقع فى وادى فارة • (انظر لوحة
رقم (٣٢)) •

حصن العوابى :

ويحمى المنطقة كلها حصن كبير يعرف باسم بيت العوابى لأنه يشغل
منطقة استراتيجية تتحكم فى المنطقة الممتدة من نخل •

٤ — منطقة الحجر الشرقي :

(انظر شكل رقم (٢))

تقع هذه المنطقة الى الجنوب من الباطنة ومحاذية للبحر • وهى عبارة عن منطقة جبلية تنحدر بشدة نحو البحر ومن ثم فان شواطئها غير صالحة للسكنى •

قلعة مزارع :

وقرية مزارع محاطة من جميع الجهات بجبال منحدره ، تتقدمها فى مدخل الوادى صخرة كبيرة مرتفعة أقيمت فوقها قلعة قديمة تتحكم فى الوادى ومدخله •

٥ — منطقة الظاهرة :

تقع هذه المنطقة الادارية الى الغرب من منطقة الحجر الغرب ، وقصبتها مدينة (عبرى) •

قلعة عبرى :

(انظر شكل (٣))

وفى وسط المدينة وعلى جبالها توجد قلعة عبرى التى تعد من قلاع عمان الداخلية ذلك انها لا تقع على ساحل البحر كما أنها تقع على حدود البلاد •

٦ — منطقة عمان الغربية :

تقع هذه المنطقة الى الجنوب من الجبل الأخضر ، وقاعدتها مدينة نزوى •

قلعة نزوى :

(انظر شكل (١))

تتكون من ساحة كبيرة مربعة الشكل تتخلله الأبراج ، وفي أحد أركان القلعة يوجد البرج المركزى الكبير الذى بناه الامام سلطان بن سيف اليعربى ما بين سنة ١٦٧٠ و سنة ١٦٨٠م •

حصن بهلاء :

(انظر شكل (١))

ويحيط بالمدينة والحصن سور قديم يرجع الى ما قبل العصر الاسلامى ويبلغ طوله سبعة أميال •

قلعة ازكى : (Izki)

(انظر شكل (١))

وفي وسط حى اليمن توجد قلعة ازكى التى يحيطها سور سميك قوى البنيان اذ يبلغ سمك جدرانها خمسة أقدام •

قلعة بركة الموز :

(انظر شكل (١))

تتكون قلعة بركة الموز من ساحة مستطيلة الشكل يدعم أركانها أبراج ضخمة • وتتكون القلعة من طابقين ، تحيط بها الاسوار التى تتخللها الأبراج كذلك • وقد أنشأ بعض أبراج المراقبة بقلعة بركة الموز ، أحد أقارب سلطان عمان سنة ١٨٧٦ م وهو خماد بن ملال بن محمد •

حصن جبرين :

(انظر شكل (١))

يقع حصن جبرين على مسيرة دقائق معدودات من مدينة بهلا ، ومن ثم فانه يعتبر القاعدة الامامية لبهلا . ولقد اتخذ الامام بلعرب بن سلطان اليعربى حصن جبرين مقراً له ، بل لقد أصبح لفترة ليست قصيرة ينظر اليه على أنه حاضرة عمان كلها .

٧ — المنطقة الشرقية :

تقع هذه المنطقة الى الغرب من حجر الشرقية وقاعدتها مدينة ابرا .

قلعة العوامر : Awamir

العوامر مجموعة من القرى ، تقع بوادى حلفان ، حيث يوجد فلج العوامر ، ويوجد بهذه القرى حصن كبير مكون من مجموعة من المباني يرجع الى عصور مختلفة لعل أهمها ، الأبراج المستديرة والمربعة منها . ويتولى حراسة هذا الحصن قبائل العوامر بالمنطقة الشرقية .

٨ — منطقة جملان :

تقع هذه المنطقة في جنوب منطقة الشرقية على ساحل بحر العرب .

قلعة الحسد :

القلعة مربعة الشكل يدعم أركانها أربعة أبراج مستديرة الشكل يتكون كل منها من ثلاثة طوابق ، فتح في الطابق الثاني منها مزاغل لرمى السهام . أما الطابق العلوى فيحتوى على فتحات كبيرة نسبياً وكبذا شرفات تسمح بوضع فوهات المكاطي .

قلع بني بوحسن :

ويوجد في شمال مدينة بني بوحسن قلعتان لحمايتها ، احدهما قديمة جداً، مبنية من الطمي ، والأخرى أحدث وهي مبنية بالحجر المكسي بطبقة سميكة من الجص ويحيط بالقلعتين وكذا المدينة أسوار يتخللها الأبراج المستديرة والمربعة التي تقوم بحماية العيون والأقلاج التي يعتمد عليها في رى تلك المنطقة .

٩ - منطقة ظفار الجبوسى :

تقع منطقة ظفار على ساحل بحر العرب في نهاية حدود عمان الجنوبية الغربية ، وعند حدود حضرموت الشرقية ، وتمتد ظفار من رأس بوس الى قرية (خر يقوط) على ساحل البحر .

حصن الغراب :

يرجع تاريخ هذا الحصن الى ما قبل الاسلام ، فقد وصفه المؤرخ الهمداني بعد ذكره سواحل الشحر ومهرة فقال : وفي منتصف من هذا الساحل بين عمان وعدن وريسوت ، ويوجد حصن غراب وهو موئل كالقلعة ، بل قلعة مبنية بنيانا على ساحل البحر ، الذي يحيط به إلا من جانب واحد .

١٠ - البيوت المدرجة بالجبل الأخضر :

ومن الاستحكاكات الحربية التي تتفرد بها سلطنة عمان ، الدور المبنية على مدرجات الجبال التي تبدو وكأنها أبراج حصون أو مباني قلاع يعلو بعضها البعض . وترتفع جبال قرى منطقة الجبل الأخضر بهذا النوع من المباني . وهي ذات تخطيط مربع الشكل مكونة من عدة طوابق ، بنى كل طابق على طبقة من الصخور المدرجة .



بعد هذا العرض الموجز لأهم حصون وقلاع وأبراج المناطق الادارية التسعة لسلطنة عمان ، يتبين لنا أن الاستحكامات الحربية الموجودة بمسقط وعمان ، تنقسم ثلاثة أقسام رئيسية لكل منها خصائصها ومميزاتها وفيما يلي بيانها :

أولا : استحکامات ساحلية :

١ - تقتصر هذه الاستحكامات على القلاع والأبراج المرتفعة ، حتى تستطيع مراقبة العدو على مسافات بعيدة في عرض البحر قبل اقترابه من الشاطئ .

٢ - توجد معظم هذه القلاع على قمم الجبال والصفور العالية ذات الموقع الاستراتيجي الممتاز ، ثل قلعة صحار التي تحمي ميناء صحار وتتحكم في مضيق هرمز . ولما كانت قمم الجبال وكذا الرؤوس الصخرية مساحتها ضيقة فمن ثم فهي لا تتسع لبناء الحصون ، بل تكفي فقط لاقامة القلاع والأبراج .

٣ - كل المنشآت الحربية الساحلية مبنية بالحجر الصلد وكثيراً ما يكسوها طبقة سميكة من الجص ، وذلك لأن العوامل المناخية تحتاج الى مواد بنائية تستطيع مقاومة البحر وأنوائه .

٤ - يقل استخدام الساقطات (Machicolis) في القلاع والأبراج الساحلية ، وخاصة تلك التي تعلو قمم الجبال ، ذلك أن مهمة الساقطات هي صب المواد الطارقة على العدو عندما يقترب من سور القلعة ، ولما كانت ساحة القتال بالنسبة للسواحل والموانئ هو البحر ، لذلك فإن قلاعها ليست في حاجة الى بناء الساقطات .

٥ - توجد المزاغل في النطاق العلوى من أبراج السواحل حتى

تستطيع أن تصيب سفن العدو على مسافات بعيدة * وهذا هو السبب الذي جعل البرتغال تضيف الى قلعة ميراني سنة ١٦١٠م (أى بعد انشائها بثلاثة وعشرين عاما) برجاً بمستوى البحر حتى تمنع القوارب الصغيرة من أن تمر بالقرب من القلعة وهى فى مأمن من أن تصيبها النيران لأنها تحت مستوى مرمى سهامها ومدافعها *

ثانيا : الاستحكامات الداخلية :

١ — هى عبارة عن حصون تتوسط المدن أو القرى وتحيط بها الأسوار أو على الطرق والوديان التى يخشى عليها من الاعتداء *

٢ — تتكون الحصون من مجموعة من المنشآت الحربية كالأبراج والقلاع ومخازن السلاح وكثيراً ما يضم الحصن مركز الحكم حيث يوجد به قصر السلطان أو مقر للوالى *

٣ — تبنى الحصون الداخلية وخاصة فى المناطق الشديدة الحرارة من الطوب اللبن فهو أكثر ملائمة للحرارة من الأحجار التى تكون عرضة للتصدع من شدة الحرارة *

٤ — تكثر الساقطات فى الأبراج التى تتخلل الأسوار وقلاع الحصون وكذا الفتحات التى توجد خلف عقود المداخل الرئيسية، ذلك لصب المواد الحارقة على العدو الذى يقترب من الأسوار أو الأبراج *

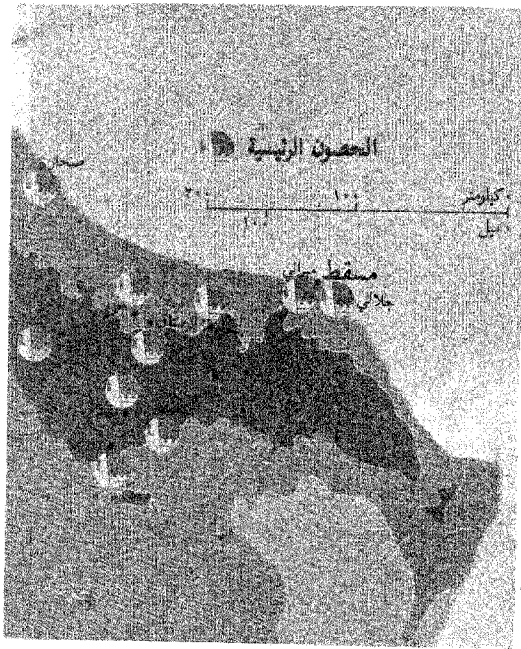
٥ — توجد المزاغل لرمى السهام فى الطابق الثانى من أبراج الحصون ذلك أنها تكون عادة مبنية فى سهل أو على ربوة أو تل قليل الارتفاع *

ثالثا : استحکامات محلية : (الدور والأفلاج)

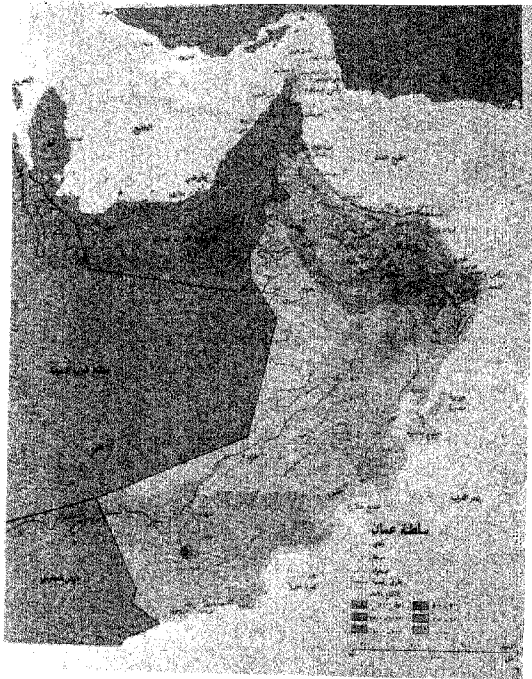
- ١ — لقد كانت دار كل قبيلة في العصور الوسطى أشبه بحصن يحميها من اعتداء القبائل الأخرى المنافسة لها ، أو اعتداء اللصوص اذا كانت القبيلة ذات ثراء واسع .
- ٢ — ومن ثم فقد كانت الدار تحتوى على برج أو أكثر للمراقبة يحميها اذا ما اعتدى عليها معتد .
- ٣ — توجد بتلك الدور مزاغل لرمى السهام وكذا ساقطات لصب المواد الحارقة اذا ما جد الجد .
- ٤ — تحتوى الدور على مداخل منكسرة (Bent-Entrance) حتى تعوق اندفاع العدو من الدخول الى صحن الدار ، كما أنها تراعى حرمة الدار ، فلا يرى مَنْ بالباب أحدا من الموجودين بصحنه .
- ٥ — تبنى الدور الكبيرة عادة بجانب الأفلاج أو بالقرب منها حتى لا تكون في حاجة الى تخزين المياه ، كما لا يستطيع العدو قطع المياه عنها .

**بيان بالأشكال واللوحات
التي ورد ذكرها في البحث السابق**

الأشكال واللوحات رُصِّحت حسب تعليمات الأستاذة مؤلفة البحث

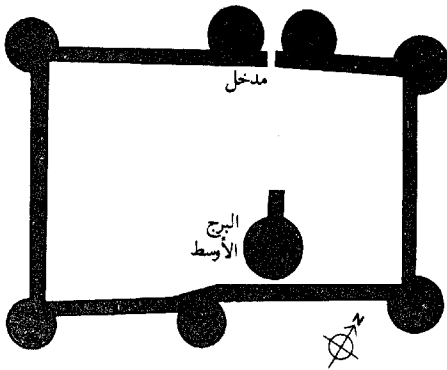


(تمثيل رقم ١)
(منطقة مسقط)



(شكل رقم ٢)
(سلطنة عمان)

قلعة صبحار سنة ١٥٠٠

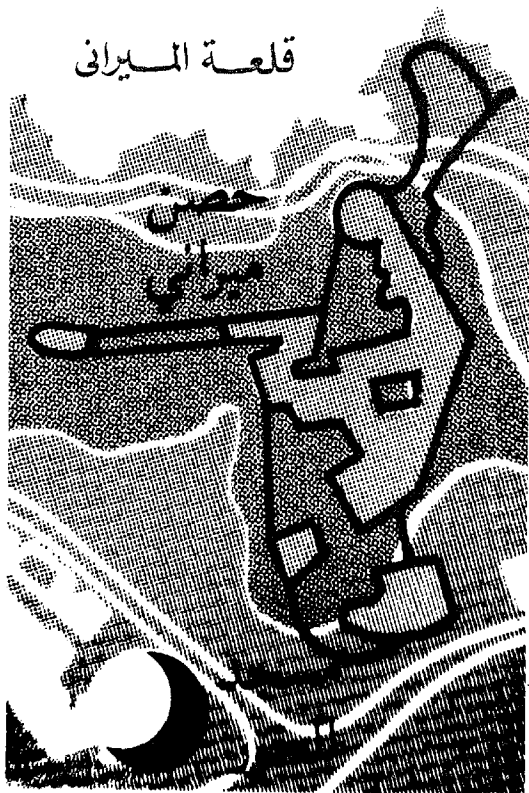


شكل رقم (٣)



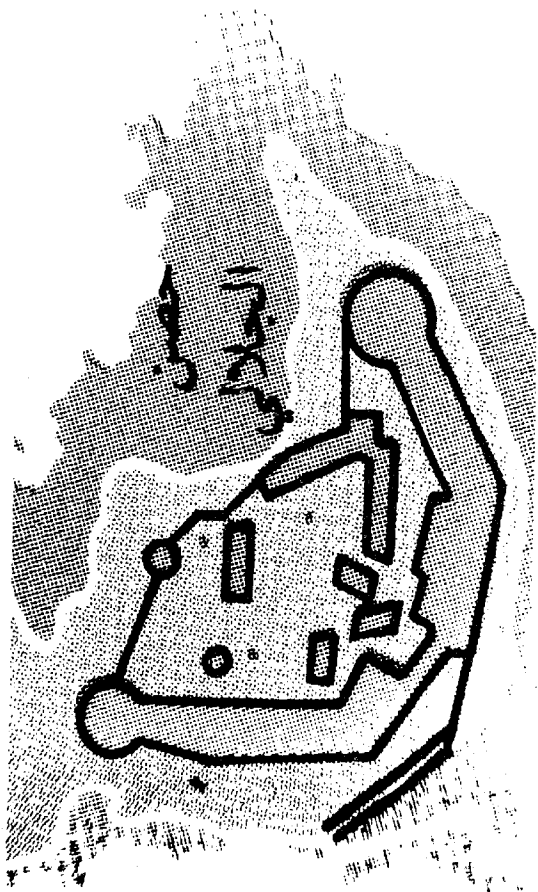
(شكل رقم ٤)

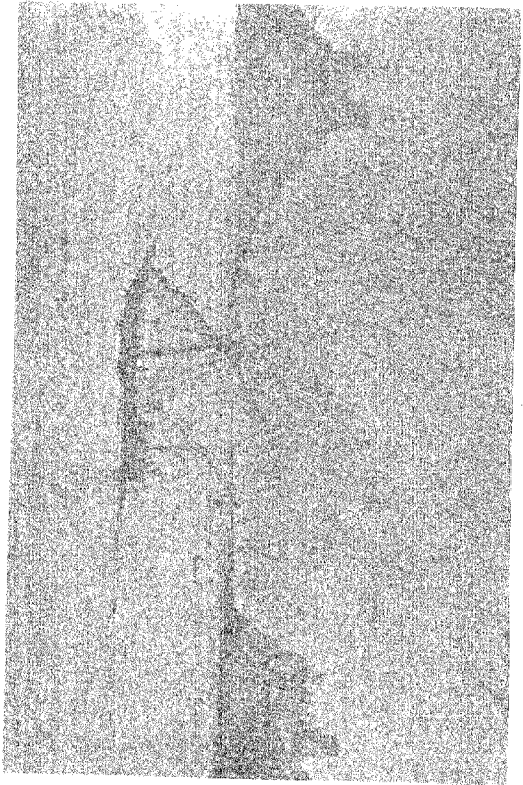
قلعة الميراني



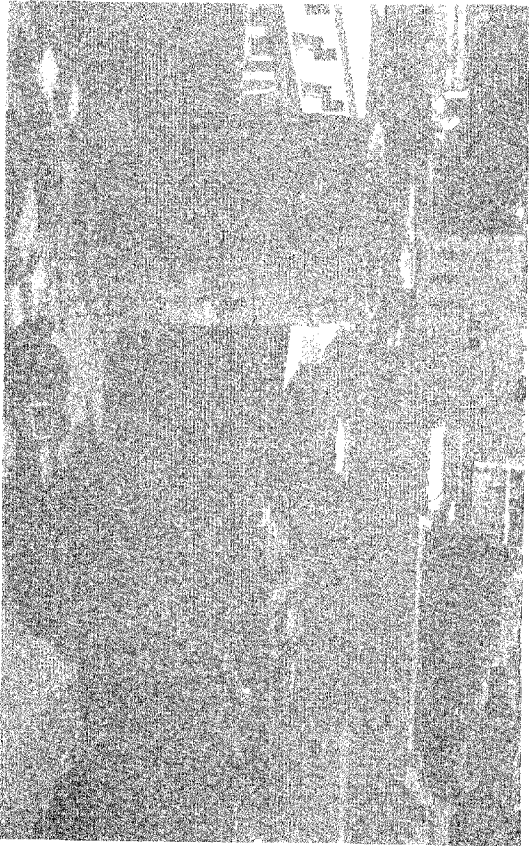
(شكل رقم ٥)

(شکل رقم ٦)





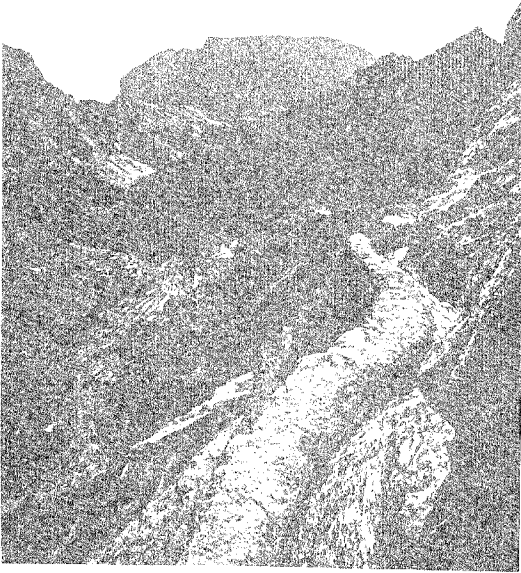
(لوحة رقم ١)
طبعة المبراني الى الغرب من مسقط وطامة الجلالى التى تقع الى
الشرق . ويرى بينهما الجبال والتلال تعلوها الابراج



(لوحة رقم ٢)
العاصمة مستط وقد ظهر بها الأسوار والأبراج والتلاع



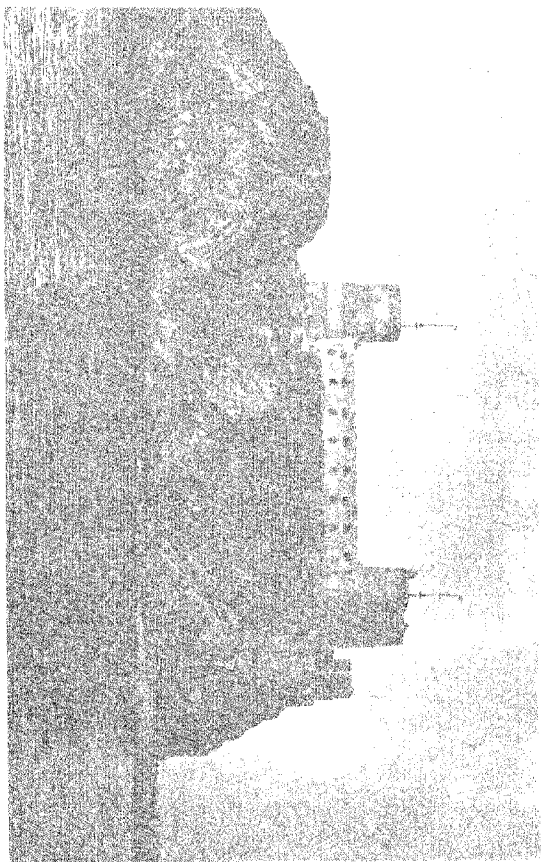
(الوحدة رقم ٣)
احمد الشلالج فيسال

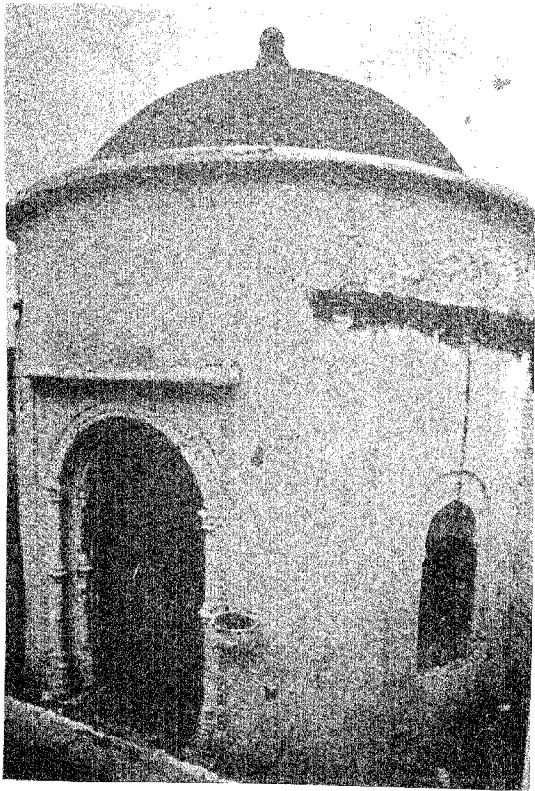


(لوحة رقم ٤)

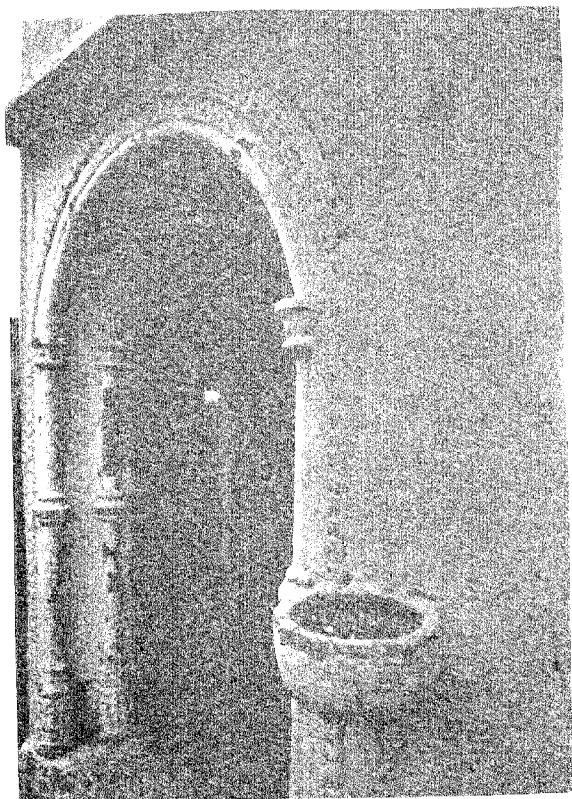
أحد أملاج الكوانت (Quant) وهي التي تتخذ مجراها
في اقبياء تسير تحت الأرض

(لوحة رقم ٥)
تأليف الجليلي



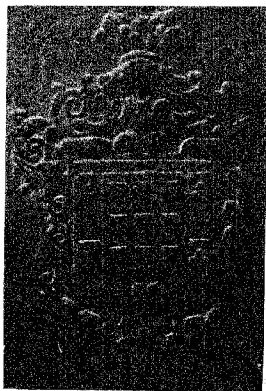


(لوحة رقم ٦)
بيت جريزا (grazia)



(لوحة رقم ٧)

بيت جريزا وقد احتفظ بالكاس المملوءة بالمياه المقدسة



(لوحة رقم ٨)

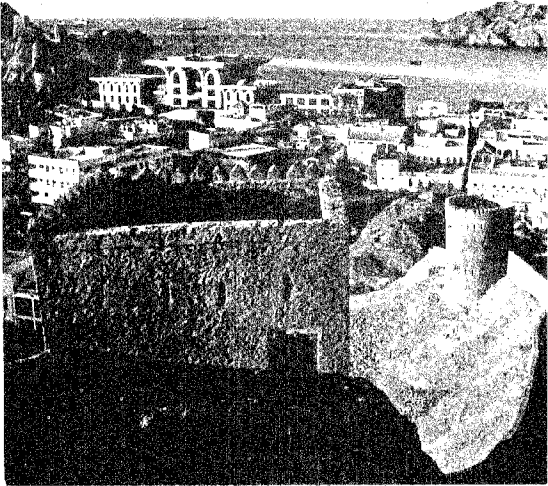
الشارات التي وجدت على أحد مواقع البرتغال
وقد نقش عليها تاريخ استيلاء عمان على قلعة الميراني
(١٦٤٩م / ١٠٥٩هـ)



(لوحة رقم ٩)
طاعة الميراني بمسقط

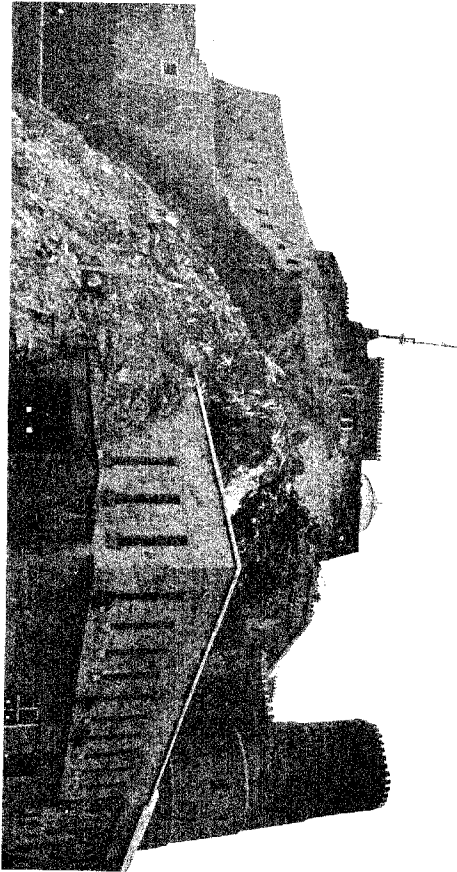


(الوجهة رقم ١٠)
برجان من أبراج قلعة الجلالى بهمسقط



(لوحة رقم ١١)

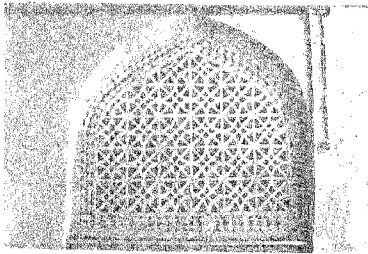
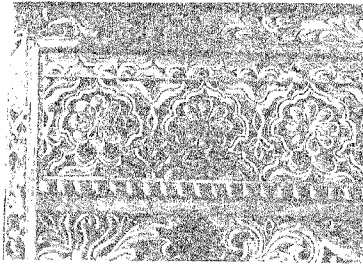
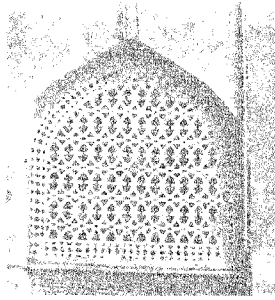
بعض بيوت مسقط الأثرية وقد توسطها
قناة كما يعلوها شرفات كبيرة يمكن استخدامها
في وضع فوهات المدافع



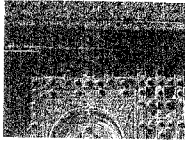
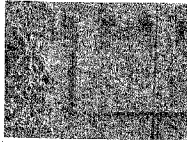
(لوحة رقم ١٢)
أحد بيوت مسقط الأثرية المتاخمة للجامعة الحديثة



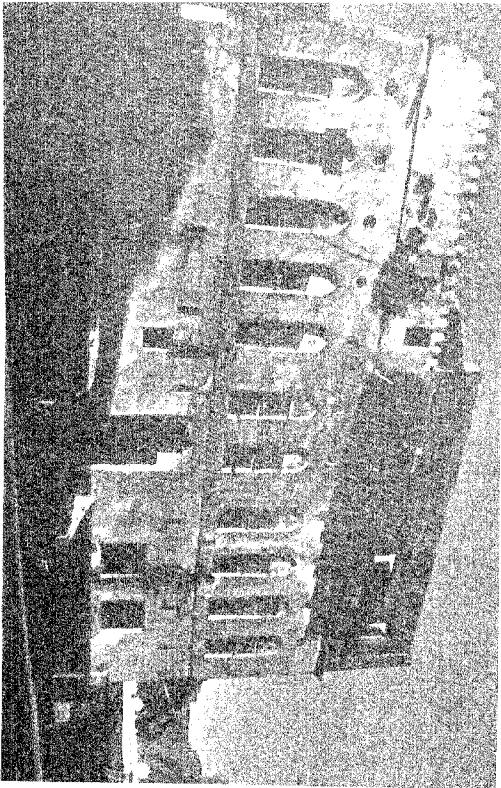
(لوحة رقم ١٣)
بيت الزواوى بمسقط



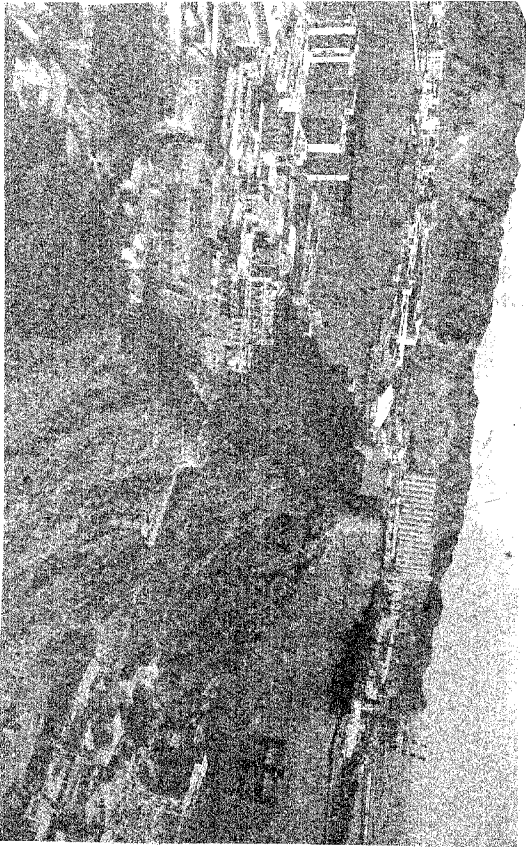
(لوحة رقم ١٤)
النوافذ المزخرفة بالجص المخرم والخشب المحفور



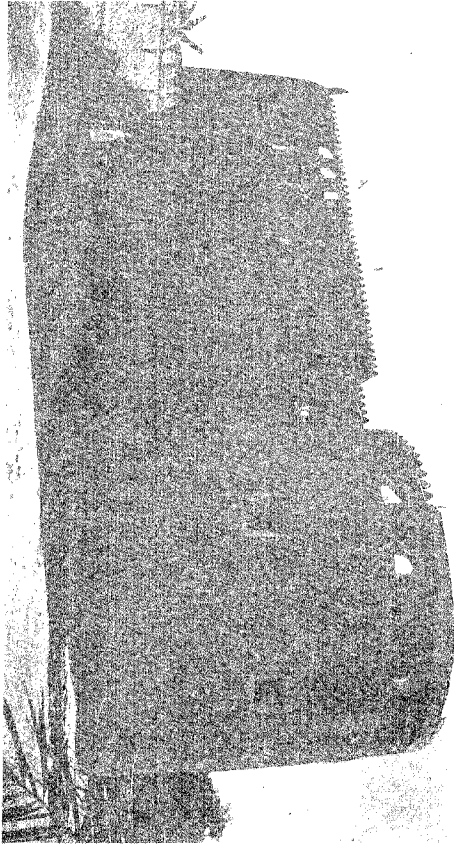
(لوحة رقم ١٥)
السقوف والابواب الخشبية المزخرفة بطريقة الحفر



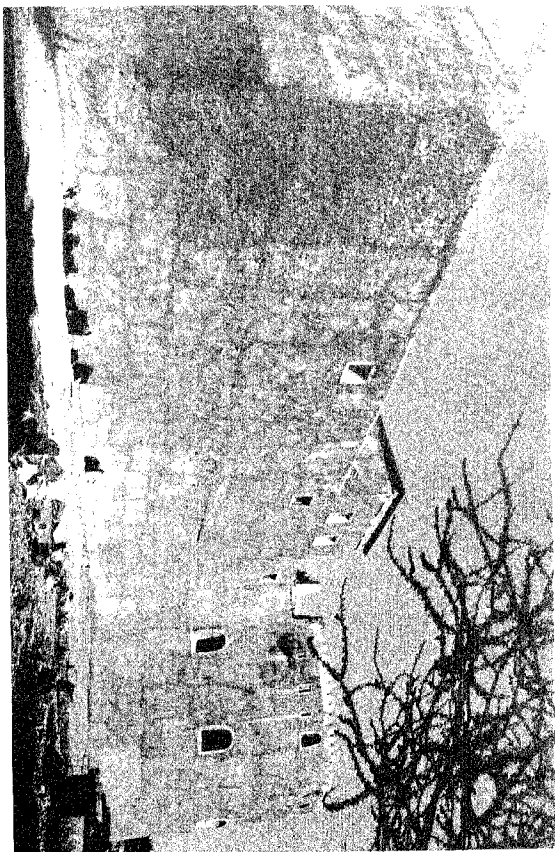
(الوحدة رقم ١٢)
أحد منازل مستوطنة الإثيوبية



(لوحة رقم ١٧)
مدينة مطح القديسة واطمها

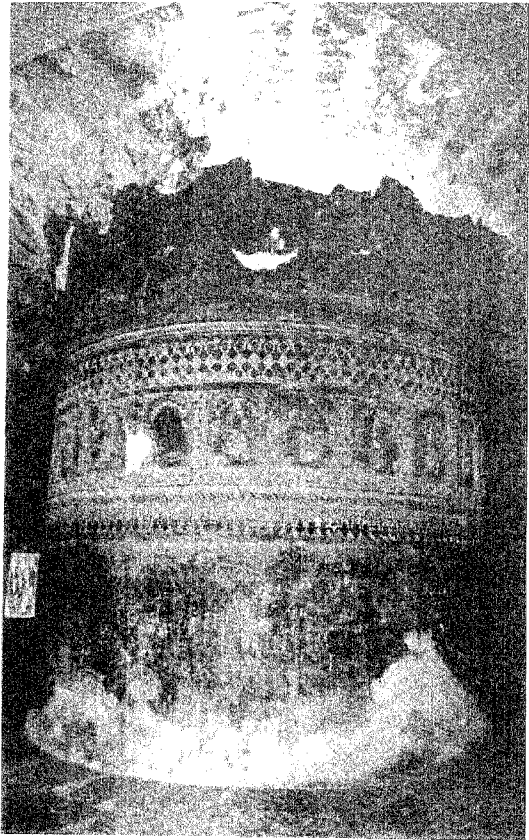


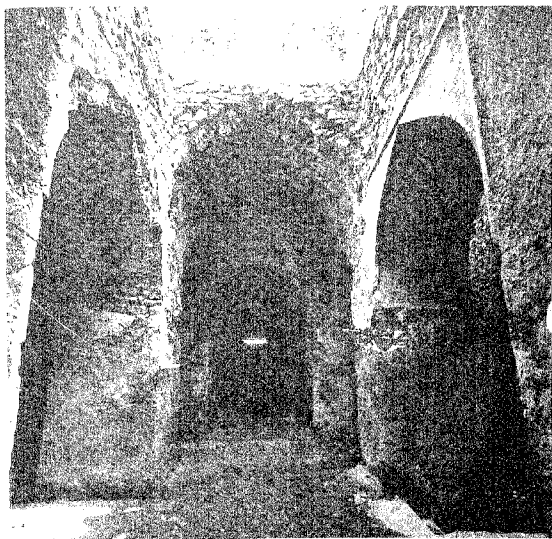
(لوحة رقم ١٨)
قلعة الحزم
التي شيدها سلطان بن سيف اليعربي في مطلع القرن الثامن عشر



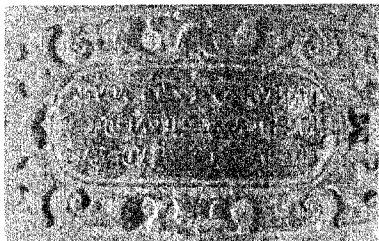
(لوحة رقم ١٩)
برج مربع بطلعة الحرم

(الوحدة رقم ٢٠)
الزخارف الجصية التي تزخرف
أبراج قلعة الحزم

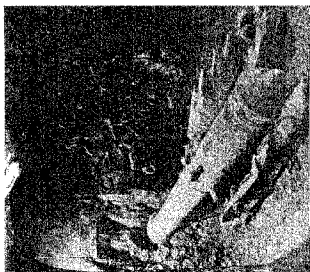




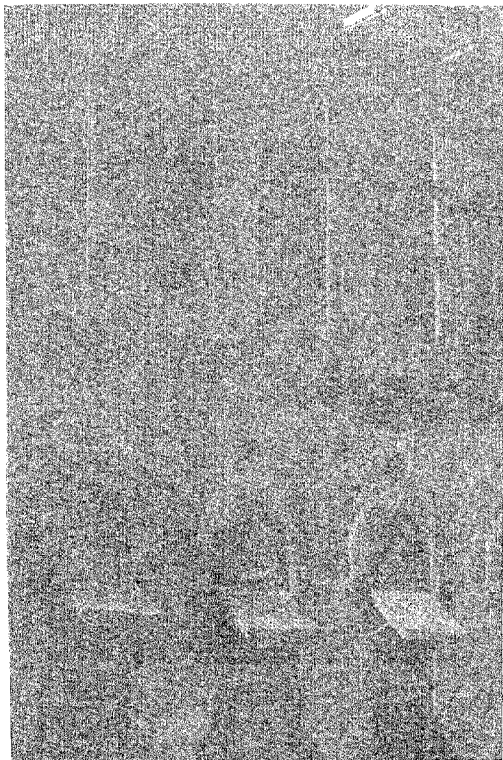
(لوحة رقم ٢١)
المدخل الرئيسى لقلمة الحزم



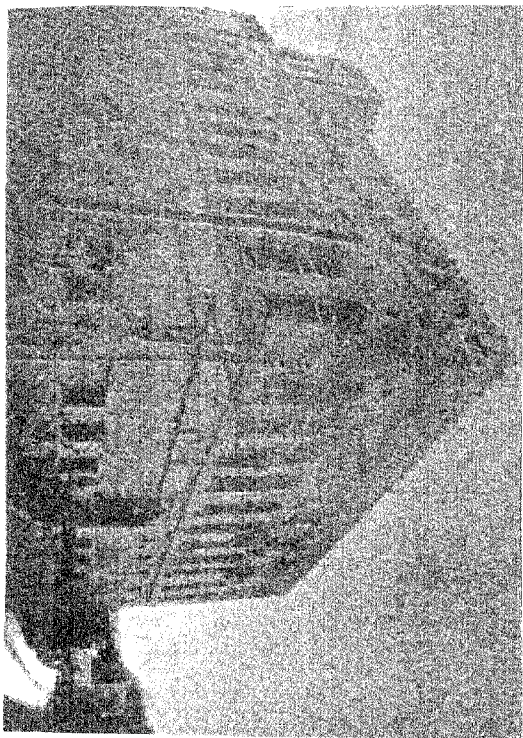
كتابة باللغة البرتغالية على احد المدافع الموجودة بقلعة الحزم



(لوحة رقم ٢٢)
(مدفع برتغالي بقلعة الحزم)



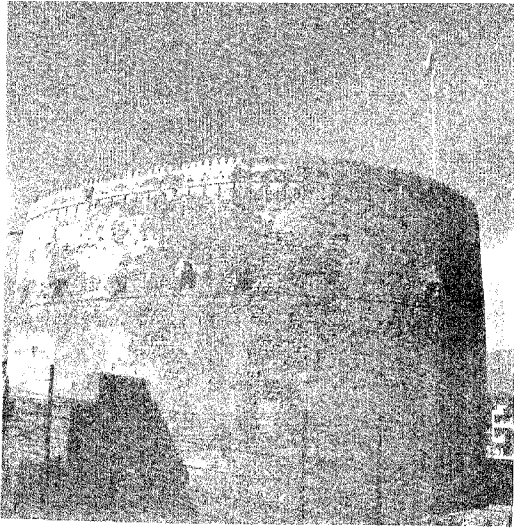
(لوحة رقم ٢٣)



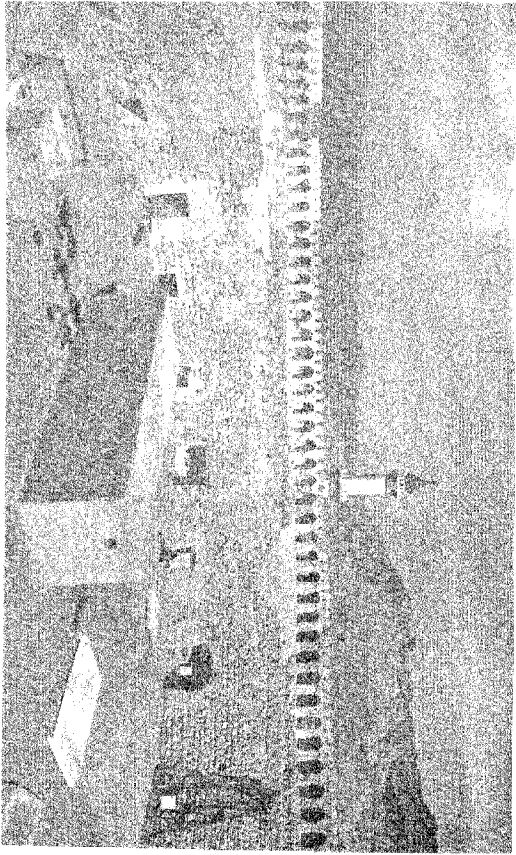
(لوحة رقم ٢٤)
بيت السيد نادر بهستط



(لوحة رقم ٢٥)
تلعة صحر وجرار ما بئر ماء



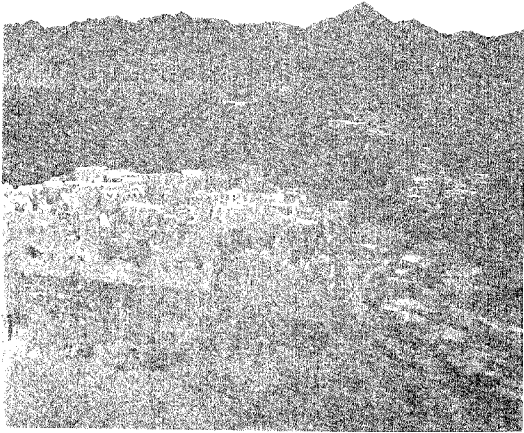
(لوحة رقم ٢٦)
البرج المركزى بقلعة نزوى كما يظهر من الخارج



(الوحدة رقم ٢٧)
البرج الكبير بقلمة نزوى كما يظهر من الداخل

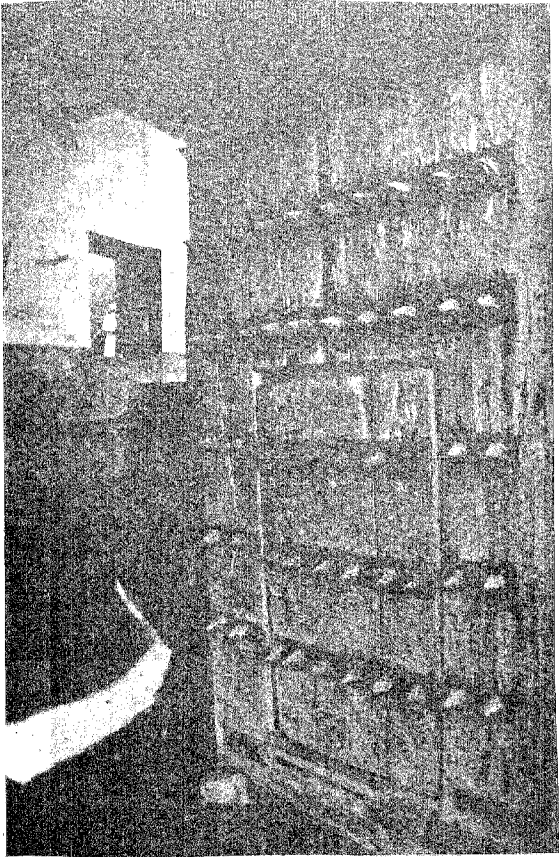


(لوحه رقم ٧٨)
اسوار مدينة بوسلا تحيط بالادور

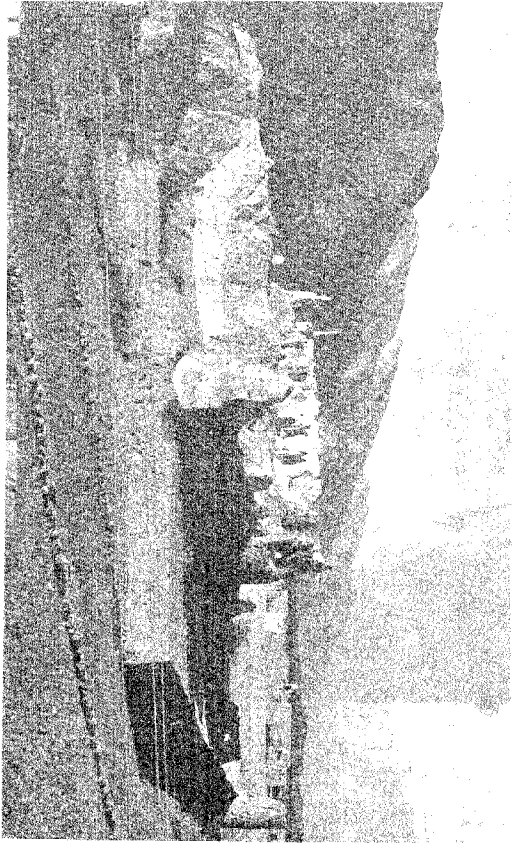


(لوحة رقم ٢٩)

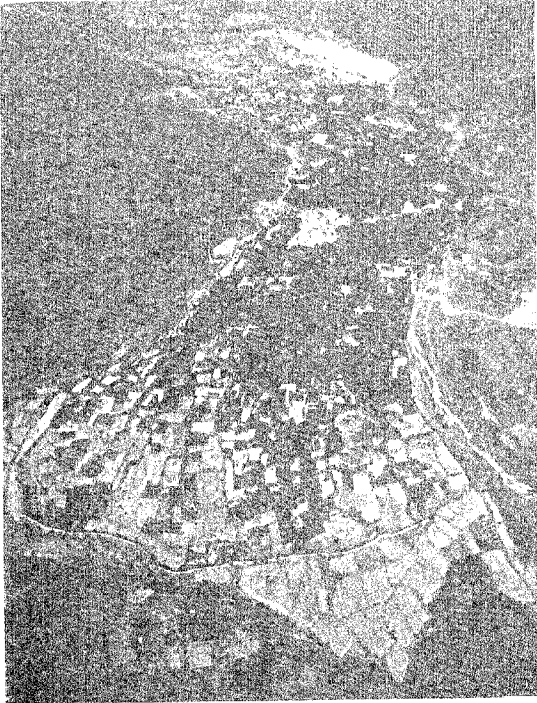
جزء من حصن بهلا داخل الأسوار التي يبلغ طولها
سبعة أميال وهي مبنية من اللبن وترجع الى ما قبل الاسلام



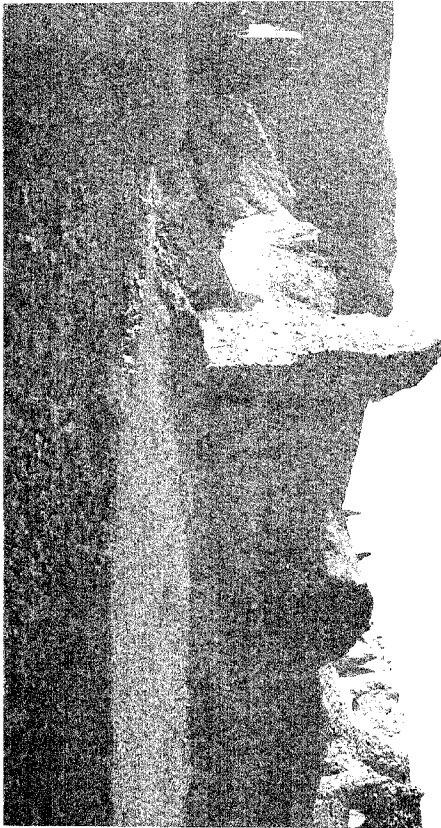
(لوحة رقم ٢٠)
أحد أبواب قلعة بهلا



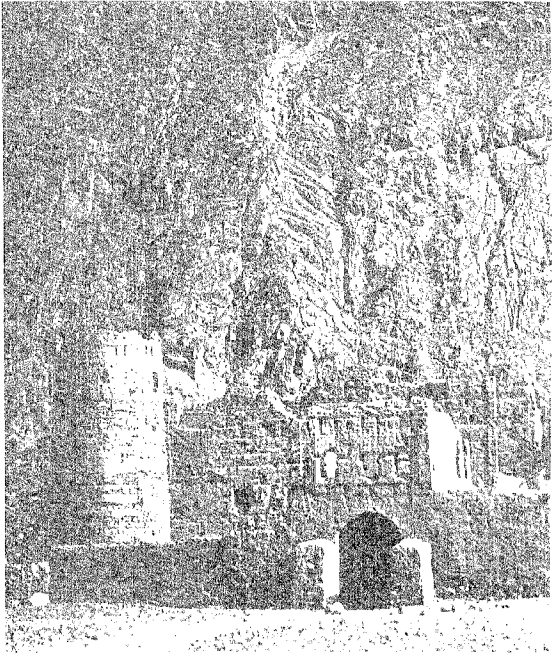
(لوحة رقم ٢١)
حصن مدينة بولا



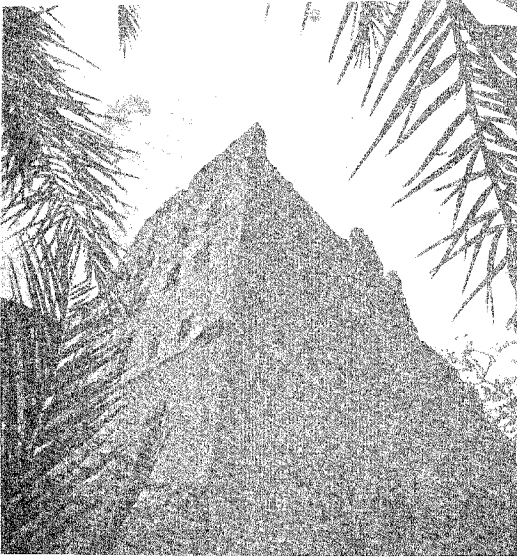
(لوحة رقم ٣٢)
سلسلة جبال الحجر الغربى التى تفصل
بين السهل الساحلى وبين المنطقة الداخلية
والاقليم الجنوبى



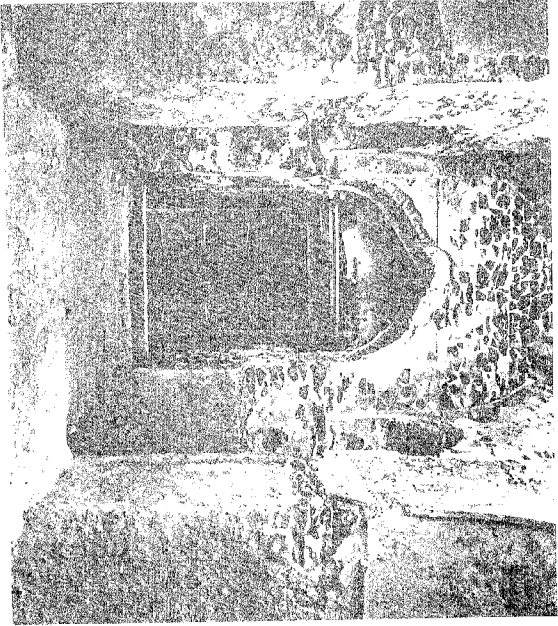
(لوحة رقم ٣٣)
تالعة اركى وقد ظهر بجانبها احد برجى المساء



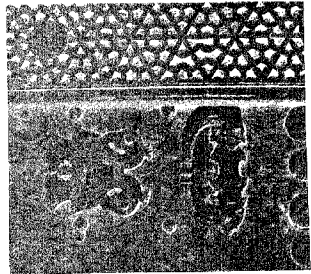
(لوحة رقم ٣٤)
تلعة بركة الموس



(لوحة رقم ٣٥)
البرج المربع يتقدمه الساقطة وحول القلعة سور مدينة جبرين

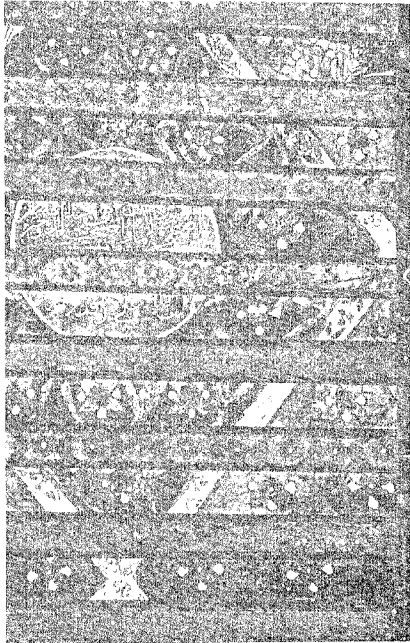


(لوحة رقم ٢١)
أبو أبي حسن جبرين وزخارفها

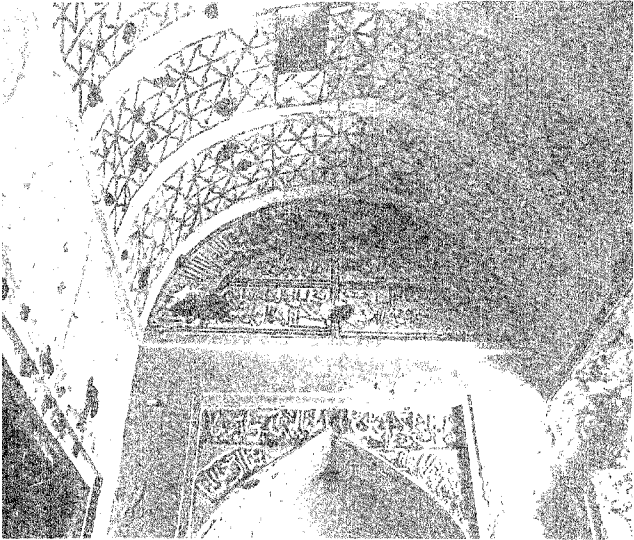




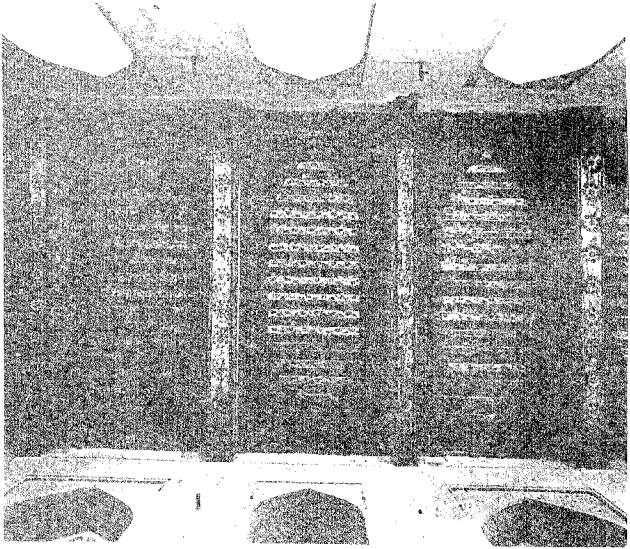
(لوحة رقم ٣٧)
مستوف حسن جبرين



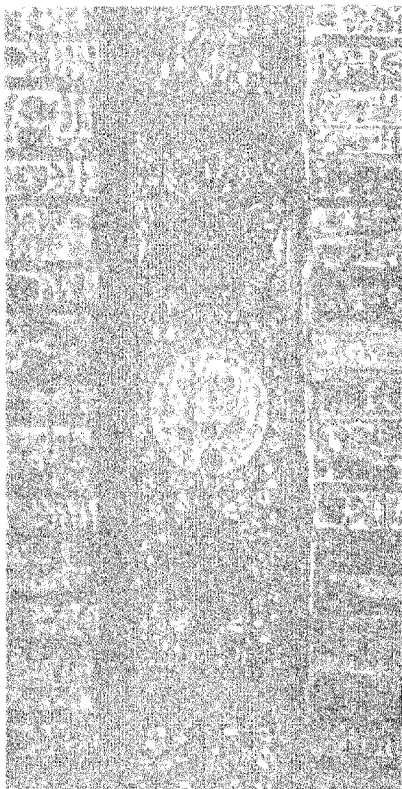
(الوحدة رقم ٣٨)
المستوفى المتقشمة في حصن جبرين



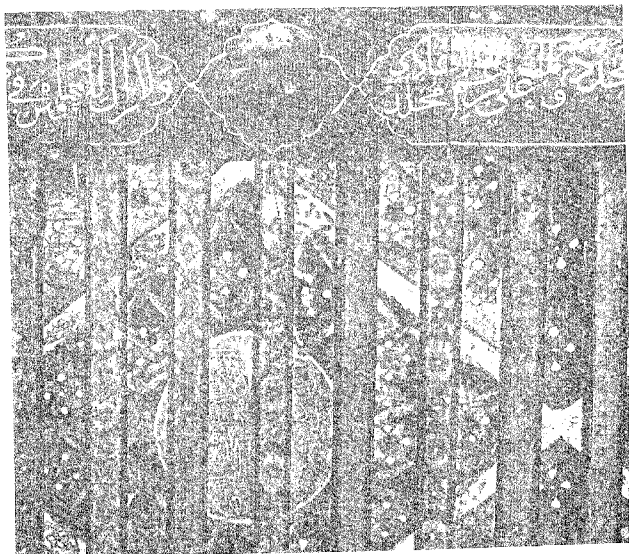
(لوحة رقم ٣٩)
نقوش هندسية وأخرى قرآنية تزخرف مباني حصن جبرين



(لوحة رقم ٤٠)
الزخارف والكتابات المحصورة في بحور تزين سقف حصن جبرين

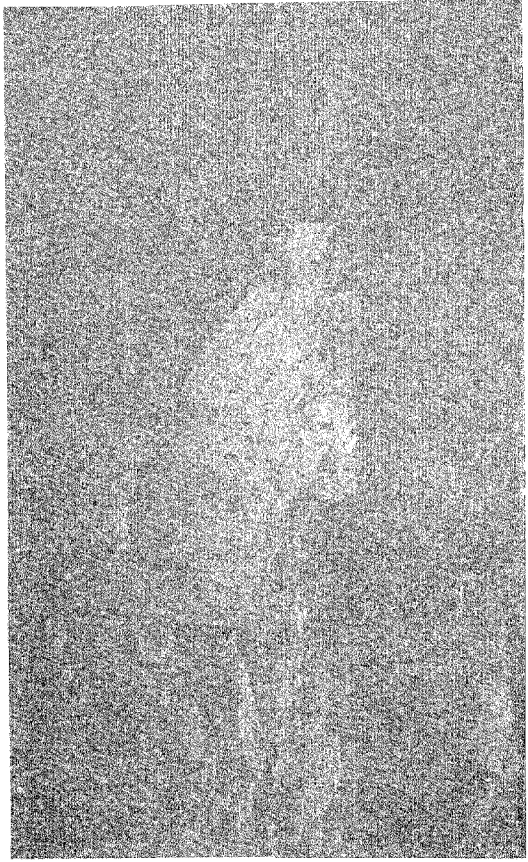


(لوحة رقم ٤١)
أحد الأعمدة الخشبية التي ترتكز عليها سقف
حصن جبرين

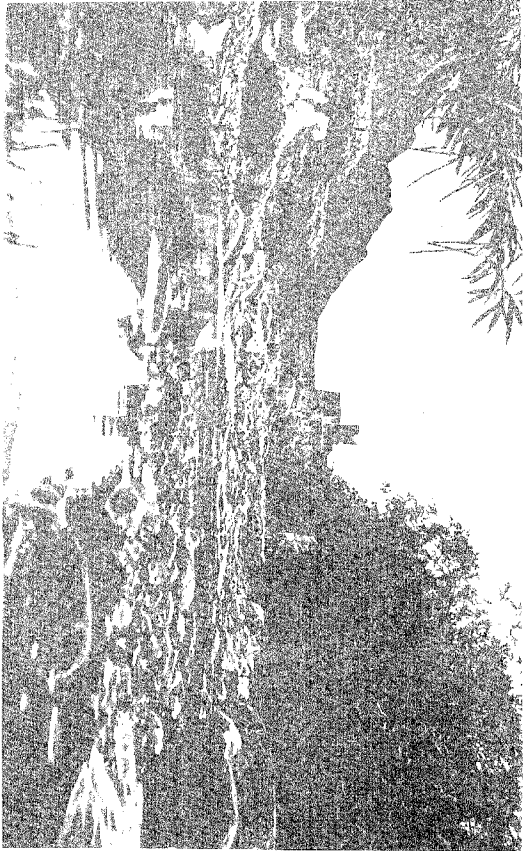


(لوحة رقم ٤٢)

كتابات قرآنية محصورة في بحور تزين سقف حصن جبرين



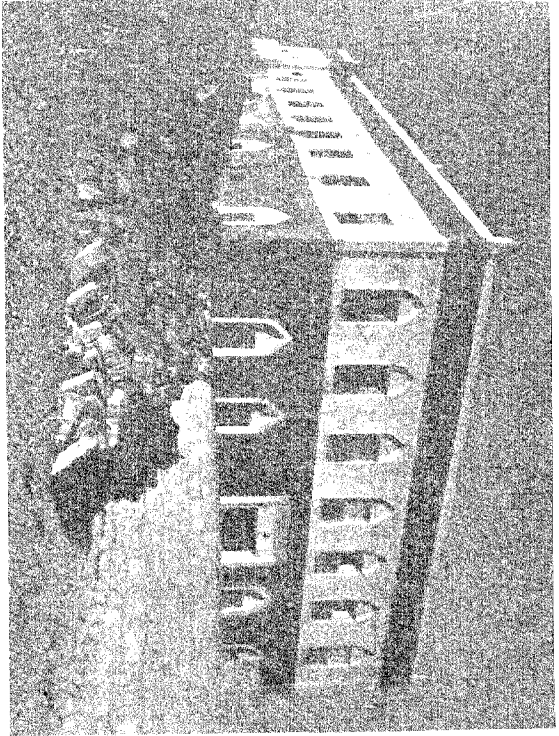
(لوحة رقم ٤٢)
حصن جبرين الذي يرجع تاريخه الى القرن ١٧ حيث يوجد به أجمل قصور حمان
مما جعلها مركزا هاما من مراكزها الدفاعية



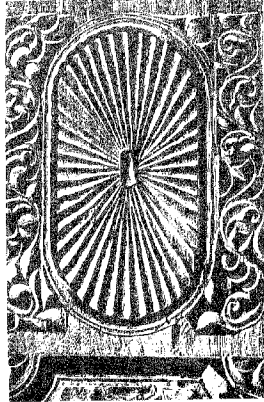
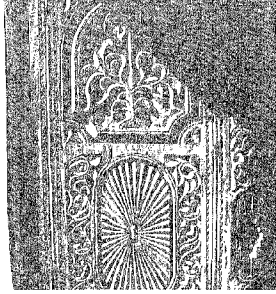
(الوحدة رقم ٤٤)
قلعة جبي



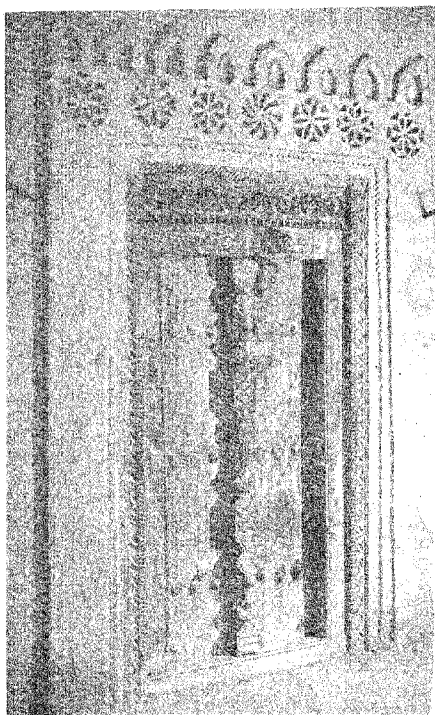
(الوحدة رقم ٤٥)
تأليف: يحيى



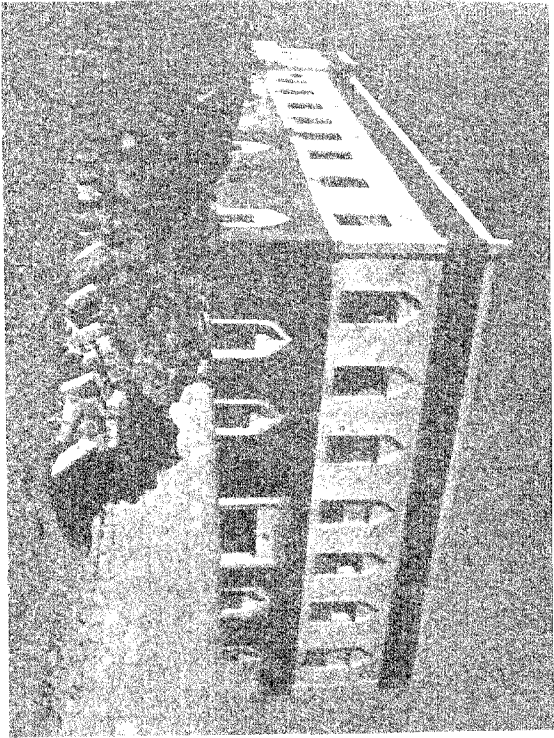
(الوجه رقم ٤٩)
بيت من القرن ١٨م في مدينة ابرا



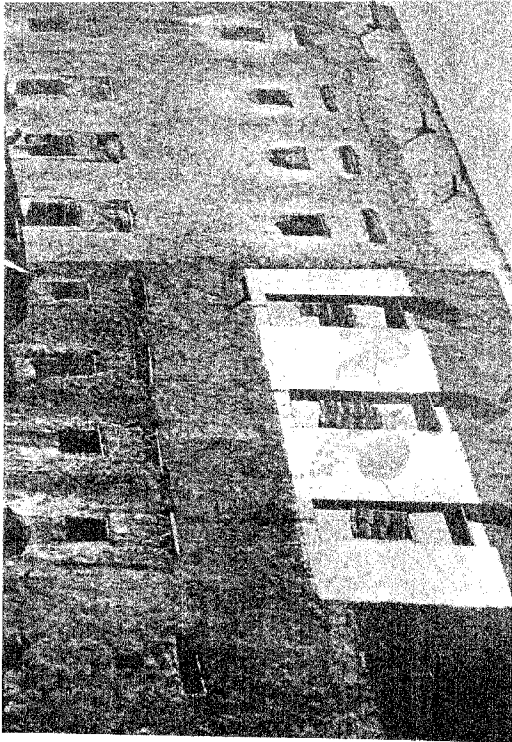
(لوحة رقم ٤٧)
زخرفة اخشاب منازل ابرا
بطريقة الحفر البارز والغائر
المتناثر بالاسلوب الصفوى



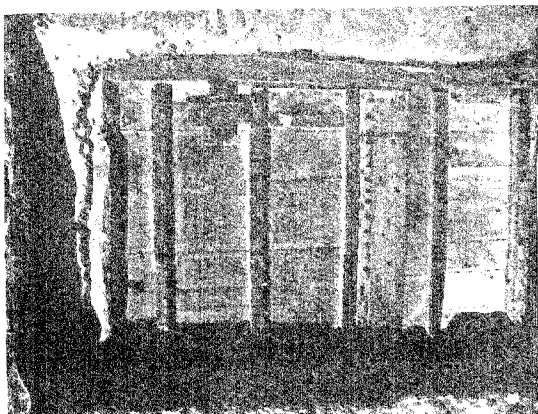
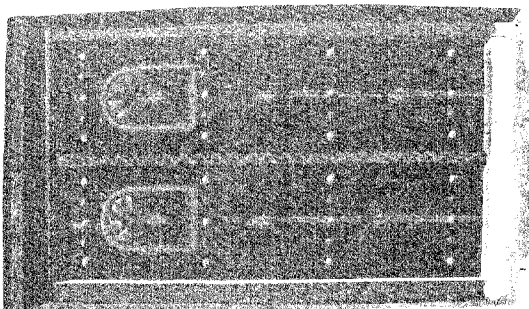
(لوحة رقم ٤٨)
باب أحد البيوت بمدينة ابرا



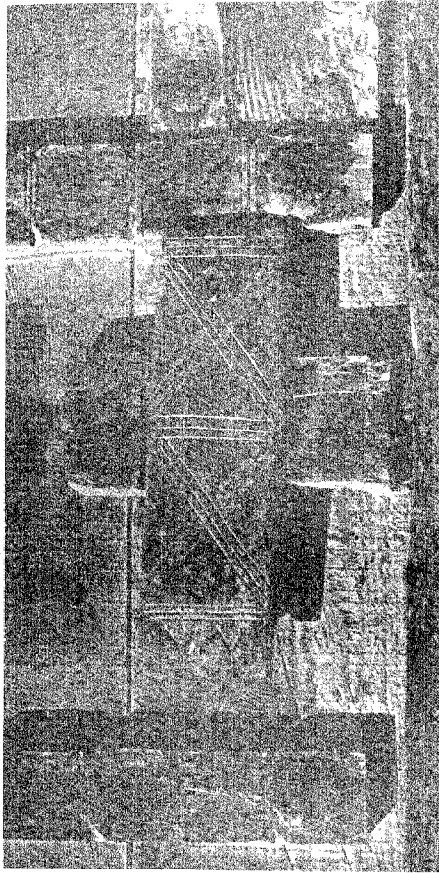
(لوحة رقم ٤٩)
أحد بيوت صلاة البسيطة التخطيط



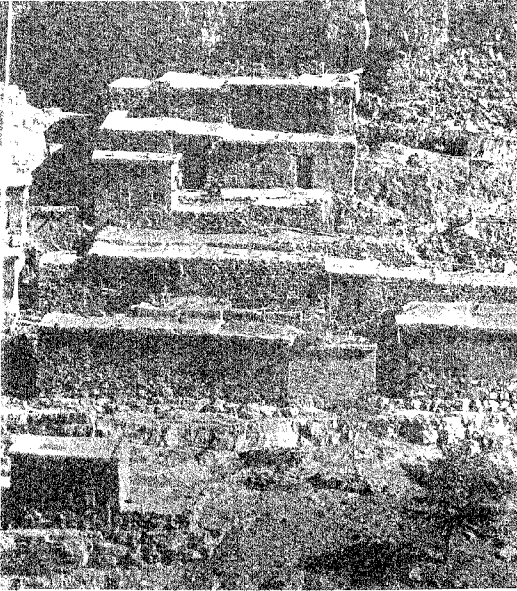
(الوحدة رقم ٥٠)
أحد منازل طافيلر



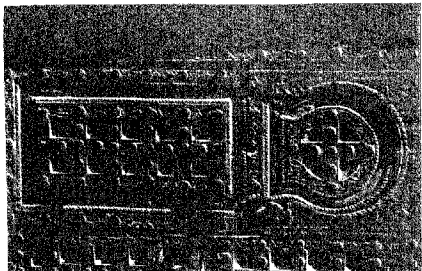
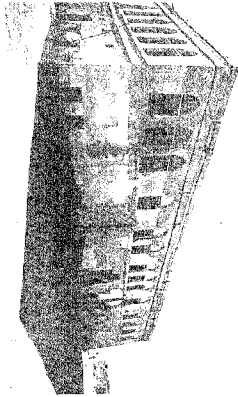
(الوحدة رقم ٥١)
نوافذ وفتحات الدور والمنازل بطنطا



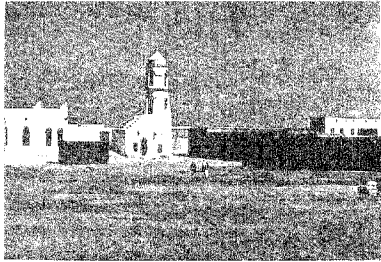
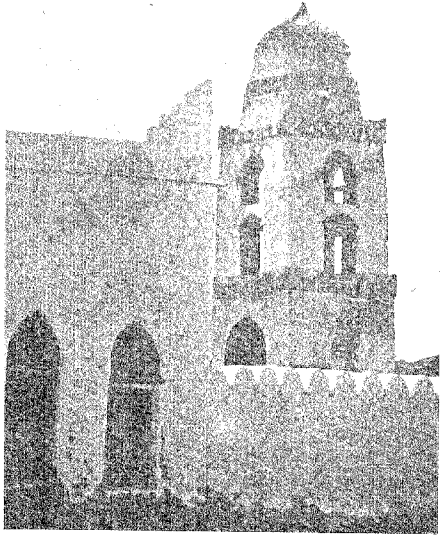
(لوحة رقم ٥٢)
نماذج من أبواب طائر الخشبية القديمة



(لوحة رقم ٥٣)
الدور المدرجة على سفح الجبل الاخضر



(لوحة رقم ٥٤)
منزل مدينة صور وأبوها



(لوحة رقم ٥٥)
منظران لمسجد صور القديم

المضارة الإسلامية
ودور العمانيين في تطهيرها
للأستاذ الدكتور أحمد شلبي

هناك مقدمات مهمة لدراسة الحضارة الاسلامية ينبغي أن نبدأ بها ،
هى :

المقدمة الأولى :

ما الحضارة ؟ وهل هى الثقافة أو المدينة ؟ .

الثقافة فى اللغة هى التهذيب والصقل ، يقال ثقّف الرمح أى قوّمه
وسواه ، ومعناها الاصطلاحى الرقى فى الأفكار النظرية ، وذلك يشمل
الرقى فى القانون والسياسة ، والاحاطة بقضايا التاريخ المهمة ، والرقى
كذلك فى الأخلاق والسلوك ، وأمثال ذلك من الاتجاهات النظرية .

وعلى هذا فالانسان المثقف هو الذى يستطيع أن يفصح عن إنسانيته
افضاحا يتحول به من شخص منسق بالغرائز والتقاليد الى شخص تحرر من
عبودية الغرائز والتقاليد وأصبح يتبع فكرا سليما ناضجا ، فالثقافة ترمى
الى الكشف عن آفاق الانسانية المتسامية .

والمدنية هى الرقى فى العلوم العملية التجريبية كالطب والهندسة
والكيمياء والزراعة والصناعة والاختراع الآلى ، وسمى الرقى فى هذه العلوم
مدنية لارتباط الرقى فيها بالمدينة والاستقرار ، اذ لابد للطب من مستشفيات
ولابد للهندسة من (ورشة) ولابد للزراعة من حقول تجارب وهكذا .

وعلى هذا فالمدنية تستهدف السيطرة على الطبيعة واخضاع ظروف
البيئة للانسان ، ومن هنا كانت الثقافة تحريرا للانسان وتقويما له ، وكانت
المدنية تعنى سيطرته على الأشياء وخلق وسائل منها لاسعاده .

ولا يستغنى الرقى فى العلوم التجريبية عن الحصول على قدر كاف من
العلوم النظرية الداخلة فى نطاق الثقافة ، ولذلك نعيب الطبيب أو المهندس

الذى لا يعرف قضايا التاريخ المهمة أو اتجاهات السلوك الضرورية ، ونَصَفَهُ بأنه غير مثقف ، ويعد ذلك وصفا قاسيا يحاول كل انسان أن يتحاشاه .

أما الحضارة فتشمل الرقى في المجالين جميعا ، فهي على العموم الانجازات التي تحققت للبشرية أو حققها البشرية ، فإذا تكلمنا عن حضارة المسلمين أو اليونان أو أوروبا ، كان المقصود الانجازات التي حققها هؤلاء أو أولئك في زمن معين ، وإبراز الدرجة التي انتهى إليها هؤلاء في درجات التقدم والتطور ، وشرح أحوال المجتمع الثقافية والفنية والعلمية والصناعية ، مع بيان طرق معيشته ، وذوقه ، وروحه العامة وطرق تفكيره ومستوياته المختلفة التي تطبعه بطابع مميز .

ولعل أحسن تعريف للحضارة هو ما ذكره ابن خلدون^(١) وهو أنها نمط من الحياة المستقرة ينشئ القرى والأمصار ، ويضفي على حياة أصحابه غنونا منتظمة من العيش والعمل والاجتماع والعلم والصناعة ، وإدارة شؤون الحياة والحكم ، وترتيب وسائل الراحة وأسباب الرفاهية .

ومن هنا اتجه القول الى أن الحضارة ارتباط بالضر ، وهي لا تكتفى بالاستقرار والمدينة ، وإنما تتطلع الى نظم أوسع تشمل عدة مدن ويعيش أصحابها متعاونين مستمتعين بهذه العلوم والفنون .

بيد أن في تعريف ابن خلدون لمة ينبغي الوقوف عندها ، فإن ابن خلدون يرى أن الحضارة نمط من الحياة المستقرة ينشئ القرى والأمصار . أى أن انشاء القرى والأمصار نتيجة للحضارة وليس أصلا لها ، ومعنى هذا أن

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .

الجماعة ترقى فكريا ثم ماديا ، أى تبدأ عندها مظاهر الحضارة ثم تستقر لتتبنى هذه الحضارة ، لأن نمو الحضارة يحتاج الى استقرار لتقوم العلوم التجريبية ، ولتشيد المعامل لتنهض الزراعة والصناعة ووسائل العمران •

وإذا كانت الحضارة تشمل الثقافة والمدنية ، أى تشمل الأخلاق والسلوك والمعارف النظرية ، كما تشمل العلوم التجريبية ، فإن دولة ما مهما ضربت فى مجالات التقدم المختلفة يمكن أن تسمى انها غير متحضرة لو أنها عبت بالقيم الانسانية ، أو كانت مستعمرة غاشمة أو ظالمة جائرة ، فكل ذلك يتنافى مع مدلول الحضارة •

وفى ضوء هذا البيان يكون من الخير أن يتجه الباحثون لدراسة « الحضارة الاسلامية » وألا يكتفوا بدراسة الثقافة الاسلامية أو المدنية الاسلامية ، لأنه فى ظل الاسلام وباسم مبادئه قامت حضارة عالية شملت الاتجاهات النظرية والاتجاهات التجريبية •

المقدمة الثانية :

عمان في التاريخ الاسلامى

عندما يتحدث الانسان في مسقط عاصمة عمان^(١) تتدفع لنفسه خواطر رائعة عن عمان ، فان لعمان مكانة خاصة في التاريخ العربى والتاريخ الاسلامى ، فان عمان هى الدولة الوحيدة بين الأقطار العربية التى كانت لها مستعمرات خارج المنطقة العربية ، مدّت نفوذها لها بعد السيف بعد أن طردت المستعمر الأوروبى منها ، وبقيت عمان في هذه البقاع برغبة سكانها لتحميمهم من أطماع الغرب التى بدأت تظهر عقب طرد البرتغال •

ويتصل بهذا أن نذكر لعمان بكثير من الفخر أنها قاومت البرتغاليين بدون معونة من أحد ، وهى بهذا تعد في صفوف الدول التى حطمت بالسيف قوى المستعمر العاشم ، وأذلته وألزمته أحيانا أن يدفع الجزية وأحيانا أن يستسلم •

ومن المواقف الحضارية التى تنصب لعمان دورها التجارى العظيم في دنيا ذلك الزمان ، فقد غطت تجارتها أكثر دول آسيا وافريقية ، وكانت لها السيطرة على أكثر بحار هذه المناطق ، كما كانت لها مراكز تجارية على جميع السواحل التى يرسو بها أسطولها التجارى العظيم ، وقد استمدت هذه الحركة التجارية النشطة تطهير ساحل ملبار من ألقراصنة الذين ينتمون الى مختلف الجنسيات الآسيوية والأوروبية ، وهكذا سبق العمانيون الانجليز الى تلك السياسة التى ترمى الى تأمين الملاحة التجارية في المحيط الهندى •

(١) التى هذا البحث في مسقط ضمن بحوث الندوة •

المقدمة الثالثة :

دور عمان في الحضارة الاسلامية

اننى أتحدث عن الحضارة الاسلامية ، والحضارة الاسلامية من العلوم التى عنى بها صدر السلام ، ثم اختفى هذا العلم فى عصور الظلام ، بالضبط كما احتوى الظلام تاريخ عمان فترة من الزمن حتى أصبح الكثيرون لا يعرفون عنها الا القليل أو لا يعرفون عنها شيئاً ، ولكن الجوهر الحر يستجيب لصقله ، وسرعان ما يعود للبريق واللمعان .

وهكذا نقف على منابر عمان لنسهم مع قادة عمان ومفكرها فى حركة البعث التى تعمل بجد لتعيد هذا القطر العربى الى مكانته وعزته ، كما نقف لقسمهم مع المفكرين المسلمين فى اعادة الحياة للحضارة الاسلامية ، فما أحوج المسلمين بل ما أحوج الجنس البشرى بأسره الى التعرف على هذه الحضارة التى لعبت بالأمس دوراً عظيماً لخدمة البشرية ، ولا يزال عليها دور كبير لتقوم به فى حاضر البشرية ومستقبلها .

ومن الواضح أن الحضارة الاسلامية تتخذ أسسها من القرآن الكريم وأحاديث الرسول كما سنرى ، ولكن المفكرين المسلمين التقطوا هذه الأسس وشيدوا عليها صرح دراسة واسعة عن هذه المادة ، وكان لعلماء عمان ومفكرها فى العصور الأولى دور مهم أسهموا به فى بناء صرح هذه الحضارة الاسلامية ، وقد تنوع الدور الذى قام به العمانيون الأوائل ، وفى مجال التشريع والقضاء يقف كعب بن مسور بين القضاة المجتهدين ، وفى مجال الحرب والسلام وفنون القيادة العسكرية يتألق المهلب بن أبى صفرة ، وفى مجال الأدب وفنون الكتابة يزدهى العالم واسع الصيت أبو العباس المبرد ، وهناك علم العروض وهو برمته من وضع العالم العماني خليل بن أحمد الذى لم يُعْرَف من البحور بعده الا المتدارك ، أما فى مجال التجارة

والبحرية فقد سبق أن ذكرنا أن للعمانيين قصبَ السبقَ فيهما ، وهكذا لا يوجد ميدان حضارى لم يسهم فيه أساطين عمان وعلماءها •

وهناك جانب حضارى كان لعمان فيه قصبُ السبق ، ذلك هو الجانب المعمارى ، فموقع عمان الاستراتيجية استلزم بناء كثير من الحصون والقلاع لتحمل عمان من الطامعين والمعتدين ، ولا تزال هذه الحصون شامخة تدل على براعة الذى اقترح والذى رسم والذين نفذوا •

علماء عمان يخدمون الحضارة بطريق غير مباشر :

وينبغي أن يتضح أن المسلمين الأول كانوا في كثير من الأحوال يخدمون الفكر الاسلامي عن طريق الدراسة الجماعية ، وقد ظل الحال كذلك حتى النصف الثاني من القرن الهجري الثاني حيث بدأ يظهر العلماء الذين يجمعون أفكار السابقين ويضيفون اليها من فكرهم وينسبون هذا العمل الى أنفسهم ، وان كان هؤلاء في الحق لم يغطوا حق السابقين ، فقد جرت عادتهم أن ينسبوا كل قضية الى الذين يناقشوا فيها وكل مسألة الى كل من أفتى فيها برأى ، وعلماء عمان كانوا ضمن الجماعات التي أسهمت في النشاط الاسلامي الأول الذي كان العلماء فيه يتجاهلون أنفسهم ويهتمون بالفكر وتطويره ، وكان علماء عمان أيضا ضمن الذين ابتكروا وكتبوا في عصور التدوين ونسبوا الكتابة لأنفسهم كما ذكرنا بعضهم من قبل •

ربما يخطر ببال أحد أن المبرد مثلا أو الخليل بن أحمد عاش في بلاد غير عمان ، ولكن هذا شيء طبيعي فقد كانت بلاد الاسلام آنذاك وطنا واحدا لم تقف فيه حدود لتفصل بعض أجزائه عن البعض الآخر ، بل أن العلماء الموهوبين كانت تجتذبهم العواصم الكبرى ومراكز الخلافة حيث كانوا يجدون فرصا أوسع للشهرة والمجد ، وحيث كانت أعمالهم العلمية تجد وسائل أيسر للنشر والذيع •

وعلى هذا يمكننا أن نقرر أن اصبح العمانيين عرفت طريقها الى أكثر البحوث والدراسات الحضارية بطريق مباشر أو غير مباشر •

المقدمة الرابعة :

عمان وحركات التمرد في عهد أبي بكر

أسجل هنا غير المؤرخين العمانيين المحدثين ، تلك الغيرة المحمودة التي تحاول أن تفسر الأحداث بما يؤكد تمسك العمانيين بالاسلام وعدم انحرافهم عنه في أى عصر من العصور •

فقد أورد ابن الأثير^(١) أنه بين حركات التمرد التي قامت في عهد أبي بكر الصديق حركة قامت في عمان بزعامة رجل اسمه ذو التاج (لقيط بن مالك الأزدى) ، وأرسل أبو بكر جيوشه التي دكت الجزيرة العربية للقضاء على هذه الفتن وكان الجيش الذى أرسل الى عمان بقيادة حذيفة بن محسن من حمير ، وأرسل أبو بكر الى عكرمة بن أبى جهل بعد أن اشتبك في القضاء على مسيلمة الكذاب أن يلحق بحذيفة ، ودارت معركة بين جيوش أبى بكر وبين المتمردين ، انتصر فيها المسلمون انتصارا عظيما ، وتسمى هذه المعركةوقعة « دبا » وقد انضم للمسلمين فيها من العمانيين بنو ناجية بقيادة الخريب بن راشد ، وبنو عبد القيس بقيادة سيحان بن صوحان •

ولكن المؤرخ العماني السالمى يهاجم ابن الأثير وروايته ، ويرى أن كلامه باطل لا أصل له ، ويقرر أن سبب هذه الواقعة ان امرأة من بنى الطارث بن مالك بن فهد كان عليها أن تدفع الزكاة لعامل الزكاة ، ولكنها دفعت أقل مما كان يجب أن تقدمه ، فأخذ عامل الزكاة منها حق المسلمين غير مكترث برأيها فاعتبرت المرأة هذا غصبا وعدوانا ، وصرخت يا لآل مالك ، وكانت دعوة

(١) الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٤٣ •

جاهلية استجاب لها بعض الناس دون تمحيص ، وصارعهم حذيفة وكان أمير الصدقات ، وقامت حرب ليست واسعة انتصر فيها الجانب الاسلامي (١) .

ولم يذكر السالمى مرجعا لرأيه ، ولكن الذى يهمنا أن السالمى لم ير أن بلاده صارت الخلافة أو خرجت على الفكر الاسلامى ، فراح يتلمس الوسائل لحرب دارت في تلك العصور المتقدمة ، ولعل مما يؤيد كلام السالمى تلك العبارة الطيبة التى قالها أبو بكر الصديق لوغد عمان عندما قدموا عليه عقب توليته الخلافة وهذه العبارة هى :

« انكم يا معشر أهل عمان أسلمتم طوعا ، فجمع الله على الخير سملكم فقد بعث الرسول صلوات الله عليه لكم عمرو بن العاص بلا جيش ولا سلاح فأجبتموه اذ دعاكم مع بعد داركم ، وأطعتموه اذ أمركم على كثرة عددكم ، فأقام فيكم عمرو مكرما ما أقام ، وكنتم على خير حال حين أتتكم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأظهرتم ما يضاعف فضلكم ، وقمتم مقاماً حمدناكم فيه » (٢) فهذه العبارة تدل على كمال طاعة أهل عمان في مطلع عهد أبى بكر ، فهى تؤكد كلام السالمى . وعلى كل حال فان كلام السالمى فيه ما يسمى في البلاغة العربية بحسن التعليل .

(١) تحفة الاميان ج ١ ص ٥٣ — ٥٤ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٤٧ ، ٤٨ .

المقدمة الخامسة :

الحضارة الإسلامية هي المنقذ للمجتمع الاسلامى المعاصر

عندما تقدم للمجتمع الاسلامى صورة التصور الحضارى فى الفكر الاسلامى فاننا نقدم قاعدة انطلاق مهمة ، ونرسم خططا واضحة تحمل هداية الاسلام للمساكين ورشده للسائرين •

ومن الواضح أن العالم الاسلامى يمر الآن بفترة خطيرة ، ويعلن زعماءه من حين الى آخر عن رغبة فى التطور فى المجالات السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، وأحيانا عن رغبة فى تحقيق دور أكبر للمرأة المسلمة واصلاح النظم التعليمية ، ونحن نتساءل : ما الأساس الذى سيثبته عليه هؤلاء اصلاحاتهم وتطورهم ؟ وهل سيتبنون حضارة الغرب أو الشرق ؟ •

ان الواقع يؤكد لنا أن هاتين الحضارتين عجزتا عن خلق الهدوء النفسى والأمن ، وعجزتا عن خلق الاستقرار فى الأسرة والقضاء على انحلالها الذى يزيد انتشارا من يوم الى يوم ، وعجزتا عن القضاء على القلق الذى يدفع للمساوس والحقود والدمار ، ومن أجل هذا ينبغي أن نعود الى الاسلام ونتخذ من الحضارة الاسلامية أساسا لانطلاقنا ، وقاعدة لتطورنا ، وسنستمدنا الحضارة الاسلامية بالعناصر المهمة فى جميع المجالات التى تكفل بحسن علاقة الانسان بربه وحسن علاقة الانسان بالانسان والمجتمع •

المقدمة السادسة :

الحضارة الاسلامية هبة الاسلام لكل البشر

وبادئ ذي بدء نقرر أن الحضارة الاسلامية هبة الاسلام للجنس البشرى كله ، فهي ترسم في مجالات السياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية وغيرها أوضح طريق لسعادة الناس على اختلاف عقائدهم وأديانهم ، ثم ان بعض جوانب هذه الحضارة وهو جانب الحضارة التجريبية كالطب والرياضة والفلك والموسيقى قد أسهم غير المسلمين في تطويره بقسط كبير ومن هؤلاء جورجيس بن بختيشوع (٧٧١ م) وابنه بختيشوع بن جورجيس (٨٠١ م) وجبريل تلميذ بختيشوع (٨٠٦ م) ويوحنا بن ماسويه (٨٥٧ تقريبا) وحنين بن اسحق (٨٧٣) ، وقد عمل هؤلاء في الترجمة بتشجيع الخليفة المسلم ورعايته ، وأصبح الأخيران بالتوالي رئيسين لبيت الحكمة في عهد المأمون .

وكانت محاضرات الحضارة الاسلامية تلقى علينا بجامعة لندن وكمبردج وكان الطلاب يتبعون ديانا مختلفة ، وطالما كانت هذه الحضارة تلاقى في نفوس الطلاب كل اعجاب وتقدير .

ثم اننا سنرى فيما بعد أن الحضارة الاسلامية انتقلت من العالم الاسلامي الى الهند والصين وأوروبا ، ثم من أوروبا الى العالم كله ، وأسهمت بنصيب كبير في خلق مايعرف بعصر النهضة ، وسنقدم فيما بعد اعترافات الغربيين بذلك .

وكل هذا يؤكد ما ذكرناه آنفا من أن الحضارة الاسلامية هي منحة الاسلام للجنس البشرى كله .

ما الحضارة الاسلامية ؟ :

بعد هذه المقدمات المهمة نخطو للحديث عن الحضارة الاسلامية ،
ونبدأ بأن نتساءل : ما الحضارة الاسلامية ؟ •

في الاجابة عن ذلك نقرر أن الحضارة الاسلامية هي الارشادات
والتعاليم التي قدمها الاسلام للمجتمع البشرى ليرفع شأنه ويعلى قدره
تحقيقا لقوله تعالى « ولقد كرمنا بنى آدم » (سورة الاسراء - الآية ٧٠)
وهي كذلك الانجازات التي تحققت على يد المسلمين استجابة للدافع
الاسلامى الذى حثهم على العلم والعمل لخير البشرية •

وتشمل الحضارة الاسلامية تعبيرين شائعين هما الثقافة والمدنية كما
ذكرنا من قبل ، فالثقافة هي الرقى في الأفكار النظرية كالقانون والسياسة
والتاريخ والاقتصاد والأخلاق ، وغيرها ، والمدنية هي الرقى في الأفكار
العملية التجريبية كالطب والرياضة والفلك والزراعة والموسيقى وأمثالها •

واذا كان القرآن الكريم وأحاديث الرسول قد قدما قيضا من الفكر
لخلق ثقافة اسلامية رفيعة الشأن ، فإن هذين المصدرين أعانا على التقدم
العظيم في مجالات العلوم التجريبية بالحث على طلب العلم والمعرفة في
مختلف فروع العلم والمعرفة ثم بالحث على استغلال هذا العلم في خدمة
الانسان وعمران الكون الذى سخره الله لنا •

ومن أدلة الحث على العلم نذكر ما يلي :

— هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (الزمر ٩) •

— انما يخشى الله من عباده العلماء (فاطر ٢٨) •

— يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات

(المجادلة ١١) •

— قول الرسول صلوات الله عليه : يوزن يوم القيامة مداد العلماء
بدم الشهداء •

— والقول المأثور : اطلبوا العلم ولو في الصين •

وليس المقصود بالعلم في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة هو العلوم
الدينية فقط بل كل العلوم التي تنفع الانسان اذ لم يكن بالصين علوم
دينية يطلبها المسلم •

ومن أدلة استغلال هذا العلم في عمران الكون وخدمة الانسان نورد
ما يلي :-

— هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه
(سورة المالك — الآية ١٥) •

— وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه
حلية تلبسونها (سورة النحل — الآية ١٤) •

— وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه
(سورة الجاثية — الآية ١٢) •

— قيل للرسول أرأيت دواء نقتاوى به ، هل يرد من قدر الله شيئا ؟
فقال : هو من قدر الله •

وعلى هذا فان نشاط المسلمين الذى سنراه فيما بعد فى مجال العلوم
التجريبية كان بسبب هذا الدافع الاسلامى القويم •

بقى أن نذكر أن الحضارة تشمل الثقافة والمدنية جميعا ، ومن أجل
هذا غاننا نحرص على أن نتكلم عن الحضارة الاسلامية ، ولا نقنع ولا نرتضى
أن نتحدث عن الثقافة الاسلامية كما يتجه بعض الناس أو عن المدنية

الاسلامية كما ينتجه آخرون فالحضارة الاسلامية أشمل ، وهى منحة
الاسلام لخير البشرية •

ولنخط بعد ذلك خطوة فيها بعض التفصيل لما أجملناه من قبل :

« أنواع الحضارة الاسلامية »

الحضارة الاسلامية ثلاثة أنواع هى :

١ — حضارة الدول (أو حضارة التاريخ) •

٢ — الحضارة الاسلامية الأصيلة (أو حضارة الابتكار والخلق
والإبداع) •

٣ — حضارة البعث (أو الحضارة التجريبية) •

وسنتكلم فيما يلى عن كل منها على حدة ، ولكننا نبادر فنصح خطأ
طال مداه ، فقد كان هناك اتجاه سائد يرى أن الحضارة الاسلامية هى
ما وصل له المسلمون من تقدم فى مجال العمران أو فى مجال الطب والرياضة ،
وهذا خطأ واضح ، فارقى ما قدمته الحضارة الاسلامية للبشرية هو ما
أسميناه الحضارة الاسلامية الأصيلة ، وهى تلك الحضارة التى جاء بها
الاسلام ولم تكن موجودة قبل الاسلام كالنهج الاسلامى فى السياسة
والاقتصاد والتربية والتعليم ... وبعد هذا التصحيح المهم ننتقل للحديث
عن أنواع الحضارة بشىء من التفصيل :

١ — حضارة الدول أو حضارة التاريخ

حضارة الدول أو حضارة التاريخ ، هي الحضارة التي قامت بها دولة من الدول الاسلامية لرفع شأن الانسان وخدمته ، والحديث عن هذه الحضارة يلزم أن يقوم به معلم التاريخ وأن يعنى به عناية تامة ، فإذا درس تاريخ الدولة الأموية أو العباسية أو الفاطمية أو السعودية أو دولة بنى يعرب أو البوسعيدين ... كان عليه أن يقف عقب الانتهاء من دراسة الأحداث وقفة كافية يشرح فيها ما قدمته هذه الدولة في مجال الحضارة ، أى ما قدمته لخدمة المواطن بوجه خاص ، أو الانسان المسلم بوجه عام أو الجنس البشرى بوجه أعم ، ويشمل ذلك جهود الدولة في الميدان الاقتصادى (الزراعة والتجارة والصناعة) وفي ميدان التربية والتعليم ، وفي ميدان الصحة ، وفي ميدان الأمن بالداخل والأمن من العدوان الخارجى . وغير ذلك من الميادين .

وهذا النوع من الحضارة مرتبط — كما قلنا — بالتاريخ وجزء مهم من أجزائه ، ولذلك أشرنا هنا له هذه الاشارة العابرة وسنتخطاه الى النوعين الآخرين ، اللذين يكونان الحضارة الاسلامية المستقلة الكيان .

٢ — الحضارة الاسلامية الاصلية

(حضارة الابداع والخلق والابتكار)

الحديث عن هذا النوع من الحضارة يشمل عدة نواح هي تبيان النهج الاسلامى في السياسة ، وفي الاقتصاد ، وفي التربية والتعليم ، وفي الحياة الاجتماعية ، وفي السلم والحرب ، وفي القانون والقضاء ، وفي حرية التدين ، وحقوق المرأة والقضاء على الرق ، وسنتحدث فيما يلى عن اتجاهات الاسلام تجاه هذه الموضوعات :

« الاسلام والسياسة »

قبل الاسلام كان التفكك سائدا ، وكانت القوة هي الوسيلة ليصل الانسان الى الحكم ، وكان الحاكم هو مالك الاقطاع وصاحب الثراء ، ولم يكن هذا ملتمزا بأن يستشير ، ولا بأن يتبع الاستشارة ان قدمت اليه ، ولم تكن الشعوب تستطيع عزل الحاكم ان حاد عن الحق أو ظلم ..

وجاء الاسلام فعنى بالسياسة عناية عظيمة ، ووضع لها الحدود والقوانين ، وقدم للبشرية في هذا النطاق أكثر النظم رسوخا وقائدة ، وأول ما عنى به التفكير الاسلامي في نطاق السياسة أن ألزم قيام حكومة تدبر أمور الناس وتنظم شئون المجتمع الاسلامي ، وقد أجمعت المصادر الرئيسية على ذلك ، فمن كلام الله الكريم قوله تعالى :

— يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم •
(سورة النساء : الآية ٥٩)

— ولو رددوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم •
(سورة النساء : الآية ٨٣)

ومن أحاديث الرسول قوله :

— من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية •

— اذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم •

— لا يحل لثلاثة يكونون في غلاة من الأرض الا أمروا عليهم أحدهم •

— ان أحب الناس الى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا امام عادل ، وأبغض الناس الى الله وأبعدهم منه مجلسا امام جائر •

ومن أقوال السلف الصالح :

— قول أبى بكر عقب وفاة الرسول : ••• ان محمداً مضى بسبيله ، ولا بد لهذا الدين ممن يقوم به •

— وقول عمر بن الخطاب : لا اسلام الا بجماعة ولا جماعة الا بامارة ، ولا امارة الا بطاعة •

والحكومة الاسلامية تقوم بعمل له شقان ، الشق الاول تعليم المسلمين الأحكام والشق الثانى انزال العقوبة بمن يخالف هذه الأحكام •

وليس كل فرد مسلم يستطيع أن يكون خليفة أو رئيسا ، فقد وضع التفكير الاسلامى شروطا لمن يتحمل هذه المسئولية ، ومن هذه الشروط العدالة ، والعلم المؤدى للاجتهاد ، وسلامة الحواس ، وسلامة الأعضاء والشجاعة ، ويهتم التفكير الاسلامى اهتماما كبيرا بشرط العدالة ويراه قمة الشروط اللازمة للخليفة أو الرئيس ، وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

— ما من عبد يستترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاشى لرعيته الا حرم الله عليه الجنة •

— اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئا ففرق بهم فارقق به •

ويروى أبو عبيد تعليقا مهما لأحد العلماء على هذا الشرط ، بقوله :
ان الامام العادل يسكت الأصوات عن الله : وان الامام الجائر لتكثر منه
الشكايا الى الله (١) .

ويقوم أهل الحل والعقد باختيار الرئيس ممن تتوافر فيهم شروط
الخلافة ، ويسير الخليفة أو الرئيس في حكم المسلمين على النمط الذي
حدده الاسلام وهو الشورى ، قال تعالى : « وشاورهم في الأمر » (٢)
وقال « وأمرهم شورى بينهم » (٣) .

ويرى الفكر الاسلامي أن قلة مرتب العامل قد تدفعه الى الشطط ،
ولذلك اتجه المفكرون المسلمون الى اعطاء العامل مرتبا فيه نوع من السخاء ،
حتى يرتفع بذلك عن الشبهات وفي ذلك يقول الامام على : « ان على ولي
الأمر أن يفسح لمعامله في البذل لتزول بذلك علته وتقل معه حاجته الى
الناس . ويخاطب الامام على ولي الأمر بقوله : أسبغ على ولاتك الأزرار ،
فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، ومنع لهم عن تناول ما تحت
أيديهم ، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو نقضوا الأمانة » (٤) .

(١) كتاب الأموال : ص ٦ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

(٣) سورة الشورى : الآية ٣٨ .

(٤) نهج البلاغة : ص ٣٤٠ .

الحكومة الاسلامية بين الحكومات المعروفة

بقى بعد ذلك أن نورد مقارنة بين الحكومة الاسلامية وبين الحكومات في النظم الأخرى المعروفة كالحكومة الديكتاتورية والحكومة الديمقراطية ، والحكومة الشيوعية ، ولنبدأ حديثنا متسائلين :

— من الحكومة الاسلامية ديكتاتورية ؟ •

— هل الحكومة الاسلامية ديمقراطية ؟ •

— هل الحكومة الاسلامية ثيوقراطية ؟ •

لن الاجابة عن هذه الأسئلة ليست عسيرة بعد ما قدمنا من دراسات ، ويمكن القول دون أى تردد أن العناصر التي أوردتها الاسلام للحكومة الاسلامية ، والتي أوجزناها في هذا البحث ، تقودنا الى نتيجة حاسمة ، هي أن النظام الاسلامي له طابعه الخاص ، وله مميزاته وخصائصه التي تجعله لا ينضوى تحت أى من النظم الأخرى لأية حكومة من الحكومات ، وسنسوق فيما يلي بياناً به شيء من التفصيل لهذا الاجمال •

الاسلام والنظام الديكتاتوري :

ولعل أكثر النظم بعدا عن النظام الاسلامي هو النظام الديكتاتوري ، فعناصر النظام الاسلامي هي — كما سقناها آنفاً — حق الشعب في اختيار حاكميه وحقه في نقدهم ، وواجب الشورى ، وحقه في عزلهم • وهذه العناصر لايتيحها النظام الديكتاتوري •

الاسلام والنظام الديمقراطي :

وتأتى بعد ذلك الحكومات الديمقراطية ، وهى — ان صحت فيها الديمقراطية — قريبة الشبه بالنظام الاسلامى ، فكلاهما يجعل الاختيار أساس قيام الحكومة ، ويحتم الشورى فى الحكم ، ويبيع للشعب عزل الحكومة لو جدت ظروف تستدعى العزل • ولكن تبقى نقاط مهمة تفرق بين النظام الديمقراطى والنظام الاسلامى وهذه النقاط هى :

١ — تضع الحكومة الديمقراطية للناس مقاييس الرذائل والفضائل ، ولكن الحكومة الاسلامية لا تضع هذه المقاييس ، بل ان الشرع الاسلامى هو الذى وضعها وعلى الناس اتباعها ، وقد جعلت الديمقراطية الغربية الاستعمار فضيلة ، والتفرقة العنصرية فضيلة ، وجعلت العدالة مع الشعوب المستعمرة رذيلة وهكذا ••

٢ — تشرع الحكومة الديمقراطية للناس فى مختلف الشؤون ، ولكن الحكومة الاسلامية ليس لها أن تشرع فيما شرع الله ، فيه ، فليس لها مثلا أن تغير فى نظام الميراث الذى ورد به نص صريح ، ويكون تشريعها فيما لم يرد فيه نص دائرا فى نطاق التفكير الاسلامى العام •

٣ — يختار الشعب رئيسه فى النظام الديمقراطى غير مقيد بقيد ، ولكن الشعب فى الاسلام لا يجوز له أن يختار الا من اجتمعت فيه شروط معينة سبق ذكرها •

الاسلام والنظام الثيوقراطى :

بقى بعد ذلك الحديث عن الحكومة الثيوقراطية ، ويخيل لبعض الناس أن النظام الاسلامى نظام ثيوقراطى ، ومرجع هذه الشبهة أن كلا منهما له صلة بالدين ، ولكن الحقيقة أن الفرق بينهما شاسع ، لأن الثيوقراطية حكم رجال الدين الذين يدعون الصلة بالله وتلقى الوحي منه على مر الزمن ، ومن هنا لا يقبلون مناقشة أحد ، أما الحاكم المسلم فلا يتلقى وحيا من الله ويلزمه المشورى ويوضح Sir Thomas Arnold ^(١) هذا الفرق بقوله :

ان البابا مميز بسلطاته الروحية ، ووظائفه الدينية ، وهو يقود أرواح الناس ، وليس شخصا مسيحيا عاديا . بل ان له سلطة دينية خاصة يستطيع بها أن يشرع ، وأن يغفر السيئات . أما الخليفة فلا يوحى اليه ، ولا يشرع ، وليس الامنفذا لأحكام الدين ، وان سلطة تفسير الآيات القرآنية والأحاديث متروكة للعلماء ، وان الامامة فى الصلاة التى تعود للخليفة أن يتولاها كان من الممكن أن يقوم بها أقل فرد من المسلمين .

والبابا عند المسيحيين له سلطان الهى ، فهو ينفرد بتلقى الشريعة من الله ، وله حق الأثرة بالتشريع ، وله فى رقاب الناس حق الطاعة ، لا بالبيعة وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة بل بمقتضى الايمان . فليس للمسيحي مادام مسيحيا أن يخالفه ^(٢) .

أما تلقى الشريعة فى الاسلام فمن القرآن والحديث بدون توسط أحد من سلف أو خلف مادام المسلم قد حصل على الوسائل الثقافية التى تؤهله للفهم ، فان لم يكن قد حصل على هذه الوسائل فما عليه الا أن يسأل المعارفين بها من المسلمين ، وله أن يطالب المسئول بالدليل ^(٣) .

(١) Preaching of Islam p. 306.

(٢) الامام محمد عبده : الاسلام والنصرانية ص ٦٧ وانظر كتاب « المسيحية » من سلسلة مقارنة الاديان للمؤلف .

(٣) المرجع السابق ص ٦٤ — ٦٥ .

تلك دراسة عن السياسة في الاسلام اتجهنا فيها الى شئ من التفصيل
للإبانة والايضاح ، وسنتجه فيما يلي للإيجاز حتى تظل دراستنا في نطاق
الحدود المعينة لحجم البحث .

« الاسلام والاقتصاد »

إذا جئنا الى الاقتصاد وجدنا أن الاسلام جاءت فيه نظم اعتبرت
آنذاك ثورة على الفكر البشري الذي كان سائدا ، فقبل الاسلام كان
الفقير هو الذى يدفع الضريبة للغنى من جهده أو ماله ، فإذا تردد دفع
دمه فداء ترده ، فلما جاء الاسلام جعل الضريبة واجبة على الغنى لصالح
الفقير ، وحدد القدر الواجب على الغنى دفعه للفقير ، ولم يترك ذلك
لرغبته ، كما حدد الوقت الذى يجب أن تخرج فيه الزكاة دون تأخير ،
قال تعالى :

- في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم .
- وآتوا حقه يوم حصاده .

ولزم الفقير بالعمل ، فان عجز أو هرم التزمت الدولة أو الأغنياء
بحاجته ، واعترف الاسلام بالملكية الفردية ، غفى تقرير الملكية الفردية مجال
للتنافس الذى يسبب الخير للجميع ، واعترف كذلك بالتفاوت في هذه الملكية
قال تعالى : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق »^(١) ، وقال :
« ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر »^(٢) ، وقال : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم
فى الحياة الدنيا ورغنا بعضهم فوق بعض درجات »^(٣) .

(١) سورة النحل : الآية ٧١ .
(٢) سورة الرعد : الآية ٢٥ .
(٣) سورة الزخرف : الآية ٣٢ .

ويقرر علماء الاسلام أن التفاوت في المال طبيعي جدا لأن الناس متفاوتون فيما هو أفضل من المال كالصحة والذكاء ، ومتفاوتون في مدى نجاح الزواج والجوار ، وفي الجمال والصوت فكيف نمنع التفاوت في المال ؟ •

ونظم الاسلام تكافؤ الفرص لتنقل هذه الملكية من يد الى يد ، كما وضع نظام الميراث لتفتيتها من حين الى حين حتى لا يجتمع الغنى في أيدي قليلة فيضر ذلك بالمجموع •

« الاسلام والتعليم »

وفي مجال التربية أعلن الاسلام لأول مرة في تاريخ البشرية أن العلم حق للجميع ، وكان العلم قبل ذلك خاصا بالكهنة ولاحق لسواهم في طلبه ، فارتفع هذا التخصيص بالآية الكريمة « غلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم »^(١) فأصبح المسلمون جميعا ما بين معلم ومتعلم ، وقال صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ولم يكن المقصود بالعلم العلوم الاسلامية فقط لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث آخر « اطلبوا العلم ولو في الصين » والمقصود مهما بعدت الديار ومهما كان نوع العلم ، مادام مفيدا للبشرية وقد أشرنا لذلك من قبل •

واهتم الاسلام اهتماما كبيرا بالتربية الاسلامية ، وكان مفهوم التربية عند المسلمين يشمل فلسفة التربية كما يشمل النظم التعليمية ، والحضارة الاسلامية واسعة الثراء في مجال التربية ، وهي تهتم بالانسان في هذا

(١) سورة التوبة : الآية ١٢٣ .

المجال من المهد الى اللحد ، فهناك أخلاق وعلوم تتقدم لكل جيل من الأجيال ، وقد اتسعت معاهد العلم عند المسلمين فشملت القصور وحوانيت الوراقين ، ومنازل العلماء ، والصالونات الأدبية بالاضافة الى المعاهد والجامعات ، كما كانت البادية والمسجد معهدين مهمين ، ففى البادية ازدهرت علوم اللغة العربية ، وفى المسجد ازدهرت شتى الدراسات ، واهتمت التربية الاسلامية بالكتاب اهتماما عاليا ، فأعلنت قدره ، ورفعت مكانته ، كما كانت المكتبات معاهد للعلم فى كثير من البلدان •

وعنيت التربية الاسلامية ، بأن يتلقى الطلاب العلم من المعلمين ، لا من الصحف والكتب ، كما اهتمت بضرورة تقديم غن التربية للمدرس بحيث لا يكون عالما فقط ، بل بحيث يستطيع فى يسر توصيل أفكاره الى مريديه •

وتحدثت التربية الاسلامية أحاديث فياضة عن التعاون بين البيت والمدرسة فى تربية التلميذ ، وعن الاجازات العملية ، والعقوبات والجوائز والمكافآت وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص فى التعليم عند المسلمين ، وتوجيه التلاميذ حسب مواهبهم ، كما تحدثت الفكر الاسلامى عن الأوقاف على التعليم ، وعن مراحل التعليم ، ونظام الداخلية بالمدارس ، والرحلات لطلب العلم ، وتعليم المرأة ، واهتم الفلاسفة المسلمون بالحديث عن رياضة الأطفال ، والوسائل التى تتخذ لغرس الخلق الطيب فى قلب الطفل الذى يمثل جوهره نفسية ساذجة ينقش عليها المعلمون أفكارهم وثقافتهم ، كما اهتموا اهتماما واسعا بالسلوك وبلغ من اهتمامهم به أن فضلوهم على العلوم ^(١) •

(١) انظر فى ذلك « التربية الاسلامية : نظمها — فلسفتها — تاريخها »
للمؤلف .

« الاسلام والحياة الاجتماعية » (*)

حفلت الحياة الاجتماعية في الاسلام بمباحث اجتماعية مهمة ترتبط بالأسرة وبالمجتمع وبالمال ، ومن المباحث الاجتماعية التي ترتبط بالأسرة دراسات مفيدة عن الزواج ودوافعه وأهدافه ، وعن الخطبة والمهر والعقد ، وعن الأولاد والتسوية بينهم في العطاء والمعاملة ، وعن زوجة الأب والحماة ، والختان وتحديد النسل ، والتلقيح الصناعي والتكافل بين أفراد الأسرة •

وعن المباحث الاجتماعية المرتبطة بالمجتمع ، تقدم الحضارة الاسلامية رأى الاسلام في رعاية المال العام وحمايته ، ورأيه في الأعياد والأفراح والمآتم والأولياء والموالد وصناديق النذور ، وفي الخمر والمخدرات والدخان ، وغير ذلك من المباحث المهمة •

ومن المباحث الاجتماعية في نطاق المال ، تقدم الحضارة الاسلامية دراسة رائعة عن الربا والبنوك ، والشركات والأسهم ، وما شابه ذلك •

وفي مجال التشريع الاجتماعي كذلك حدد الاسلام عدد الزوجات ولم يكن عدد الزوجات قبل الاسلام محددًا ، ووضع الاسلام نظام الميراث الذي أنصف كل الأطراف •

(*) يراجع كتاب « الحياة الاجتماعية في التفكير الاسلامي » للمؤلف •

« الاسلام في مجال السلم والحرب »(*)

كان العالم قبل الاسلام يعاني حروباً مستمرة ، ومعارك متصلة ، وكانت القوة هي دستور الحياة ، فكان من حق القوى أن يأكل الضعيف ، فجاء الاسلام ووضع للسلم والحرب نظاماً دقيقة أنقذت البشرية من أهوال الصراع والدماء ، ومن الأسس التي وضعها أن جعل السلم أساس الحياة : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين »^(١) .

وأوصى بالتعاون والمودة حتى مع المخالفين في العقيدة مادام هؤلاء لم يعتدوا على المسلمين ، قال تعالى « ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين »^(٢) .

وقال : « فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً »^(٣) .

وحدد الاسلام الحرب بالدفاع ، قال تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين »^(٤) ووضح أنه بعد غيام المعركة يمكن التوقف عن الاستمرار فيها لو عاد العدو للسلم قال تعالى : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله »^(٥) .

(*) يراجع كتاب « الجهاد والنظم العسكرية » للمؤلف .

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٨ .

(٢) سورة الممتحنة : الآية الثامنة .

(٣) سورة النساء : الآية ٩٠ .

(٤) سورة البقرة : الآية ١٩٠ .

(٥) سورة الانفال : الآية ٦١ .

وقد جاء الاسلام في نظام الحرب بقواعد لم تعرفها البشرية من قبل ، بل لم تستطع أن تأخذ بها حتى الآن ، اذ حرّم قتل الشيوخ والنساء والأطفال الذين لم يشتركوا في المعركة ، كما حرّم قتل الحيوان أو تخريب البيوت أو قطع الأشجار ...

« القانون والقضاء في الاسلام »(*)

وفي مجال القانون قدم الاسلام تشريعا صالحا لكل زمان ومكان ، تشريعا عام المصدر ، أي لم تقم بعمله جماعة خصصت لذلك بالجنس أو الدم وترك لها أن تشرع للناس ، والتشريع الاسلامي كذلك عام التطبيق ، أي انه ينفذ على الملك وعلى السوق دون تفرقة ، وهذا الموقف كان الأول من نوعه في تاريخ البشرية .

وقدمت الحضارة الاسلامية نظاما قضائية تكفل العدالة المطلقة لكل الناس ، وتقرر مبادئ لم يكن الجنس البشري يعرفها قبل الاسلام ، كالمساواة بين المتخاصمين في مجلس الحكم ، وكالشروط الحاسمة التي يجب أن يتحلى بها القاضي ، وكالعلنية في القضاء ، تلك العلنية التي تجعل من الرأي العام حارسا للعدالة وقواما على الانصاف .

« حرية الدين وحرقوق المرأة والقضاء على الرق »

وقرر الاسلام حرية الدين ، ولم يكن ذلك معروفا قبل الاسلام ، قال تعالى « لا اكراه في الدين »^(١) وقال تعالى يطلب من الرسول أن يقول لغير المسلمين « لكم دينكم ولي دين »^(٢) .

(*) يراجع كتاب تاريخ التشريع الاسلامي وتاريخ القضاء في الاسلام للمؤلف .

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٦ .

(٢) سورة الكافرون : الآية السادسة .

وقرر الاسلام حقوق المرأة وأعطاهها نصيبا من الميراث ، ولم يكن للمرأة في العالم حقوق تذكر آنذاك ، وكان ما جاء به الاسلام أساس ما حصلت عليه المرأة من حقوق بعد ذلك •

ووضع الاسلام الأسس للقضاء على الرق الذي كان شائعا قبل الاسلام في العالم كله ، وجاء في ذلك قول الرسول : شر الناس من باع الناس •

تلك لمحة سريعة عن الحضارة الاسلامية اقتبسناها من الدراسات الواسعة التي كتبناها عن هذه الحضارة في موسوعة النظم والحضارة الاسلامية ، وقد قدمت هذه الحضارة للمجتمع البشرى ما لم يكن معروفا وقتها ، واذا كنا ننعم بها أو ببعضها الآن فلنتذكر أن الناس عارضوا هذه الهبات الطيبة عندما جاءت ، لأنهم لم يكن لهم بها عهد ، ولكن الاسلام ظل يدافع عنها حتى استقرت واشتد عودها ، وقد اقتبسها العالم كله من الاسلام كما سنرى ذلك واضحا فيما بعد •

٣ — الحضارة التجريبية

« حضارة البعث والإحياء »

اذا جئنا الى الحضارة التجريبية كان علينا أن نقرر أن المسلمين انتفعوا بما كان لدى الأمم من تقدم في هذه العلوم ، ولحسن الحظ كان التقدم في هذه العلوم محصوراً في الشرق الذي انتشر به الاسلام عندما جاء الاسلام ، ولهذا يتفق القول بأن الشرق منبع الحضارات ، ففي مصر وسوريا والعراق وجنوب الجزيرة العربية وفي بلاد فارس والهند نشأت أرقى الحضارات التي عرفتها البشرية قبل الاسلام ، وكانت هذه المناطق تموج بالمعرفة حين كان الاقطاع بفظائله ينمر أوروبا ، وحين كانت أمريكا لاتزال في ضمير النيب ، ومن أجل هذا ينبغي — قبل أن نتحدث عن دور المسلمين في الحضارة

التجريبية — أن نخصص بعض الفراغ لحضارات الشرق قبل الاسلام ،
تلك الحضارات التي كانت أساسا لحضارة المسلمين التجريبية •

مصر :

على ضفاف النيل نشأت مدينة الفكر البشرى كما يقول المفكرون في كل
البقاع ، موترعت هذه المدنية حتى وصلت الى مدى عظيم ، وقد شملت
الحضارة المصرية الناحية السياسية والاجتماعية والفنية والعلمية والفلكية
والدينية ، وأهم العلماء من مختلف الأجناس بالحديث عن هذه الحضارة ،
وكتب عنها العديد من الكتب وخاصة بعد أن استطاع شامبليون فك رموز
الكتابة القديمة ، وبعد أن كشف الأثريون آثارها وفي طليعتهم مارييت الذى
عثر على بردية بولاق التى تحوى فلسفات راقية وأفكارا رائعة ، وهناك
كذلك البردية المصرية الموجودة بالمتحف البريطانى تحت رقم ١٠١٧٤٥ وقد
كتبت فى عهد الأسرة الثانية والعشرين وبها كذلك دراسات الهية وأخلاقية
رائعة • والأهرام المصرية تدل على عبقرية هندسية ممتازة فهى بلا شك أهم
معجزات العمارات القديمة ، ثم هى تدل على أفكار المصريين تجاه الحياة
الأخرى ، والمعابد المصرية نقش عليها ألوان من الفنون والعلوم وأحداث
التاريخ ، والتحنيط المصرى معجزة لم تستطع المدنية أن تعرف كنهه حتى
الآن ، ويذكر Samuel Nisenson ^(١) أن الآثار المصرية أكبر شاهد بأن
مصر هى وطن الحضارة الانسانية الأولى •

الفينيقيون :

كان الفينيقيون يعيشون على ساحل الخليج ، وبنوا هناك جوانب
مهمة من الحضارة ، ثم انتقلوا الى ساحل البحر المتوسط بمنطقة سوريا

ولبنان وبنوا في مقرهم الجديد مدنا كتلك التي كانت لهم على الخليج ،
وبرع الفينيقيون براءة فائقة في النشاط التجاري عبر البحار ، وقد استطاعوا
أن ينشئوا لهم عدة مدن أو مراكز تجارية في أمكنة مختلفة على ساحل الشمال
الافريقي ، والفينيقيون أول أمة دارت حول المريقية قبل البرتغاليين بعدة
قرون .

وقد غاق الفينيقيون أمم العالم القديم في صناعة الزجاج والنسيج
والفخار ، وفي انتقان الصناعة ، كما أتقنوا صناعة المعادن منذ عصر البرونز
(٢١٠٠ — ١٢٠٠ ق م) فاستخدموا النحاس والبرونز بوفرة ، وأجادوا من
صهر الحديد ، واستخدموا الفضة على نطاق واسع ، وصنعوا السلاح على
اختلاف أنواعه ، ومهروا في العمارة والنحت وأعمال الزخرفة ، كما شيّدوا
كثيرا من الحصون والهيكل والقصور .

ولعل أهم تراث للفينيقيين في حضارة العالم ، هو ابتكارهم الحروف
الأبجدية منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وقد اقتبس الاغريق من
الفينيقيين تلك الحروف الأبجدية بين سنتي (٨٥٠ — ٧٥٠ ق م) ، ويعتبر
بعض العلماء أن انتقال الأبجدية الفينيقية الى الاغريق يعد من الأحداث
البارزة التي أثّرت في مجرى حضارة العالم وقد اعترف الاغريق بهذا
الفضل ، وهم الذين نقحوا هذه الأبجدية وسلموها للرومان لتصبح أساس
الأبجدية الأوروبية الحديثة ، وكذلك نقل الآراميون أبجديتهم من الفينيقيين
ثم أعطوها للعرب والهنود وغيرهم من الشعوب ^(١) .

(١) المرجع السابق ص ٦٤ .

بابل وآشور :

وفي منطقة الفراتين ظهرت الحضارة العراقية الرائعة ، ومن أعظم الشخصيات التاريخية التي تذكر في هذا المجال الملك حمورابي الذي عاش حوالي سنة ١٩٤٠ ق.م والذي أنشأ قانون حمورابي مما يدل على ان التقنين عرف منذ أمد بعيد في مناطق الشرق ، بعد ما حققت مجتمعاتها درجة عظيمة من الرقي والتقدم •

وشهرة حمورابي لا تقف عند قانونه ، فلقد أسهم بنصيب كبير في التقدم العمراني ، وأقام شبكة رى واسعة تمتد بالماء أكثر أرض العراق وشيد السدود والخزانات لحراسة الأرض من الفيضانات ، مما يدل على تطور أمته تطورا عظيما •

اليمن وعمان :

وفي جنوبي الجزيرة العربية وجنوبها الشرقي قامت خلال الألف السابقة للميلاد ممالك لعبت خلال هذه الفترة دورا رائعا في سياسة العالم واقتصادياته فبنت أعظم السدود واحتكرت تجارة العالم ، فكان لها أسطول ضخم ينقل البضائع بين موانئ الجنوب وبين موانئ الهند والصين وجزر اندونيسيا والصومال بحيث كانت التجارة العالمية شبة احتكار في يد أبناء هذه المنطقة ، كانت كذلك تسيطر على الطرق التجارية عبر الجزيرة العربية حتى سوريا ومصر والخليج العربي •

فارس :

وفي بلاد فارس ظهر المصلح الاجتماعي زرادشت (٦٦٠ — ٥٨٣ ق.م) واتجه في تفكيره الى اصلاح اتجاهات مواطنيه الدينية ، ويعده كثير من الباحثين داعيا الى التوحيد ، وقد اعترف بالبعث والحياة الأخرى والحساب

حيث ينتهى المرء الى نعيم مقيم أو عذاب دائم ، ثم ان بلاد فارس اقتبست كثيرا من الحضارة المصرية فى أثناء استيلاء الفرس على مصر ، ويقول الباحثون ان قممىز تعلم الحكمة المصرية من الكاهن المصرى (أوزاموس) وان الفرس نقلوا لبلادهم كثيرا من الكنوز العلمية والفنية من مصر فغمروا بها بلادهم (١) .

الهند :

وفى الهند وجدت الحضارة الهندوسية بما حفلت به من أفانين ، وفيها ظهر بوذا الذى حث على ضبط النفس وقهر الشهوات ، ودعا للمحبة الشاملة وقال بالغاء الطبقات (٢) .

« قبس من حضارة مصر والشرق ينتقل لليونان »

كانت مصر وكان الشرق موطن الفكر الأول ومصدرا للحضارة الانسانية كما ذكرنا ، ومن مصر والشرق بدأت اليونان تعرف خيوط المعرفة ، ويذكر عالم المصريات الدكتور عبد المنعم أبو بكر (٣) « أن مصر تعد أم الحضارة ، وأنه ما من شىء عالمى ننعم به الآن الا كان للمصريين الفضل الأول فى ابتكار أصوله ، ولم يبتدع اليونان أسس الحضارة الانسانية ، ذلك ان ما ورثوه كان أكثر جدا مما ابتكروه » ويقول علماء الحضارة ان اليونانيين كانوا الوارث المدلل لخيرية من الفن والعلم نبقت وازدهرت بمصر قبل ذلك بعدة آلاف من السنين .

(١) محمد فريد وجدى : دائرة المعارف ج ٩ ص ٤٠ و ٤٥ .

(٢) انظر كتاب « اديان الهند الكبرى » للمؤلف ص ١٧١ وما بعدها .

(٣) صحيفة الاهرام القاهرية فى ١٨/٦/١٩٧١ .

ولنسر مع مصر مرحلة أخرى من الحديث لنرى أفكارها وهي تنتقل
اليونان ، فانه ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد بدأ الطلاب الاغريق
يفدون الى مصر ويلتحقون بمعاهدها ويقتبسون منها الأصول الأولى
لحضارتهم *

ويقول جورج سارتون : ان من السذاجة ان نفترض ان العلم بدأ
في بلاد الاغريق ، لأن الفكر الاغريقي سبقته جهود علمية عديدة في مصر وفي
بلاد النهرين ... وكان العلم اليوناني احياء أكثر منه اختراعا ، وكفى
الغريبين سوءا أنهم أخفوا الأصول الشرقية المصرية البابلية ، تلك التي
لم يكن التقدم الهليني مستطاعا بدونها *

ومما ساعد على اخفاء دور مصر والشرق ، ان الانتاج الثقافي في هذه
البقاع كان جماعيا لا فرديا ، اذ كانت تقوم به طبقة الكهنة ، فلما انتقل
هذا الفكر لليونان دون أن ينسب لشخص معين ظهر وكأنه لا صاحب له ،
وكان مفكرو اليونان يعملون أفرادا وجماعات ، فارتبطت الأفكار المهاجرة
من مصر ومن الشرق بأسماء يونانية تبنتها ، فنسبت هذه الأفكار لهؤلاء
المفكرين اليونان ولكن الحقيقة اتضحت بعد ذلك ، فان الدراسة بمصر
وان كانت جماعية كما سبق القول ، فقد كانت هناك شخصيات لامعة ارتبطت
بها أمور فكرية عالية ، ولكن هذه الأسماء طواها الزمن فلم تبرز ، ونسبت
أفكارها فيما بعد الى بعض علماء اليونان ، ولم تبد لنا الحقيقة بوضوح
الا بعد ما ظهرت كشوف جديدة في العصر الحديث تضع الحق في نصابه ،
ومن هؤلاء الطبيب المصري « أمحتب » الذي كان وحيد عصره في الطب ،
والذي كتب بحثا طبيا شاملا يحوى دراسة تشريحية للجسد كله وقد وقع
هذا البحث في يد الطبيب اليوناني أبقرط فنسبه لنفسه وأصبح يسمى
« أبا الطب » وعندما اكتشفت البردية المصرية التي تحمل البحث الأصيل ،

تراجعت منزلة أبقراط الى مكانها الطبيعي ، واندفع أمحتب الى مكان الصدارة^(١) .

ومثل هذا يقال بالنسبة لعالم الرياضة المصرى أحمس (١٧٠٠ ق.م) الذى سقطت أعماله العلمية فى يد « اديوفانتس » السكندرى الاغريقى (٢٥٠) ونسبت له ، حتى كان يعرف انه مخترع علم الجبر ولكن بردية أحمس ظهرت حديثا وأثبتت أنه مخترع هذا العلم وان اديوفانتس تلميذ جاء بعد عدة قرون منه ونسب لنفسه أو نسب الأجيال له عمل أحمس الأصيل^(٢) .

وهناك باحث عاش عمره كله شديد الولاء للثقافة اليونانية ، ومع هذا فقد اعترف بدور الشرق فى الثقافة اليونانية ، ذلك هو الدكتور طه حسين الذى يقول^(٣) : بينما كانت الأمة اليونانية خاضعة لسلطان الشعر القصصى الذى يمثلها ساذجة جاهلة ، قليلة الحظ من النظم السياسية والاجتماعية الراقية ، كان الشرق قد انتهى الى درجات من الحضارة مختلفة وراقية لاتقاس بها حياة اليونان ، كان الساميون فى بابل وآشور قد بسطوا سلطانا ضخما ، وأسسوا حكومات قوية منظمة ، وانتهوا الى ألوان من الفن والعلم لاتزال تبهرنا حتى الآن ، وكانت مصر قد انتهت الى مدى عظيم من الحضارة ، وليس من شك فى أن الاتصال قد تم بين دول الشرق الراقية وبين الأمة اليونانية الساذجة ، وجد هذا الاتصال واشتد ، وبالتالي تأثرت الأمة اليونانية من غير شك بالحضارات الشرقية المختلفة ، وأخذت عن الساميين فى آسيا وعن المصريين فى افريقيا أشياء كثيرة متنوعة ، ولم تكن الأمة

(٢٤١) نقلا عن حضارة الاسلام للدكتور جلال مظهر ص ١٨ بصرف .

(٣) قادة الفكر ص ٤٤ ، ٥٠ .

اليونانية جاحدة ولا منكرة للجميل ، وانما كانت شديدة الاعتراف بالجميل ، وربما بالغت فيه مبالغة شديدة أيضا فنسبت كثيرا من الأشياء للشرقيين ، بل نسبت مدنا مختلفة الى المصريين حينما والى الفينيقيين حينما آخر ، وعدت نفسها دائما تلميذة للأمة المصرية وغيرها من الأمم الشرقية في الحضارة وألوان الفن •

وكتب الدكتور Philip Hitti ^(١) معلقا على ما ترجمه المسلمون في العصر العباسي من كتب يونانية ومشيروا الى الدائرة الحضارية ودور الشرق فيها وفيما يلي كلماته : وينبغي ألا نبالغ في فضل اليونان على المسلمين ، اذ أن الثقافة اليونانية استمدت قبلا عناصرها ومقوماتها من معارف مصر القديمة وبابل ، وفينيقية ، ثم عادت هذه المعارف الى العالم الاسلامي وهي في ثوب يوناني ، وعن طريق أسبانيا وصقلية عبرت هذه العلوم الى أوروبا ، مرة أخرى هدية من الشرق الاسلامي ابان العصور الوسطى •

وقد نشر الأستاذ على أدهم في عدد نوفمبر ١٩٧٤ من مجلة الثقافة مقالا بعنوان « مصر والاعريق » ترجم فيه فصلا من كتاب ألفه حديثا العلامة ألبرت فور ، وفي هذا الفصل يقرر ألبرت فور كثيرا من الأفكار التي أوردها في هذه الدراسة ، ويؤكد الاقتباس الواسع الذي أخذه علماء الاعريق من مصر •

واذا كان اليونان قد اقتبسوا من الشرق وطوروا اقتباساتهم مما أعلى شأنهم في ميدان الحضارة فان باقى المناطق الأوروبية لم تستطع لتخلفها أن تنتفع بهذه الحضارة وظلت آنذاك بعيدة عن التقدم الفكرى والحضارى •

« نهاية الحضارات القديمة »

ودور روما والكنيسة والكهنة في هذه النهاية

انتكست الحضارة قبل الاسلام انتكاسا شديدا ، وقضى على الحضارات التي كان الشرق يزدهر بها ، وعاد المجتمع العالمي القهقري ، ويرجع سبب هذه المنكسة العظمى الى روما من جانب والى الكنيسة والكهنة من جانب آخر ، فمع نهاية الاسكندر المقدوني استولى البطالسة على سوريا سنة ٣٢٥ ق.م ثم على مصر ٣٠٥ ق.م ، وبعد ذلك زحف الرومان فاستولوا على أوروبا خلال القرنين الثاني والأول ق.م ، ثم استولوا على سوريا سنة ٦٥ ق.م ، وبعدها استولوا على مصر سنة ٣٠ ق.م ، وبهذا خضعت أهم مناطق الحضارات في أوروبا ، وفي الشرق الى روما ، ولاقت هذه المناطق تحت الحكم الرومانى صورا من الضغط والاذلال قضت على قوة الابتكار والفكر فخبثت شعلة التطور تحت نير العسف الرومانى ، ولم تستطع روما ان تحمل مشعل الحضارة بديلا لهذه المناطق التي خضعت لها ، لأن روما لم تكن في أى عصر من عصورها مركزا من مراكز الفكر كما كانت عين شمس في مصر القديمة ، أو أثينا والاسكندرية في عصر ازدهار الحضارة اليونانية .

ثم ظهر السيد المسيح ولكن نظام الحكم الرومانى ظل وثنيا فترة طويلة حتى عهد قسطنطين (٢٧٤ — ٣٣٧م) الذى حكم من سنة ٣٠٦ الى سنة ٣٣٧م وقد قام هذا الامبراطور بسلسلة من الأعمال شد بها أزر المسيحية ، فهو الذى أعلن حرية التدين في قرار ميلانو (سنة ٣١٣) الذى نص على ألا يحرم أحد من الارتباط بشعائر المسيحية أو أية شعائر دينية أخرى . . . وهو الذى دعا الى مؤتمر نيقية سنة ٣٢٥ ثم دخل المسيحية في أواخر أيامه وعمد وهو على فراش الموت ولم يكتف رجال الكنيسة من قسطنطين بما تقدم للمسيحية ، بل وضعوا باسمه ما سمي « منحة قسطنطين » وهى وثيقة تعلن أن الامبراطور منح البابا سلطات دنيوية كبيرة في الولايات

البابوية التي أنشأها ، وقد ثبت للنقاد زيفها بأساليب نقدية دقيقة تعتبر أساسا لنقد النصوص في العصر الحديث •

والمهم أن موقف قسطنطين من المسيحية جعل رجال الدين يطمعون في مزيد من السلطة التي تتجاوز أمور الدين الى أمور الدنيا ، وقد نجح رجال الكنيسة في ذلك ، وفي أواخر القرن الرابع استطاع أسقف ميلانو أن يعارض بعض قرارات الامبراطور تيودوسيوس الذي توفي سنة ٣٩٥م حتى أرغمه على سحبها •

ومنذ مطلع القرن الخامس هيمنت الكنيسة على كثير من الشئون وفي مقدمتها الاتجاهات الفكرية والحضارية في الامبراطورية الرومانية ، تلك الاتجاهات التي كانت مصرية الجذور أو غينية الاغراق ، فماذا كان موقف الكنيسة من هذه الحضارة ؟ •

ان موقف الكنيسة من الحضارات السابقة بنى على الاعتبارات الآتية :

أولا : ان الكتاب المقدس قد حوى بين دفتيه كل ما يحتاجه الانسان في الدنيا والآخرة ، وأنه لذلك ينبغي أن يكون وحده أساس النظريات والعقائد ، وأن لرجال الكنيسة وحدهم حق تفسير نصوصه ، وعلى الناس أن يقبلوا هذا التفسير دون تفكير أو مقاومة •

ثانيا : أن ما سوى الكتاب المقدس باطل ، لا يجوز الوقوف عنده أو مدارسته •

ثالثا : رجال الكنيسة ممثلون لله في الأرض ، ومن ثم فإن لهم تعذيب من يقاوم أفكارهم واثابة من يطيعهم كما يفعل الله بالنسبة للناس تماما •

رابعاً : بنيت المسيحية على المعجزات والخوارق التي جاء بها السيد المسيح ، والمعجزات والخوارق من طبيعتها أن تخالف قوانين الطبيعة والأسس العلمية ، ولما كان رجال الدين مخلصين كل الاخلاص للمعجزات والخوارق فقد اتخذوا جانبها وحاربوا العلوم لأنها تتنافى معها .

خامساً : اتجهت النصوص المسيحية الى ترك الدنيا ، وانتظار ملكوت السموات والأرض دون مبالاة بالأجساد والأبدان والمال والمتاع ، ولما كانت أكثر العلوم تخدم الدنيا ، فقد اتجهت أفكار رجال الدين لمعارضة هذه العلوم .

ومن هنا حاربت الكنيسة مختلف العلوم ، كما حاربت العلماء ، واحتكرت الكنيسة بعض المجالات الفكرية بعد أن أخضعتها لنصوص الكتاب المقدس وقاومت كثيراً من الأفكار مقاومة شديدة ، وكان الطب والرياضة والفلك من النوع الأخير ، فأعدمت الكنيسة بعض كتبها وألقت بالبعض في مغارات لا يطلع عليها أحد حتى يأكلها الزمان^(١) وقد ظلت الكنيسة تتبع هذه السياسة فترات طويلة ، فلما أهل عصر الحرية ولم تجد الكنيسة في مقدورها أن تحرق الكتب أو تسجنها أصدرت القرارات التي تحرم على المسيحيين قراءة بعض الكتب التي ترى أنها تخالف الدين كما حددته ، أو الكتب التي تكشف سوءات الكنيسة ، ومن أشهر هذه القرارات قرار الفاتيكان الصادر في سنة ١٩٢٩ والذي يحرم على المسيحيين قراءة أكثر من خمسة آلاف كتاب^(٢) ، كما أصدرت قراراً بتكفير من قال بدوران الأرض .

(١) ابن تيمانه المصري : بريح المعبون من ٦٦ ، والنهرست لابن النديم .

(٢) انظر كتاب المسيحية للمؤلف .

وهكذا قضى رجال الكنيسة المسيحية على الثروة الحضارية الضخمة
التي كونها العالم طيلة عدة قرون +

وجاءت نهاية حضارة الفرس والهند على أيدي الكهنة كذلك ، أولئك
الذين شغلهم الرغبة في متع الحياة ، فصوروا أنفسهم واسطة بين الله
والناس ، وحولوا بوذا الى اله ، كما صوروا مذهب زرادشت الذي كان
يرى النار رمز الصفاء فجعلوا النار الها مقدسا ، وجعلوا أنفسهم خدام
هذا الاله لينالوا من القرايين ما يحقق لهم ما يصبون اليه من نعيم الدنيا +

وهكذا استغل هؤلاء الناس الأديان فأنصرفوا بها ، وبدل أن تكون
مشاعل نور جعلوها وسائل للجهل والظلام +

وقد كان رجال الدين من قسس وكهنة متعاونين في ذلك مع الملوك
والأمراء ، وقد رأى هؤلاء وأولئك أن يحاربوا العلم وينشروا الجهل لتسهيل
عليهم قيادة شعوبهم ، فالتشعوب الجاهلة سهلة القيادة ، أما الشعوب المتعلمة
فتعرف حقوقها ، وتطالب بها ، وتدافع عنها +

ومن الأمور المفجعة ان بعض الكنائس ظلت تمارس هذه النقائص حتى
العهد الحاضر ، وأبرز مثل لذلك الكنيسة الأثيوبية التي كانت تملك ٣٠٪ من
مساحة الأراضي المزروعة بالحبشة ، ولا تدفع عنها ضرائب وتجبى مع
ذلك الصدقات والنذور من المعدمين والفقراء التمساء والجهلة ، وحتى
تنعم الكنيسة الأثيوبية بهذا الثراء سكنت على الامبراطور وأسرته وأمرائه
الذين كانوا يملكون ٥٠٪ من الأراضي ، والذي تبقى بعد ذلك منحه
الامبراطور لكبار الموظفين الملكيين والعسكريين وبعض زعماء القبائل
وكان الامبراطور ينعم بهذا الثراء الخارق ، ويقيم أعياد ميلاد سخية لكلايه ،
بينما الشعب يتضور جوعا ويتساقط بسبب قلة الغذاء والكساء +

وقد ظلت الكنيسة تمارس هذا الباطل وتغمر الطرف عنه حتى هبت ثورة الجيش الأثيوبي عام ١٩٧٤ فوضعت حدا لهذا الضلال ، ولكنها للأسف اتجهت لضلال آخر هو الشيوعية والاحاد ، وهو كذلك محاولة مدّ سلطانها ظلما الى أرض ليست حبشية ، وذلك لون من الاستعمار الجديد نحاربه بكل الوسائل •

« المسلمون وحركة البعث والاحياء »

انتفع المسلمون بما كان لدى الأمم السابقة من تقدم في العلوم التجريبيية ، فخذ اتصلوا بالأقطار التي نمت فيها الحضارة القديمة مثل العراق والشام ومصر ، وتم المسلمين فتح أكثر هذه الأقطار ، واهتم العصر العباسي الأول بالحضارة والعلم ، فشىد الخليفة هارون الرشيد بيت الحكمة ببغداد حوالى سنة ٨٣٠م واهتم ابنه المأمون بهذا المجمع العلمى وألحق به مرصدا ومكتبة حافلة ، وجذب له العلماء والمترجمين والطلاب ، وفي هذا المعهد ترجمت امهات الكتب في مختلف الموضوعات الى اللغة العربية ، وكان المأمون يعطى للمترجمين زنة ما يترجمونه من الذهب الخالص •

وأكثر هذه الكتب كانت الكنيسة — كما ذكرنا آنفا — قد وضعت في دهاليز مظلمة رطبة تحت الأرض ليأكلها الزمان ، وكان المأمون يشترط عند توقيع الهدنة مع الروم أن يبلموا للمسلمين هذه الكتب التي كتبها اقليدس وجالينوس وأبقراط وأرشميدس وسواهم من المفكرين وأحضر المسلمون مجموعات من الكتب من البلاد التي استولوا عليها كالشام ومصر وفارس ، ومجموعات من قبرص ومن الاسكندرية وعكفوا عليها يترجمون ويعلقون ويشرحون^(١) •

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٤٣ •

ويقول Philip Hitti ^(١) انه بينما كان الرشيد والمأمون يخرجان كنوز الفلسفة القبطية واليونانية والفارسية ، كان معاصروهم في أوروبا من أمثال شارلمان وسادة مملكته يتعشرون في كتابة أسمائهم •

وانتقل المسلمون من الترجمة والتعليق الى الابتكار والخلق ، ومن بين عشرات الأوربيين الذين اعترفوا بمكانة المسلمين في هذا المجال نقتبس من واحد منهم كلماته ، يقول Butus ^(٢) : ان المسلمين أخذوا كثيرا من علوم البيزنطيين والمصريين والهنود والفرس ، ولكن من الحق أن نؤكد أن المسلمين حين ترجموا هذه العلوم الى لغتهم زادوا عليها وحوّروا غيها وصبغوها صبغة جديدة ، ولم يكن العرب مترجمين فقط أو معلقين بل انهم اخترعوا كثيرا ، ففي الفلك اخترعوا الاسطرلاب لقياس الارتفاع ، واستطاعوا أن يعرفوا وقت ظهور النجوم ذوات الاذئاب ، وساعة كسوف الشمس وخسوف القمر ، وفي الطب استطاع المسلمون أن يكشفوا مرض الجدرى الذى لم تعرفه اليونان ، وقد ظهرت براعتهم الفائقة في كشف صنوف الأدوية ، وكانوا يعرفون علم الكيمياء معرفة تدعو للاعجاب والتقدير ، ونجحوا بهذا في تعرف صفات أحماض المعادن وغيرها من المعلومات الكيماوية الجوهرية التى نقلت الى أوروبا •

وفي مجال الحضارة العمرانية حقق المسلمون أهدافا عالية ، غفى التجارة عنى المسلمون بالطرق والجسور والأسواق والأمن ، وفي الزراعة وجهوا عناية كبيرة الى الري واصلاح الأرض وشق الأنهار والترع والأفلاج ، وقد استطاعوا بذلك أن يقيموا دورة ثلاثية للزراعة في كثير من البلدان ، ومن أخلد ما حققه المسلمون في نواحي العمران المنشآت البنائية العظيمة

History of the Arabs p. 312. (١)

The Influence of Islam Chapter XI. (٢)

من مدن وقصور ومساجد وقلاع ومدارس ومستشفيات ، ولا يزال الكثير منها باقيا حتى اليوم ينطق بعظمة هذه الأجيال ، كالجوامع الأموى بدمشق ، والجامع الأزهر بالقاهرة ، ومدرسة نور الدين زنكى بدمشق وقصر الحمراء بغرناطة وغيرها •

الحضارتان :

وهكذا عندما كانت الحضارة الاسلامية الأصلية تصل الى قمة مجدها كانت الحضارات التجريبية القديمة تدب فيها الحياة من جديد ، وتعاونت الحضارتان على اعلاء شأن المسلمين ، وفي ظل هاتين الحضارتين كان العالم الاسلامى يقف وحده فى دائرة الضوء بين دول العالم •

الحضارة الاسلامية

تنتقل الى الهند والصين وأوربا

امتد نشاط المسلمين الى الهند فى عصر مبكر ، ثم امتد كذلك الى الصين ، والتقى المسلمون بالأوروبيين فى الأندلس وفى صقلية وفى مناطق الحروب الصليبية بالشام ومصر ، وكان لهذا اللقاء نتائج حضارية مهمة ، فقد عرفت الحضارة الاسلامية الأصلية والتجريبية طريقها لهذه البقاع •

ويتحدث كثير من الباحثين عن انتقال الحضارة الاسلامية الى أوربا ويغفلون الهند والصين ، ولعل ذلك بسبب النشاط الأوروبى الذى أفاد افادة كبيرة من هذه الحضارة وجعلها أساس نهضته ، ثم نقلها فى فتوحاته الى آسيا وافريقية وأمريكا ، ومن أجل هذا تستحق أوربا مزيدا من الدراسة فى هذا المجال ، فقد التقى الأوروبيون بالمسلمين فى أسبانيا وصقلية ، وجذبت

الجامعات الاسلامية كثيرا من الطلاب الأوربيين فالتحقوا بها ، وتلقوا من المسلمين صورا من الفكر في مختلف المجالات ، وأجاد الكثيرون من الطلاب الأوربيين اللغة العربية ، واغتتنوا بالفكر الذي تلقوه من أساتذتهم المسلمين ، فترجموا لذويهم عقب عودتهم لبلادهم ، ومن أشهر المترجمين الأوربيين :

John of Seville - Adlard of Bath - Gerald of Cremona - Afonso X.

وعن طريق الحروب الصليبية التقى الأوربيون في الشرق بالمسلمين في حربٍ أحيانا وفي حالة هدنة أحيانا أخرى ، غرأوا ما أذهلهم من فكر حضارى ، كما رأوا صورا من العادات والأخلاق الاسلامية بهرتهم فراحوا يقتبسون منها •

وهكذا كانت هذه الأمكنة مراكز فكرية عرض فيها الشرق أفكاره الحضارية واقتبست أوروبا من فيض هذه الحضارات •

يقول Hearnshaw ^(١) : لقد خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين فاذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أنانين العلم والمعرفة ، لقد بثت الأوربيون أشباه الهمج عندما رأوا حضارة المسلمين التي رجحت حضارتهم رجحانا لا تصح معه المقارنة بينهما •

ويقول الاستاذ سديو : تكونت فيما بين القرنين التاسع والخامس عشر مجموعة من أكبر المعارف في التاريخ لدى العرب ، وظهرت اختراعات ثمينة تشهد لهم بالنشاط الذهني الرائع ، وجميع ذلك تأثرت به أوروبا بحيث يمكن القول بأن العرب كانوا أساتذة الأوربيين في جميع غروع المعرفة ،

(١) علم التاريخ ص ٦٢ من الترجمة العربية للاستاذ العبادى .

ولقد حاول الأوروبيون أن يقللوا من شأن العرب ، ولكن الحقيقة ناصعة يشع نورها ، ولا مفر من الاعتراف بها •

كيف انتقلت الحضارة التجريبية والحضارة الأصلية :

تلقى الغرب من الشرق نوعى الحضارة اللتين سبق أن أوضحناهما ، أى الحضارة الأصلية الفكرية والحضارة التجريبية ، ومن الطبيعي أن الغرب كان أسرع استجابة فى العلوم التجريبية التى يدق الدليل على صحتها كل عقل ، لأنها مادية محددة ، ولأنها لا تتنافى مع التقاليد والطبقة المنتشرة بالغرب ، بل قد تساعد الطبقات العليا وتمكن لهم فى السلطان ، فالتقدم فى الطب مثلا ينتفع به السادة أكثر مما ينتفع به العبيد ، ومثل هذا يقال عن الانتفاع بالفنون المعمارية والفلك والرياضة والموسيقى وغيرها •

أما العلوم الفكرية كالاعتراف بالشورى التى جاء بها الاسلام فى النظام السياسى ، والاعتراف بحق الفقير فى مال الغنى ، والخضوع للأخلاق التى فرضها الاسلام ... فانها تضر السادة لحساب العبيد ، اذ تنفع المحكوم وتقلل من سلطان الحاكم ، ومن أجل هذا قاومت الطبقات العليا هذه الاتجاهات وتباطأت فى تقبلها •

وهذا هو السر فى أن الغرب سرعان ما أقبل على العلوم التجريبية وترجم علماءه قوائم طويلة من الكتب العربية الى اللاتينية فى مختلف هذه العلوم •

أما الحضارة الاسلامية الأصلية فقد ظلت صامدة ، تدافع عن نفسها وتشرح فوائدها للمجتمع البشرى ، وقاومها الغربيون ، ولكنهم بمرور الوقت أخذوا ينهزمون أمامها ويقتبسون منها يوما بعد يوم ، فتمرد الكثيرون منهم على الدكتاتورية ، واعتنق جماهيرهم اتجاهات الاسلام فى الشورى وفى

العدالة الاجتماعية ، والتقطت المرأة حقوقها ووجدت بين الرجال من يدافع عن هذه الحقوق ، وقابل عبيد الغرب أحرار الشرق في الحروب الصليبية فتمردوا على العبودية ولم يعودوا الى نطاقها بعد أن عادوا الى بلادهم ..

ومر الزمان ، وجاء عهد ادعت أوربا فيه أنها مصدر الديمقراطية ، وأن الاشتراكية من صنعها ، وأنها تقدمها هدية للمجتمع البشرى ، كما ادعت العمل لالغاء الرق وتحرير الأرقاء ، ومنح المرأة حقوقها ... وساعد على هذا الادعاء أن الشرق كان قد انتكس وبعد كثير من قاداته عن الاسلام وروحه ، فهيأ هذا للغرب أن يتغلب على العقول البسيطة التي لا تعرف عمق الحضارة الاسلامية ولا أبعادها .

« اعترافات الغربيين »

ومع هذا فقد كان أكثر علماء الأوربيين منصفين ، فاعترفوا بفضل المسلمين عليهم ، وسنقتبس لمحات قصيرة مما كتبه بعض هؤلاء المفكرين :

يقول Gosiph Calmith : في اللقاءات بين المسلمين والأوربيين قدم المسلمون عنصر التأثير والانتاج وتلقى العالم المسيحي الأثر والفكر •

ويقول العالم الفرنسي فوريل : ان الاجماع يعزو الى العرب كل ما كان يبدو خلقيا بالاعجاب في الفنون والعلوم •

ويقول غوستاف لوبون^(١) : أخذ العرب عن المسلمين أخلاق الفروسية واحترام المرأة ، واذن فليست المسيحية كما يظن بعض الناس في الغرب هي التي أنصفت المرأة بل الاسلام • ومع هذا فان استفادة الصليبيين من علوم العرب كانت أقل مما يجب • ويحل ذلك بقوله : ان الجيوش الصليبية كانت جاهلة ، ولم تكن تبالى بالمعارف ، ومن أجل هذا كانت عنايتها أكثر في ميدان البناء والعمران والصناعة أكثر منها في ميدان الفكر والفن •

ويقول أناتول غرانس : إن أثنام يوم في التاريخ هو يوم معركة بواتيه في فرنسا حين تفهقرت العلوم والفنون والحضارة الاسلامية أمام بربرية الفرنجة •

ويقول Kirk^(٢) : ان للحروب الصليبية أهمية لا تقدر في

(١) حضارة العرب ص ٣٢٨ •

(٢) A Short History of the Middle East p. 71.

تاريخ الثقافة بأوروبا ، بسبب ما كان لها من عظيم الأثر في تفتيح أذهان الناس الى مستوى الحضارة في الشرق الأوسط ، ذلك المستوى الذى كان يفوق حضارة الغرب بكثير ، ولم تغد بلاد شرق البحر المتوسط من معارك الصليبيين شيئا يذكر اللهم في بعض المنشآت والخطط الحربية .

ويقـرر Emerton ^(١) إن الثقافة التى حصل عليها الصليبيون من المسلمين انتزعت الصليبيين من الحياة البربرية ودفعتهم قدما الى عالم الحضارة وكان الأوروبيون يسمعون من القسس أشياء كثيرة عن المسلمين ، ولكن هاهم المسلمون أصبحوا في مرأى العين بالنسبة للصليبيين ، فوجدوا فيهم انسانية عالية ، وشرفا وشجاعة ، ووفاء بالوعد ، وغير ذلك من الصفات التى لم يكونوا يسمعون بها وهم في ديارهم ، وقد ساعد ذلك على تكوين الناحية الانسانية في الأوروبيين ، ولم تكن هذه الناحية من قبل ذات بال عندهم .

ويقول الدكتور هيليب حتى ^(٢) : ان الفرنجة تأثروا كثيرا بجيرانهم المسلمين في اللباس ، فغدا أقلعوا عن لباسهم الأوربي وتعلقوا بالأزياء الشرقية التى كانت أدعى الى الراحة ، واكتسبوا شيئا من الذوق الشرقى في الأطعمة والأغذية ، وآثروا لسكناتهم البيوت الشرقية الطراز .

ويقول Richard Coke ^(٣) : ان أوروبا لتدين بالشيء الكثير لأسبانيا العربية فلقد كانت قرطبة سراجا وهاجا للعلم والمدنية في فترة كانت عواصم أوروبا خلالها لاتزال تزرع تحت وطأة القذارة والبداية ، وقد

Midiaeval Europe p. 393. (١)

History of the Arabs p. 781. (٢)

The City of Peace. (٣)

مياً الحكم الاسلامى لأسبانيا مكانة جعلها الدولة الوحيدة فى أوربا التى
أفلتت من عصور الظلام •

ويقول Gource Sarton : حقق المسلمون عباقرة الشرق أعظم المآثر
فى القرون الوسطى ، وكانت اللغة العربية أعظم اللغات خلال هذه العصور
فلقد كتبت بها المؤلفات القيمة غزيرة المادة شديدة الأصالة ، وكان على أى
باحث يريد أن يعرف ثقافة العصر أن يتعلم اللغة العربية ، وقد فعل ذلك
كثيرون من غير العرب ^(١) •

ويقول ليبرى : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة
أوربا الثقافية عدة قرون ^(٢) •

(١) نقلا من حضارة الاسلام للدكتور جلال مظهر •

(٢) نقلا من حضارة الاسلام للدكتور جلال مظهر •

(م ١٩ — ندوة الدراسات ج ٢)

اختفاء مادة الحضارة الاسلامية من المناهج الاسلامية

هذه الحضارة الاسلامية التي أوجزنا الحديث عنها ، والتي كانت من أبرز المواد وأنفعها في حلقات الدراسات الاسلامية ، قد اختفت من الحلقات والمعاهد والمدارس منذ عصور الظلام ، فكليات العلوم السياسية الآن لا تدرس النهج الاسلامي في السياسة ، مع أن هذه الكليات تدرس الاتجاهات السياسية المختلفة حتى تلك التي ثبت فشلها كالنازية والفاشية ، وكليات الاقتصاد والتجارة لا تدرس النهج الاقتصادي في الاسلام مع انها تدرس كل النظم الاقتصادية حتى تلك التي ثبت خطرها وخطؤها كالشيوعية ، وكليات التربية تدرس كل النظم التربوية في العالم ولا تدرس النهج الاسلامي في التربية والتعليم والسلوك ، وكليات الخدمة الاجتماعية لا تدرس النظم الاجتماعية في الاسلام ، وكليات العسكرية لا تدرس الفكر الاسلامي في الشئون العسكرية ، ذلك الفكر الذي حقق أسمى ألوان النجاح في المعارك التي سيطر عليها الفكر الاسلامي •

فاذا ذهبنا الى الكليات العملية وجدنا الطلاب في كليات الطب لا يعرفون شيئاً عن جهود الرازي وعلى بن العباس والبنعادي وعمار الموصلي وابن الهيثم وابن البيطار والزهراوي وابن سينا ، وربما كان الطلاب في الغرب يعرفون عن هؤلاء أكثر مما يعرف الطلاب المسلمون •

وفي كليات الهندسة لا يعرف الطلاب المسلمون ما قدمه ثابت بن قرة والخوارزمي وعمر الخيام وأبو جعفر الخازن ... من ابداع في مجال الأرقام واستخراج الجذور ، وعلم الجبر والهندسة التحليلية وحساب المثلثات •

وفى كليات العلوم لا يعرف الطلاب ما حققه المسلمون من كشفوف فى مجال العلوم كما لا يعرفون الأسماء اللامعة فى هذا المجال مثل جابر بن حيان والرازى والبىرونى وابن الهيثم •

ولا يعرف الطلاب فى كليات الزراعة ما وصل له أسلافهم فى بغداد وقرطبة والقاهرة عن الحقائق والتجارب الزراعية ودراسة الأعشاب وعلم الحيوان وبالتالى لا يعرفون شيئا عن الجاحظ وابن زكريا وابن البيطار والدميرى المصرى •

وقل مثل هذا بالنسبة للموسيقى والجغرافيا وعلم الفلك •

ويتساءل الانسان : لماذا اختفت هذه العلوم من المناهج الاسلامية ؟ •

والجواب عن ذلك يتضح مما يلى :

اختفى النهج الاسلامى فى مجال السياسة لأن هذا النهج يهتم بالشروط التى يلزم أن تتوافر فى الخليفة أو الرئيس ويلزم الخليفة أو الرئيس بالشورى خلال حكمه ، ويجيز عزله عند الاقتضاء ، ولا يقبل التوارث فى الحكم •

وكل هذه المبادئ ضد رغبة الحكام ، فقاوم هؤلاء هذا الاتجاه الذى يمثل ركنا مهما من أركان الحضارة الاسلامية وكانت وسيلتهم للقضاء عليه ابعاده عن المناهج حتى لا يعرفه جيل الطلاب ويختفى يوما بعد يوم •

واختفى النهج الاسلامى فى مجال الاقتصاد لأن الثراء كان فى أيدي أصحاب النفوذ ، ولم يترد هؤلاء أن يدفعوا حق الفقير وحق الدولة ، فأتجهوا الى محاربة الاتجاهات الاسلامية الاقتصادية ، وبالتالى تعطل

جانب مهم من جوانب الحضارة الاسلامية ، وفتح الباحثون بالحديث عن الزكاة مع أن الزكاة جزء قليل من الالتزامات التي يلتزم الأغنياء بها تجاه الفقراء وتجاه الصالح العام^(١) .

واختفى النهج الاسلامي في مجال الرق ، ذلك النهج الذي يقضى على الرق تبعا لقوله تعالى « حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء »^(٢) . وقوله عليه السلام : « شر الناس من باع الناس » وكان اختفاء النهج الاسلامي استجابة لرغبات القصور التي حشدت بالعوانى والرقائق فلم تسمح هذه القصور بتعليم ما يتنافى مع متع السادة ولذا نذهم .

واختفى النهج الاسلامي في موضوع السلم والحرب الذي أوجزناه آنفا ، لأن شعار الحرب غلب على القوم ، ولأن الزعماء كانوا يتوقون للنصر بأى ثمن ، كما كانوا يسعون للغنائم ، فأزالوا من المناهج ما يخالف رغباتهم في هذا الاتجاه .

وهكذا اختفت من المناهج الاسلامية أنواع الحضارة الاسلامية ، وعاما بعد عام وقرنا بعد قرن خلت المعاهد الاسلامية من الحديث عن هذه الحضارة التي هي مفخرة الاسلام والمسلمين ، ولم يبق من الحضارة الا قدر شاحب كالاثر الى قصر الحمراء بغرناطة أو الجامع الأزهر بمصر ، أو الجامع الأموي بدمشق ، أو كالتنقى بالحضارة الاسلامية التي زحفت من الأندلس ، أو من فلسطين الى أوروبا فعلمتها علوما أهملها أصحابها المسلمون ، وقفنوا منها بالذكريات .

(١) انظر في ذلك كتاب السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي للمؤلف .

(٢) سورة محمد — الآية الرابعة .

وفي مطلع النهضة الفكرية بالعالم الاسلامي اتجهت الدول الاسلامية لارسال المتخرجين المتفوقين من جامعاتها لاستكمال دراستهم العليا في أوروبا فجلس الطلاب المسلمون يثقلون مناهج البحث وصور النقد والمقارنة ... عن المستشرقين ولم يكن المستشرقون حريصين على ابراز الحضارة الاسلامية الأصلية أو احيائها ، فتركوها في الظلام ، ولكنهم لم يستطيعوا اخفاء النظم الاسلامية وهي المؤسسات التي أقامها المسلمون عبر التاريخ لتنفيذ الحضارة كالجامعات والمكتبات والمستشفيات والمناصب لأن هذه النظم كانت حقيقة واقعة ، وكانت من الشهرة بحيث لم يمكن تجاوزها ، فدرسوا لنا في أوروبا منهاجاً عنوانه « النظم الاسلامية » Islamic Institutions وعاد المبعوثون المسلمون فألقوا في النظم الاسلامية ، ولم يقرّبوا من التأليف في الحضارة الاسلامية •

وكان اخفاء الأوربيين للحضارة الإسلامية مقصوداً ، لأن بعض المستشرقين عرفوا سمات الحضارة الاسلامية وأشاروا اليها اشارات غلبرة في بحوثهم كما فعل Brmerton, Kirk, and Calmith وغيرهم ولكن أحدا منهم لم يعمل على التنقيب عليها وعرضها كاملة ، وهو الدور الذي حاولت أن أقوم به •

ووجد بين المسلمين بل بين المفكرين من يقول ان عصر صدر الاسلام كان مشغولاً بالدعوة ، وان العصر الأموي اتجه للفتوحات والتوسع ، ولم تدهر الحضارة الا في العصر العباسي • وهذا رأى يتجه الى أن الحضارة الاسلامية هي حصيلة الترجمات الى اللغة العربية وبخاصة في بيت الحكمة ، وهو رأى ضعيف نشأ عن عدم التعرف على الحضارة الاسلامية الأصلية التي تحدثنا عنها والتي قدمها القرآن وأحاديث الرسول في مطلع الاسلام ، ولم يكن دور بيت الحكمة الا شديد الارتباط بالحضارة التجريبية ، أما الحضارة الاسلامية الأصلية فقد بدأت مبكرة كما شرحنا من قبل •

وعندما اختفت الحضارة الاسلامية الأصيلة اختفت أيضا حضارة البعث وحضارة الدول ، فقد تراجع المسلمون ، ولم يهتم زعماء الدول الاسلامية بتقديم شيء منها للشعوب ، وقنع الحكام بالأنانية وأن يعيشوا لأنفسهم لا للناس .

وهكذا أصبحت الحضارة الاسلامية مجرد ذكرى ، بل عاذاها كثيرون ممن لا يعرفونها لأن الجاهل بالشيء لا يدافع عنه ، ولأن ظهور هذه المادة بفروعها المختلفة يثير المناقشة والحقد لدى بعض المدرسين الذين يرون أن العلوم الاسلامية المعروفة لهم هي وحدها التي تمثل الاسلام .

احياء الحضارة الاسلامية

إذا كان المسلمون الأوائل قد التقطوا آيات القرآن الكريم وأعادوا الرسول المتصلة بالجوانب الحضارية وشرحوها وعلقوا عليها حتى كونوا فيها دراسات واسعة تبرز نهج الاسلام في السياسة والاقتصاد والتعليم والسلم والحرب وغيرها ...

وإذا كان المسلمون الأوائل قد استطاعوا أن يبعثوا الروح في الحضارة التجريبية التي اشترك في خلقها علماء الشرق واليونان قبل الاسلام ...

وإذا كانت عصور الظلام قد أخفت جهود المسلمين في المجالين وأضاعت مادة الحضارة الاسلامية من المناهج الاسلامية في كل المعاهد والكليات الاسلامية ...

إذا كان ذلك كله قد حدث ، فان واجب عصرنا الحاضر أن يقف وقفة حاسمة لبعث الحياة من جديد في الحضارة الاسلامية ، ووضع هذه المادة في مكانها المناسب في المدارس والكليات والجامعات كمادة تعلی قدر الاسلام وتفتح الطريق لرقى العالم الاسلامی في حاضره ومستقبله ، فكما كانت الحضارة الاسلامية للماضي فانها للحاضر والمستقبل .

وواجب العصر الحاضر — في تقديرى — يتمثل في جانبين :

الجانب الأول : أن يقدم الباحثون والمفكرون المسلمون دراسات عن جوانب الحضارة الإسلامية كلها بلغة العصر وخطة العصر ، ويسعدنى أننى أسهمت في هذا الجانب بموسوعة النظم والحضارة الإسلامية التى تتكون من عشرة أجزاء غطت كل جوانب الحضارة الإسلامية أو أكثرها .

الجانب الثانى : أن تقوم وزارات التربية والتعليم في العالم الإسلامى بأحياء مادة الحضارة الإسلامية ووضعها في مكانها المناسب بالمدارس والجامعات ، وتخصيص الساعات الكافية لدراستها ، وفي هذا المجال يسعدنى أن أقدم اقتراحا لمنهج الحضارة الإسلامية في المستويات المختلفة لدور العلم بالعالم الإسلامى :

توزيع المناهج على مراحل التعليم

مراحل التعليم الحالية في العالم الإسلامى متشابهة أو متقاربة ، انها المرحلة الابتدائية ، فالاعدادية ، فالثانوية ، فالجامعة ، وقد تكون هذه المراحل ذات طابع اسلامى خاص كالأزهر بمعاهده وكتلياته ، وقد تكون عامة كالمدارس والجامعات التابعة لوزارات التربية والتعليم العالى ، وعلى هذا فنحن أمام المراحل التالية بوجه عام تقريبا :

١ — مدارس التعليم العام .

٢ — مدارس التعليم الدينى ويكثر أن تسمى معاهد .

٣ — الكليات والمعاهد العليا الإسلامية .

٤ — الكليات والمعاهد العليا العامة .

وستنقترح ما يصلح من الحضارة الاسلامية لكل مرحلة من هذه المراحل :

مدارس التعليم العام :

ابتداء من التعليم الاعدادى يعرف التلاميذ بالحضارة الاسلامية وأنواعها اجمالا ، وانها أفادت البشرية كلها ، وقدمت حولا للقضايا الانسانية المهمة ، وفي التعليم الثانوى يزيد قدر المعرفة الذى يقدم للتلاميذ ، فيعرفون شيئا من التفاصيل عن جوانب الحضارة الاسلامية فى أهم فروعها أو فى كلها ، وتكون مادة الحضارة الاسلامية مادة عامة مثل مادة الجغرافيا والتاريخ أى تقدم لكل التلاميذ أى كانت أديانهم ، فالحضارة الاسلامية هبة الاسلام لكل البشر ، وقد كانت تدرس لنا فى أوروبا مع اختلاف أديان الطلاب .

مدارس التعليم الدينى (المعاهد) :

تأخذ الحضارة الاسلامية فى هذه المعاهد قدرا أكبر من العناية وساعات أطول من تلك التى تخصص لهذه المادة بمدارس التعليم العام ، ويعطى طلاب هذه المعاهد قدرا كافيا من التفاصيل ومزيدا من تطبيق السلوك الاسلامى ، لأن هذه المعاهد هى التى تهيب لدعاة المستقبل وحمل لواء الفكر الاسلامى فيما بعد .

الكليات والمعاهد العليا الاسلامية :

ان الكليات والمعاهد العليا الاسلامية فى أمس الحاجة لتغيير مناهجها تغييرا شاملا ، فطلابها هم فى المستقبل حملة راية الاسلام ، وشارحو فكره ، والألسنة المدافعة عنه ، ويقدر ما ننجح فى اعدادهم بقدر ما ينجحون فى تأدية مسئولياتهم .

ثم ان هؤلاء الطلاب هم الذين مسهم الضر في موضوع المناهج أكثر من الطلاب في الكليات الأخرى ، فطالب الطب يتطور منهجه وكذلك طالب الهندسة والآداب ، وكثيرا ما توجد قنوات تصل بين هذه الكليات ونظيراتها في الغرب ، أما الطالب في الكليات الاسلامية فلا يزال يعاني من رواسب الأجيال المظلمة ، مما أبعد المناهج في الكليات الاسلامية عن جادة الصواب .

ومن أجل هذا فان منهاج هذه الكليات يجب أن يتغير تغيرا واسعا ، ليس فقط باضافة الحضارة الاسلامية ، بل أيضا باضافة علم مقارنة الأديان الذي اختفى كذلك في عصور الظلام ، وكذلك بتصحيح مسار العلوم التي انحرف مسارها كالفقه والتفسير واللغة العربية على ما شرحنا في مكان آخر^(١) .

وإذا كنا هنا نتحدث عن الحضارة الاسلامية ونتجه لحصر الحديث في دائرتها ، فاننا نذكر أن الطالب في الكليات والمعاهد الاسلامية يجب أن يدرس الحضارة الاسلامية بكل أقسامها وأنواعها دراسة شاملة تحليلية ، ليعرف ماذا قدم الاسلام للجنس البشرى في مجال السياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية ونحوها ، كما يدرس النظم الاسلامية وهي المؤسسات التي انشأها المسلمون لتطبيق الحضارة ، فقد أنشأ المسلمون مناصب ومؤسسات مختلفة لتطبيق الفكر الاسلامي في المجالات السابقة ، ووضعوا لها نظما وقوانين وشروطا مهمة ، وذلك كمنصب الوزير والوالي ، ، ، ، ، وكالمستشفيات والمكتبات والمدارس والمرامد

ويجب أن تقسم الدراسات الحضارية على سنوات الدراسة وان تعطى عددا من الساعات لاستيعابها والتمكن منها .

(١) انظر كتاب « تاريخ المناهج الاسلامية » للمؤلف .

الكليات والمعاهد العليا العامة :

ان الكليات والمعاهد التي ليست متخصصة في الدراسات الاسلامية بالعالم الاسلامي يتجتم ترويديها بما يرفع مدارك طلابها في الاتجاهات الاسلامية ، فليس من العدل أن يترك الطبيب والمهندس والمحاسب بالبضاعة القليلة الى تعلمها عن الاسلام قبل الجامعة ، ولذلك أرى أن نتدارك ذلك بالطريقتين التاليتين :

أولا : تدرس الحضارة الاسلامية كلها بشكل مجمل في جميع الكليات والمعاهد العليا ، وتكون دراستها للمسلمين وغير المسلمين ، كما ذكرنا من قبل ، ويكون ذلك في الفرقة الأولى .

ثانيا : بعد الفرقة الأولى يدرس بكل كلية أو معهد أحد جوانب الحضارة الاسلامية الذي يناسب تخصص هذه الكلية ، وتكون دراسة هذا الجانب بشكل مفصل شامل ، على النحو التالي :

١ - يصبح النهج الاسلامي في شؤون السياسة والحكم مادة مهمة في كليات العلوم السياسية .

٢ - يصبح النهج الاسلامي في الاقتصاد مادة رئيسية بكل كليات التجارة والاقتصاد .

٣ - تصبح التربية الاسلامية مادة رئيسية بكل كليات التربية ومعاهدها .

٤ - تصبح الحياة الاجتماعية في التفكير الاسلامي مادة رئيسية بكليات الخدمة الاجتماعية .

٥ — يصبح الجهاد والنظم العسكرية في التفكير الاسلامي مادة مهمة في كل الكليات العسكرية بالعالم الاسلامي •

٦ — تصبح النظم القضائية في الاسلام بما في ذلك الحسبة والنظر في المظالم مادة رئيسية في كليات الحقوق والقانون والشرطة •

٧ — تصبح الحضارة الاسلامية مادة أولى في المعاهد والكليات التي تعد الدبلوماسيين المسلمين ورجال الاعلام ، وتعد موظفي العلاقات العامة حتى يستطيع هذا أو ذلك في هذه المناصب الخطيرة أن يعرف بالاسلام ويتحدث عنه كلما جاءت مناسبة •

٨ — في الكليات العملية يتعرف الطلاب على ما قدمه المسلمون من جهود في مواد تخصصهم ، كما يتعرفون على الأسماء اللامعة التي أسهمت في خدمة هذه المواد وإذا كان ما قدمه المسلمون من جهد في الطب أو الصيدلة أو الزراعة أو الجغرافيا أو غيرها أكثر من أن تجمع هذه العجالة ، فإن بعض الأسماء اللامعة ينبغي أن نذكرها هنا مرتبطة بأشهر ما ارتبطت به من مواد التخصص مثل :

في الطب والصيدلة : الرازي — علي بن العباس — ابن سينا — ابن زهر — الزهراوي •

في العلوم : جابر بن حيان — الكندي — ابن الهيثم •

في الرياضيات : عمر الخيام — الخوارزمي — الخازن •

في الفلك : الفزارى — البيروني — البتاني •

عمان أولا وأخيرا :

لقد خصصنا عمان في مطلع هذا البحث بكلمة ، ونريد في الختام أن نسجل أمنية هي أن تبدأ عمان بتحقيق هذا الهدف ، حتى تشرق شمس الحضارة الاسلامية في العصر الحديث من هذا القطر الذي حقق شيئا في الماضي في دنيا السياسة ، فليحقق في الحاضر شيئا في خدمة الحضارة الاسلامية •

واعتقادي أن عمان التي حققت الكثير من التقدم في السنوات العشر الأخيرة جديرة أن تضم مفخرة احياء الحضارة الاسلامية الى مفاخرها الحديثة •

دكتور أحمد شلبي

مراجع البحث

المراجع العربية :

- ١ - القرآن الكريم •
- ٢ - الحديث الشريف •
- ٣ - كتب الفقهاء •
- ٤ - بحوث علمية في الصحف والمجلات •
- ٥ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ •
- ٦ - د. أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامى
عشرة أجزاء •
- ٧ - د. أحمد شلبي : موسوعة الحضارة الاسلامية
عشرة أجزاء •
- ٨ - د. أحمد شلبي : سلسلة مقارنة الأديان
أربعة أجزاء •
- ٩ - جلال مظهر : حضارة الاسلام •
- ١٠ - حامد بن صالح العلوى : تاريخ حضرموت •
- ١١ - إين خاندون : المقدمة •
- ١٢ - السامى : تحفة الأعيان •
- ١٣ - د. طه حسين : قادة الفكر •
- ١٤ - الأستاذ العبادى : علم التاريخ « الترجمة العربية
لكتاب Hearnshow » •
- ١٥ - عباس العقاد : الديمقراطية فى الاسلام •
- ١٦ - ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز •
- ١٧ - الامام على بن أبى طالب : نهج البلاغة •
- ١٨ - غوستاف لوبون : حضارة العرب •
- ١٩ - إين نباته المصرى : سرح العيون •
- ٢٠ - ابن النديم : الفهرست •

المراجع الأجنبية :

The influence of Islam.	: Bulus	— ٢١
Mediaeval Europe.	: Emerton	— ٢٢
A Short History of the Middle East.	: Kirk	— ٢٣
History of the Arabs.	: Dr. Philip Hitti	— ٢٤
The City of Pesce.	: Richard Coke	— ٢٥
History of 100 great events.	: Sumuel Dinsinson	— ٢٦
Preaching of Islam.	: Thomas Arnold	— ٢٧

دور عمّان
في نشر الإسلام في شبه القارة الهندية
الأستاذ الدكتور مير ولي خان المسعودي

١ — كلمة شاملة عن عمان :

لاشك أن عمان لعبت دورا هاما في الحضارة العربية وليس أدل على ذلك من حصونها وقلاعها وأغلاجها القائمة حتى الآن . كما أنها ليست حديثة العهد بالحضارة وإنما هي عريقة الحضارة وأصيلة الثقافة ، ذلك أنها كانت تتمتع منذ آلاف من السنين بالحضارة والثقافة وكانت حياة أهلها حياة رضا ونعمة ورفاهية كما وصفها ابن خلدون في مقدمته حيث قال :

هي من ممالك جزيرة العرب والجزيرة تشتمل على اليمن والمجاز والنشعر وحضرموت وعمان وهي خامسها : إقليم سلطاني منفرد ، شرقيها الخليج ، وجنوبيها بحر الهند ، وغربيها بلاد حضرموت ، وشمالها البحرين ، وهي كثيرة النخل والفواكه ، وبها مغاص اللؤلؤ ، سميت بعمان بن قحطان ، أول من نزلها بولاية أخيه يعرب ، وصارت بعد سيل العرم للأزد ، وجاء الاسلام ، وماوكها بنو الجلندی ...

ويقول المسعودي في مروج الذهب : وسنجان قصبه من بلاد عمان (يريد بها صحار) ولعل اسمها كان كذلك في لسان العجم •

ويقول الأندلسي الشريشي : صحار سوق عمان مدينة كبيرة على ساحل البحر ، مرساها فرسخ في فرسخ ، وبلاد عمان ثلاثون فرسخا ، ما ولى البحر سهول ورمال ، وما تباعد حزون وجبال ، وهي مدن منها مدينة عمان ، وهي حصينة على الساحل ، ومن الجانب الآخر مياه تجرى الى المدينة ، وفيها دكالين وأشجار •

وعمان كثيرة النخل والبساتين ، وضروب الفواكه ، والحنطة والشعير ، والأرز ، وقصب السكر ، وفي الأمثال : « من تعذر معه الرزق فعليه بعمان » •

وفي عمان الجبل الأخضر « ويقال له رضوى » وهو من عجائب الدنيا ،

مملوء بالفواكه من الرمان والعنب والجوز والخوخ والمشمش والبوت
والنمت وغيرها من أشجار الجبل ، وفيه من الرياحين كالورد والزعفران
والآس والفرجس وغيرها •

وقد سئل بعض أهله عن وصفه فقال : هو جبل عظيم الارتفاع ، صعب
الامتناع ، في وسط عمان ، أهله في رفاهة وأمان لا يخافون جور شيطان •

وعمان بلاد بها أنهار وقصور وحياض ورياض ، وبساتين بها كروم
وتين وتوت وجوز وخوخ ولوز ومشمش ورمان وفواكه ألوان ، محصنة
حدائقها بالورد والياسمين ، وحشيشها الزعفران الثمين ، والفودنج
والسنداب والفرجس المشبه بعيون الكعاب محفوفة بالآس كأنها الجنة في
القياس ، اختصت بالكرم والتفاح ، والشجر المعطر النفاح •

يقال : « وان حلت في أقطارها اكتفيت عن جنى أثمارها بكتمل
النمت ، والبوت شفاء وقوت ، تسفح عن هذا الجبل تسعة أودية ، وكل واد
به له طريق مؤدية ، وعلى أبوابها قرى لبنى ريام أحاطوا به كالأكمام
بالثمر ، والهالة بالقمر ، حامين لأبوابه من طلابه » •

٢ — استقرار العرب في عمان :

يقال ان دخول العرب الى عمان قد حدث قبل الاسلام بألفى عام ،
بعد ما أرسل الله على سبأ سيل العرم ، اذ خرجت الأزد منها الى مكة
وأرسلوا روادهم في النواحي ، يرتادون لهم الأمكنة ، ثم تفرقوا من هنالك
الى الأطراف ، وخرج مالك في جملة من خرج الى السراة ثم منها الى
عمان •

وفي مروج الذهب للمسعودي : أن مالكا سار من اليمن مع ولد
جفنة ابن عمر بن عامر مزيقيا ، فسار بنو جفنة نحو الشام ، وانفصل مالك

نحو العراق ، فملك على مضر بن نزار اثنتى عشرة عاماً ، ثم ملك بعده ابنه جذيمة . قال : وقد كان ملك جذيمة من مشارف الشام الى الفرات من قبل الروم ، وكانت داره بالموضع المعروف بالمضيرة بين بلاد الخانوقة وقرقيسيا ، قال : وأقام جذيمة ملكاً في زمن ملوك الطوائف خمساً وتسعين سنة ، وفي ملك أزد شير بابل وسابور الجنود بن أزد شير ثلاثاً وعشرين سنة ، فكان ملكه ثمانية عشرة سنة ومائة .

وجاء في الأنساب أن أول من لحق بعمان من الأزد مالك ابن فهم بن كعب ابن الحارث بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد .

وكان سبب قصة خروجه عن قومه الى عمان ، أنه كان له جار ، وكان لجاره ذلك كلبة وكان بنو أخيه عمرو بن فهم بن غانم يسرحون ويروحون على طريق بيت ذلك الرجل ، وكانت الكلبة تنجهم وتفرق غنمهم ، فرماها رجل منهم بسهم فقتلها ، فشكا جار مالك اليه ما فعل بنو أخيه ، فغضب مالك وقال : لا أقیم ببلد يؤذى فيها جارى ، ثم خرج مراغماً لأخيه عمرو بن فهم .

وقال أبو حاتم السجستاني عن أبي عبيدة عن أبي اليقظان ، قال : سبب خروج مالك بن فهم عن قومه بعد تفرقهم في البلاد حين أخرجهم سيل العرم من جنتى مأرب — ونزلوا بالسراة — أن داعياً للملك بن فهم خرج بغنم ، وكان في طريقهم ثنية فيها كلب عقور لغلام من دوس ، فشد الكلب على راعى مالك فرماه الراعى بسهم فقتله فتعرض صاحب الكلب لراعى مالك فخرج من السراة هو ومن أطاعه من قومه ، فجعل لا يمر بقبيلة من قبائل العرب من معد وغيرهم من اليمن الا سالوه ووادعوه لمنعته وكثرة عساكره .

وتقدم في قبائل الأزد ومن معه من أحياء قضاعة الى أرض عمان فوجد

بعمان « الفرس » من جهة الملك دارا بن دارا ، وهم يومئذ أهلها وسكانها . والمتقدم عليهم « المرزبان » عامل ملك فارس ، فعند ذلك أنزل مالك بن فهم من كان معه من الحشم ، والعيال ، والنساء ، والأطفال الى جانب « قلعات » من شدا أرض عمان ، ليكون أمنع لهم ، وترك عندهم من الخيل والرجال من يحفظونهم .

ثم سار هو ببقية عساكره وصناديد رجاله ، وقد جعل على مقدمته ابنه هناة بن مالك في ألفى فارس ، حتى دخل ناحية الجوف ، فعسكر بالصحراء وأرسل الى الفرس — والمتقدم عليهم يومئذ « المرزبان » عامل الملك على عمان — يطلب منهم النزول في قطر من عمان ، وأن يفسحوا له ، ويمكنوه من الماء والكلأ ، ليقيم معهم . فأتهموا بينهم وتشاوروا في أمره حتى طال ترديد الكلام والتشاور بينهم ، ثم أنهم أجمع رأيهم على صرفه ، وأن لا يمكنوه مما طلب ، وقالوا : لا نحب أن ينزل هذا العربي معنا ، فيضيق علينا أرضنا وبلادنا فلا حاجة لنا في قربه وجواره .

فلما وصل جوابهم الى مالك ، أرسل اليهم أنه لا بد لى من المقام في قطر من عمان ، وأن تواسوني في الماء والمرعى ، فان تركتموني طوعا نزلت في قطر من البلاد وحمدتكم ، وان أبيتم أقمتم على كرهكم ، وان قاتلتهموني قاتلتكم ، ثم ان ظهرت عليكم قتلت المقاتلة ، وسبيت الذراري ، ولم أترك أحدا منكم ينزل عمان أبدا ، فأبى الفرس أن تتركه طوعا ، وجعلت تستعد لحربه وقتاله .

ثم ان « المرزبان » أمر أن ينفخ في البوق الذى يؤذن فيه بالحرب ، وأن يضرب الطبل ، وركب في جنوده وعساكره ، وخرج من صحار في عسكر جم ، فيقال انه كان في زهاء أربعين ألفا ، ويقال ثلاثين ألفا ، وخرج معه بالفيلة وسار يريد الجوف في لقاء العرب ، فعسكر بصحراء سلوت وبلغ ذلك مالكا ومن معه ، فركبوا جميعا ، وكانوا في زهاء ستة آلاف فارس

وراجل ، وعلى مقدمته ابنه هناءة في ألفى فارس من صناديد الأزد وفرسانها ،
فأقبل في تلك الهيئة حتى أتى صحراء سلوت ، فحسكر بازاء عسكر
« المرزبان » •

ثم مكثوا يومهم ذلك الى الليل ، ولم يكن بينهم حرب ولا قتال ، ثم ان
مالكاً بات ليلته تلك يعبى أصحابه يمينه ويسرة وقلباً ، ويكتب الكتائب ،
ويوقف فرسان الأزد مواقفهم ، غولى الميمنة هناءة بن مالك وولى الميسرة
ابنه فراهيد بن مالك ، وسار هو في القلب في أهل النجدة والشمدة من
أصحابه •

وبات « المرزبان » يعبى ويكتب كتائبه حتى اذا أصبحوا تواقفوا
للحرب ، وقد استعد كل واحد من الفريقين ، وركب مالك بن فهم فرساً له ،
أبلق ، وظاهر بين درعين ، وليس عليهما غلالة حمراء ، وتكم على رأسه
بكمة حديد ، وتعم عليها بعمامة صفراء ، وركب معه ولده وفرسان الأزد على
تلك التعبئة ، وقد تقنعوا بالدروع والبيض والجواشن ، فلا يبصر منهم الا
الحدق •

والتحم الفريقان ودارت رحا الحرب على « المرزبان » وتغلب مالك بن
فهم عليه في هذه المعركة الحاسمة وأظهر فيها بسالته وكفائه وقتل فيها
« المرزبان » وهزم الجيش الفارسي أبشع هزيمة ، فكتب الفرس الى الملك
دارا بن دارا وأعلموه بقدوم مالك بن فهم ومن معه الى عمان وقتله لقائده
« المرزبان » في جل قواده وعسكره ، وما كان من شأنه ، وأخبروه بما هم
فيه من الضعف والعجز ، واستأذنوه في التحمل اليه بأهلهم وذرايرهم الى
فارس •

فلما بلغ ذلك الملك « دارا » غضب غضباً شديداً ودخله القلق ، وأخذته
الحمية لمن قتل من أصحابه وقواده ، فعند ذلك دعا بقائده من عظماء مرازبته

وأساوريته ، وعقد له ثلاثة آلاف من أجلاء أصحابه وشجعان مرازبته وقواده
وقدمه فيهم ، ويعيهم مددا لأصحابه الذين بعمان ، فتحملوا الى البحرين ،
ثم تخلصوا الى عمان ، وكل هذا لم يدر به مالك بن فهم • فلما وصلوا الى
أصحابهم أخذوا يتأهبون للحرب •

فعند ذلك زحف عليهم مالك بن فهم في خيله ورجاله ، وسار حتى
وطىء أرضهم واستعدت الفرس لقتاله ، ومعهم الفيلة ، فلما قربوا من
عسكره عبأ أصحابه راية راية وكتيبة كتيبة •

جعل على الميمنة ابنه هناة بن مالك وجعل على الميسرة فراهيد بن مالك
وقام هو وبقيّة أولاده في القلب ، والتقوا هم والفرس فاقتتلوا قتالا شديداً
ودارت الحرب بينهم كأشد ما يكون ملياً من النهار ، ثم انكشف الفرس وكان
معهم فيل عظيم فتركوه ، فدنا منه « هناة » فضره على خرطومه فولى
وله صياح وتبعه « معن بن مالك » فحرقه فسقط •

ثم ان الفرس ثابوا وتراجعوا وحملوا على الأزد حملة رجل واحد ،
فجالت الأزد جولة وناذى مالك : يا معشر الأزد اقصدا الى لوائهم فاكشفوه
من كل وجه ، وحمل بهم على الفرس حملة رجل واحد حتى كشفوا اللواء ،
واختلط الضرب ، والتحم القتال ، وارتفع الغبار ، وثار العجاج حتى حجب
الشمس ، فلم تسمع الا صليل الحديد ووقع السيوف ، وتراموا بالسهم
فتضعفت ، وتجادوا بالسيوف فتكسرت ، وتطاعنوا بالرماح فتحطمت ،
وصبروا صبرا جميلا ، وكثر الجراح والقتل في الفريقين •

ثم لم يكن للفرس ثبات فولوا منهزمين على وجوههم ، فاتبهم فرسان
الأزد يقتلون ويأسرون من لحقوا وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، ولحق فراهيد
سفندار بن مرزيان وكان من أعظم قواد العجم ، فطعنه فأرداه عن فرسه ،
ثم علاه بالسيف فقتله •

وسارت غرسان الأزرد ومن خف من أبطالهم في آثار العجم لا يلوون على سلب ولا غيره يومهم ذلك كله يقتلون ويأسرون حتى حال بينهم الليل ، فما أفات منهم الا من ستره الليل ، فتحمل من بقى منهم من تحت ليله ، وركبوا في السفن وعبروا الى أرض فارس ، واستولى مالك بن غهم ومن معه على سوادهم ، فاستباحهم ، وغنم أموالهم ، وسجن من الأسرى خلقاً كثيراً ، فمكثوا في السجون زمناً ، ثم أطلقهم ومن عليهم بأرواحهم ، وكساهم ووصلهم وذودهم ، وحملهم في السفن الى أرض فارس ، واستولى على عمان فملكها وما يليها ، وباسها وسار فيها سيرة جميلة •

٣ - دخول أهل عمان في الاسلام :

لقد استجاب أهل عمان الى دعوة الاسلام طوعاً ورضا وهذا دليل قاطع على رصافة عقول أهل عمان ، كما أنه حجة بالغة في أن السيادة في عمان كانت سيادة رشيدة تدبر الأمور بعقل ورشاد بدل عاطفة وطمش ذلك أنهم عندما رأوا أن الدعوة الاسلامية دعوة حق تدعو للناس الى الصراط المستقيم والدين القويم لبوا لها واعتنقوا الاسلام حيناً لهم بدون أية معارضة أو مقاومة •

لذلك بقي أهل عمان أعزاء مقربين الى النبي صلى الله عليه وسلم وارتفع مقامهم في أعين الصحابة والمسلمين • وقال الواقدي بهذا الصدد : ان النبي صلى الله عليه وسلم كتب الى جيفر وعبد ابني الجلندي الأزدي بعمان وبعث عمرو بن العاص بن وائل السهمي بكتابه اليهما •

وكان كتابه صلوات الله عليه صحيفة أقل من الشبر خيها : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى جيفر وعبد ابني الجلندي السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فاني أدعوكم بدعوة الاسلام أسلماً تسلموا ، فاني رسول الله الى الناس كافة لأُنذِر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين ، وانكما ان أقررتم بالاسلام بقيتما على ما أنتم عليه من سلطان •

وكان أبىّ بن كعب هو الذى أملى الرسول عليه هذا الكتاب وطوى الرسول الصحيفة وختمها بخاتمه المبارك ، وكان نقش الخاتم : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » •

قال : فقدم عمرو بن العاص بكتاب النبی صلى الله عليه وسلم الى عبد وجيفر ابنى الجلندى بعمان ، فكان أول موضع دخله من صحار « دستجرد » وهى مدينة بنتها العجم فى صحار فى مهادنتهم ابنى الجلندى ، فنزل بها وقت الظهر ، وبعث الى بنى الجلندى وهم فى بادية عمان ، فكان أول من لقيه عبد بن الجلندى •

وكان عبد بن الجلندى أحلم الرجلين وأحسنهما خلقاً ، فأوصل عمراً الى أخيه جيفر بن الجلندى بكتاب النبی صلى الله عليه وسلم ، فدفعه اليه مختوماً ففُصِّلَ خاتمه وقرأه حتى انتهى الى آخره ثم دفعه الى أخيه عبد فقرأه مثل قراءته •

ثم التفت الى عمرو فقال : ان هذا الذى تدعو اليه من جهة صاحبك أمر ليس بصغير ، وأنا أعيد فكري فيه وأعلمك ، وأنه استحضرت جماعة الأزد وبعثوا الى كعب بن برشة العودى فسألوه عن النبی صلى الله عليه وسلم فقال :

الرجل نبىّ وقد عرفت صفته ، وسيظهر على العرب والعجم ، فأجاب الى الاسلام وأسلم هو وأخوه فى ساعة واحدة ، ثم بعث الى وجوه عشائره فبايعهم لمحمد صلى الله عليه وسلم وأدخلهم فى دينه ، وألزمهم تسليم الصدقة ، وأمر عمراً بن العاص بقبضها على الجهة التى أمره بها النبی صلى الله عليه وسلم ، ثم بعث الى « دىبى » وما يليها الى آخر عمان ، فما ورد رسول جيفر على أحد الا وأسلم وأجاب دعوته •

هكذا أسلم أهل عمان واعتنقوا الدين الحنيف برحب الصدر ، فأخلصوا فيه منذ ذلك الوقت الى يومنا هذا . لقد رأت عمان تيارات عديدة وحملات شديدة في مختلف العصور ولكنها صمدت لتلك التيارات وواجهت بثبات جميع تلك الحملات حتى استطاعت أن تشخص معالمها وتسجل تاريخها وحضارتها مساهمة بذلك في توسيع الحضارة العربية الى خارج الجزيرة العربية ، الى جانب قيامها بنشر الثقافة العربية في أنحاء العالم كله .

٤ - قيام عمان بنشر الحضارة والثقافة العربية في شبه القارة الهندية وبلاد السند :

لقد قامت عمان بدور فعال في نشر الحضارة والثقافة العربية في شبه القارة الهندية بصفة عامة ووادي السند بصفة خاصة ، ذلك أنه كانت التجارة رائجة بين ماغان (عمان) ودلون (البحرين) وملوكة (وادي السند) منذ زمن بعيد ، وكان تجار عمان وما يليها من البلدان العربية يقومون بالتجارة في مختلف بلاد الهند والسند عن طريق البحر فجلبوا معهم العادات والرسومات العربية من الكرم والشهامة والفروسية وغيرها من العادات الشائعة في العرب .

هذا قبل ظهور الاسلام ، ولما ظهر الاسلام قام هؤلاء التجار يدعون الناس في مختلف بلاد الهند والسند الى الدين الاسلامي وابتناء الخلق الاسلامي الطيبة ، وكانت القوافل التجارية تنتقل بين ماغان ودلون وملوكة بصفة مستمرة ، وفي عام ٧٠٠ ق.م نشطت تجارة البهارات والاعطور والأخشاب النادرة بين ماغان وملوكة الى أبعد الحدود التجارية ، وتوغل التجار الى داخل الهند والسند حتى وصلوا الصين فلم يكن همهم ، الى جانب التجارة ، غير نشر الثقافة العربية والتعاليم الاسلامية .

وقد استوطن البعض منهم في بلاد السند حتى أني سمعت أن هناك

قرية من قرى السند يتحدث أهلها باللغة العربية غير أن عربيتهم محرفة الى درجة أنه لا يستطيع الانسان أن يفهمها وان كان عربيا قحا ، وهذا دليل قاطع على أن عمان لعبت دورا هاما في نشر الحضارة العربية في داخل عمان حيث استولى مالك بن فهم على عمان وطرد الفرس منها وبذلك خلصها لازدهار الحضارة العربية •

كما قام أهل عمان وخاصة تجارها ينشرون الحضارة والثقافة العربية ويدعون الناس الى الدعوة الاسلامية والى تعاليمها الغراء في مختلف بلاد الهند والسند وبذلك يجدر القول بأن عمان قامت بدور هام في حضارة العرب داخل البلاد العربية وخارجها وخاصة بعد سيل العرم في اليمن ، اذا أنها أصبحت مركزا هاما من حيث موقعها الجغرافي ، لأنها بقيت قاعدة لنشر الثقافة العربية في بلاد الهند والسند والصين وأفريقيا ، وهى حصن منيع للحضارة العربية في الخليج العربى ومهد أصيل للتراث العربى في هذه المنطقة ، ومنبع عذب للثقافة العربية للدول المجاورة كباكستان وايران ، ولا زالت عمان تعد باباً بحريا لدول الخليج شرقاً وغرباً •

محتويات المجلد الثاني

الصفحة	الموضوع
	ثانيا - تاريخ عمان ونشاطها الداخلي من مطلع الاسلام حتى الآن (استمرار لما نشر بالمجلد الأول) •
١٢٩ — ٥	الدولة العمانية : نشأتها وازدهارها صادق حسن عبدواني
٢٣٩ — ١٣١	الاستحكامات الحربية في مسقط للأستاذة الدكتورة سعاد ماهر
٣٠٣ — ٢٤١	الحضارة الاسلامية ودور العمانيين في تطويرها الأستاذ الدكتور أحمد شلبي
٣١٦ — ٣٠٥	دور عمان في نشر الاسلام في شبه القارة الهندية الأستاذ الدكتور مير ولي خان المسعودي



٦ شارع البراموي - عابدين - القاهرة ت : ٩١٤٨٨١



بمكتبة الإسكندرية
Bibliotheca Alexandrina



0212079